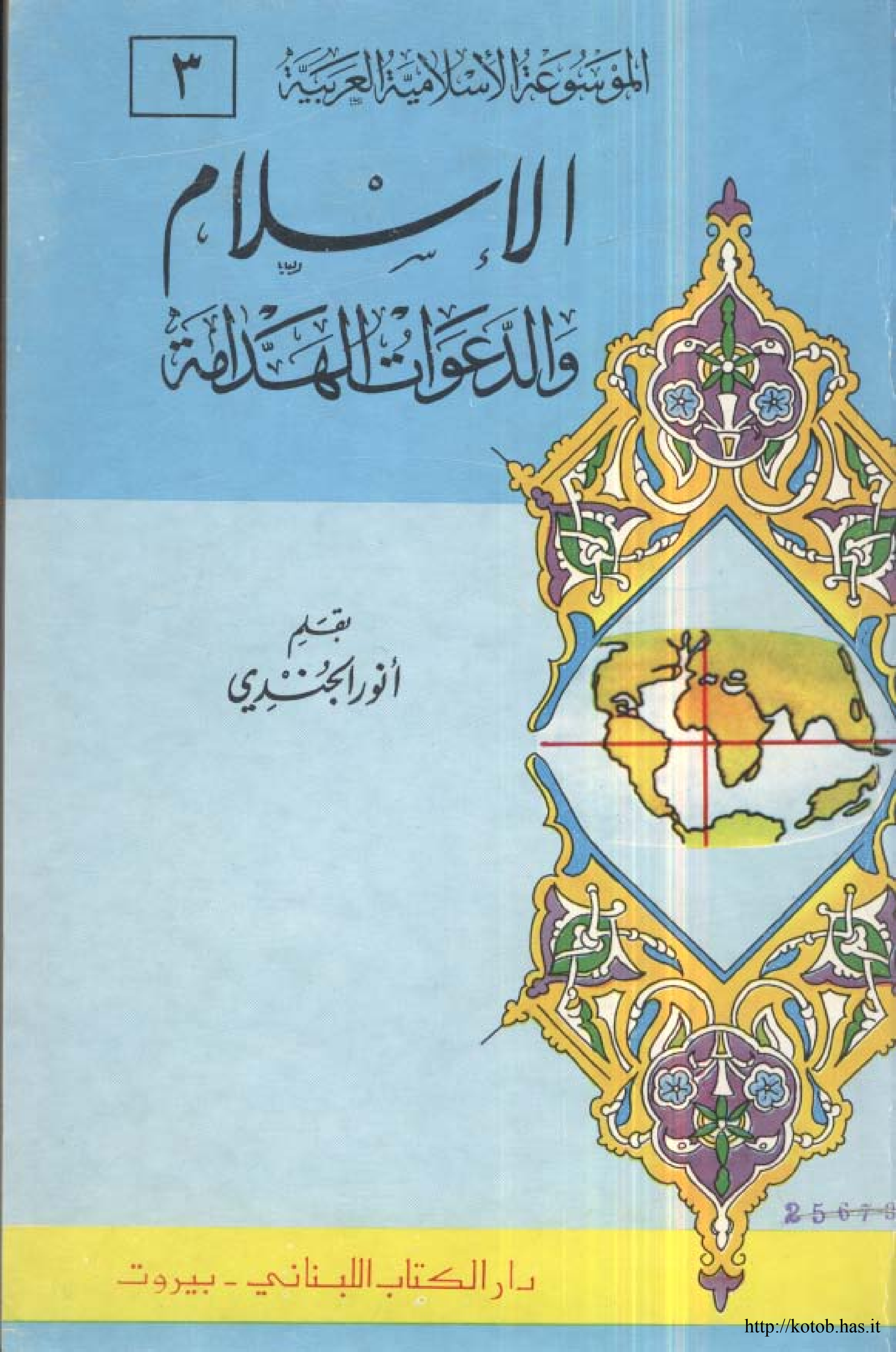
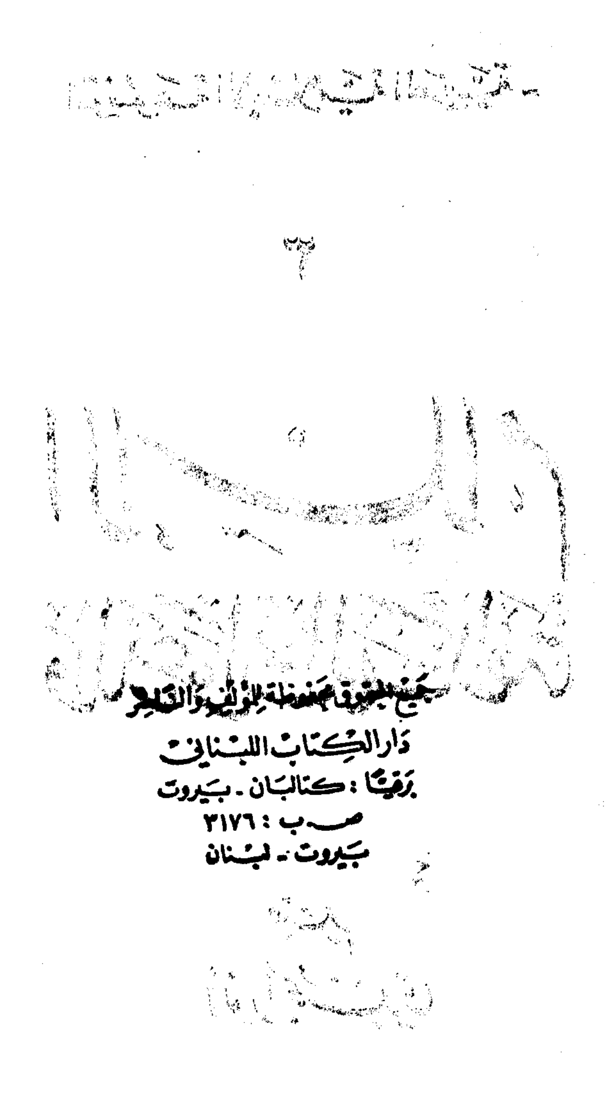

الموسوعة الإسلامية العربية
٣
الإسلام
والدعوات الهدامة
بقلم
أنور الجندي
دار الكتاب اللبناني - بيروت

الموسوعة الإسلامية العربية -



بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - بيروت



دار الكتاب اللبناني
برقيا : كتالبان - بيروت
ص ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٤

فهرس

مدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

لفت القرآن الكريم انظار المسلمين إلى الدعوات الضارة ، والمذاهب الهدامة ، ووضع الأسس الثابتة لمواجهة الشبهات ، وكشف عن مخططات الاحتواء والتبعية . وتحريف الأصول الثابتة . ونبه المسلمين إلى الحذر عن متابعة غير المسلمين والتماس ما عندهم :

« وَدَّ كثيرٌ من أهل الكتابِ لو يَرُدّونَكُمْ من بعدِ إيمانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً من عندِ أنفُسِهِمْ من بعدِ ما تبيّنَ لهُمُ الحَقّ » .

« يَا أيها الذين آمنوا إنْ تُطيعُوا فريقاً من الذين أُوتُوا الكتابَ يَرُدّوكُمْ بعد إيمانكم كافرينَ » .

« ألمْ ترَ إلى الذينَ أُوتُوا نَصيباً من الكِتابِ يَشْتَرُونَ الضلالَةَ ويُريدونَ أن تَضِلّوا السبيلَ » .

كذلك كشف الله حقيقة موقف البشرية من العلم . وكيف خالف فيه قوم ، والتمسوا منهجاً غير منهج الله :

« كانَ النّاسُ أُمّةً واحِدَةً فبعثَ اللهُ النّبِيين مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ . وأنزلَ مَعَهُمُ الكتابَ بالحقّ لِيَحْكُمَ بيْنَ الناسِ فيمَا اختلَفُوا فيه .

وَما اختَلَفَ فيهِ إلا الذينَ أوتُوهُ مِنْ بعدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بينهم. فَهَدَى اللهُ الذين آمنوا لِمَا اختَلَفُوا فيهِ من الحقّ بإذنِه واللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ».

ولقد كانت محاولات الدعوات الهدامة منذ قديم جارية إلى هدفها المرسوم لإثارة الشبهات ، وتزييف الحقائق ، والهدم عن طريق مذاهب ، لها بريق العلوم وأسماؤها . وهي في مجموعها تقوم على أساس إدخال السموم والزيوف إلى الفكر البشري لنقله من ربانيته ، وطابعه الإنساني ، ومصادره التي جاء بها الأنبياء ، وكتب السماء إلى تلك المخططات التي رسمتها التلمودية ، منذ قديم ، وأقامتها على أساس الوثنية والمادية جميعاً .

وفي العصر الحديث ظهرت علوم تحمل هذه الشبهات ، وتحاول أن تفرضها كمقررات علمية . فقد استطاعت هذه القوى أن تدس عن طريق علم مقارنة الأديان ما يراد به تزييف حقيقة الدين وتاريخه ، كالقول بأن البشرية كانت وثنية ، ثم تطورت إلى التوحيد . كما استطاعت أن تدس عن طريق علم الأجناس البشرية مفهوماً يقضي بإعلاء العنصرية والدماء . ويحطم قاعدة الاسلام الأصيلة القائمة على وحدة الجنس البشري .

وهناك نظريات متعددة تطرح لمعارضة الدين أصلاً ، وهدم التوحيد ، ومذاهب تستهدف هدم الأخلاق والأسرة عن طريق مناهج المدارس الاجتماعية ، وهناك التفسير المادي للتاريخ . وهناك نظريات فرويد في الجنس ، ونظريات ليفي بريل في نسبية الأخلاق .

وبالجملة . فهناك محاولة ضخمة إلى نقل الفكر البشري من مجال أصالة الفطرة ، ومنطق العقل ، وطريق التوحيد ، وطابع الإيمان إلى مجال الإلحاد والإباحة والوثنية والمادية. وهي دعوات تستمد أصولها من مخططات بروتوكولات حكماء صهيون ، التي هي الصورة المستحدثة لمخططات التلمود .

من عجب أن القرآن قد كشف عن هذه المحاولة الخطيرة بأكملها ، وأبان عن تلك الجماعة التي فرضت على البشرية فكراً مضاداً للفكر الرباني المصدر ،

الانساني الطالع ، وشكلت محتوى ، ومفهوماً ، وفلسفة كاملة . وقد جاءت الرسالات تترى لتصحيح هذا المفهوم . وكان الاسلام هو خاتم الرسالات في تحطيم هذه المفاهيم . والكشف عن زيفها على نحو صريح قائم على البرهان الحق . وهو هدى صحيح وضوء كاشف لكل من يلتمسه .

وتجري الآن محاولة (اليهودية التلمودية) في نطاق النهج الذي حملت الدعوة إليه على مدى العصور في معارضة الفطرة ودعوة السماء . وفي محاولة إخضاع العالم كله للنهج الربوي : (عالمية الربا) .

وهو الآن يأخذ طريقه إلى النفوس التي جهلت الحق وعشيت عن نوره الكاشف .

ولقد اختار الله المسلمين ليحملوا الكلمة المؤمنة الربانية في وجه هذا الباطل . وعليهم مسؤولية دحض هذه الشبهات ، وإليهم أمانة الدفاع عن الحق ، وكشف الزيف ، جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر . ولا ريب أن هذه الدعوات الهدامة قد سيطرت على الفكر الغربي . وأوشكت أن تحتويه ، وهي اليوم تواجه الإسلام . طمعاً في أن تسيطر عليه ، ولكن الاسلام بمفهومه الصحيح . وكتابه الموثق ، وصموده أمام الأحداث ، ومواجهته الصلبة لكل فكر وافد . أو مذهب زائف ، سيظل قادراً على أن يرد الخطر ، ويكشف وجه الحق ، ويبطل الباطل . ولا ريب إن الفكر التلمودي المادي الوثني فكر مراوغ براق ، يحاول أن يضع أكاذيبه وأضاليله داخل مناهج علمية ، ولكنه مهما خدع بعض البسطاء . فإنه لن يستطيع أن يثبت أمام صولة الحق !

وإن نظرة واحدة إلى هذه المذاهب لتكشف عن أنها مفاهيم قديمة وثنية من ركام الفلسفات الهلينية والغنوصية والمجوسية ، وما يتصل بها من السحر والأساطير . تحاول أن تصاغ في أسلوب براق ، وأن هذه الدعوات وجدت طريقها حين عجز الدين في بيئات الغرب عن العطاء . وحين انفصلت الأخلاق عن الدين ، وضاعت مفاهيم الالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية . هذه النظريات التي كشفت السنوات الأخيرة عن بطلانها . فقد كان لتحول

الأحداث أبعد الأثر في جمودها ، واضطرابها مما دفع أصحابها إلى إعادة النظر فيها ، وتجديدها . فقد تصدعت الفرويدية والماركسية والوجودية والهلينية لأنها قامت على أصول غير صحيحة . ومضت مضادة للتيار ، ومعارضة للفطرة . وقد فات الذين طرحوا هذه المذاهب في البيئات الاسلامية أن يعلموا أن هذه الدعوات إنما نشأت في بيئات خاصة بها ، ومن خلال تحديات مختلفة . ومن هنا فإنها لا تصلح لبيئات أخرى . وأن العقيدة الإسلامية لها قيمها الأصيلة التي تعارض فصل الدين عن الأخلاق . والتي تنكر أن الانسان مادة فقط ، والتي تفرق بين قوانين البشر وقوانين الله . وتفصل بين الله وبين البشرية والعالم وتنكر الوساطة بين الله والناس . ولا تقر إسقاط التكليف عن أي مسلم مهما بلغ من درجات الإيمان، ولا تقبل الدعوة إلى صراع الأجيال ، أو إطلاق الحرية من جميع ضوابطها ، أو معارضة عالم الغيب والبعث والجزاء . وترى أن هذا كله انما يراد بالبشرية لتحطم الجدار القوي الذي تستند إليه في علاقتها بالله والدين الحق بما يسلمها جيلا بعد جيل إلى السقوط في أحضان استعباد خطير . وعبودية للمخططات التلمودية المتطلعة إلى السيطرة على العالم بعد تحطيم قيمه وأخلاقه ومقدراته . وتلك أخطر المخططات التي تجتاح البشرية والتي طرحت في السنوات الأخيرة عشرات الدعوات والمذاهب والفلسفات المضللة الهدامة . وكلها تقصد الاسلام اليوم . فهو القوة الوحيدة التي تستطيع أن تصمد في وجه الإلحاد والمادية، والوثنية، والاباحية ، والمسلمون مطالبون دائماً باليقظة والمواجهة . والتصدي لكل القوى التي تحاول أن تفتّ في عضدهم ، أو تفسد مقوماتهم ، أو تحطم معنوياتهم .

وأول علامات اليقظة هو فهم هذه الدعوات، ومعرفة موقف الاسلام منها ، وهذا ما نرجو أن نحاوله في هذه الدراسة المتواضعة .

مصادر المذاهب الهدامة

(١) الغنوصية : الفلسفة الشرقية القديمة

(٢) تحريف العقيدة السبئية

(٣) المذاهب الهدامة والالحاد

(٤) الله في مفهوم الاسلام

(٥) عقيدة البعث

[illegible]

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

(٤) [illegible]

(٥) [illegible]

١

الغنوصيّة

الفلسفة الشرقيّة القديمة

الغنوصية : مصطلح للفلسفة الشرقية التي كانت ذائعة قبل نزول الاسلام ، وتقوم في مجموعها على فهم بشري ، يشكل نظرية مختلطة من عدة مذاهب وعقائد . ومعارضة كل المعارضة لمفهوم الإسلام والتوحيد القائم على أساس الفطرة . وتتألف الغنوصية — التي هي اسم على المعرفة « Gneso » من مذاهب متعددة . منها المجوسية والمانوية والزرادشتية والديصانية والمزدكية والمندائية ، والمرقوية ، وتجمع في مقاصدها :

١ — عبادة النار وتقديسها .

٢ — افتراض وجود إلهين إله خير وإله شر . أو نور وظلام .

٣ — استباحة المحرمات ، والدعوة إلى شيوعية النساء والأموال . وإباحة نكاح الأخوات ، والاغتسال بالبول .

٤ — رفض الذبائح . ورفض إراقة الدماء . والزهد في أكل اللحوم . وفي مس الماء الطهور .

ولا ريب أن الفكر الشرقي القديم الذي ظهر عن المصريين والفرس والآشوريين والبابليين والهنود والصينيين ، والذي قام على مفاهيم وثنية وثنائية ومثلثة إنما هو حصيلة التضارب الذي وقع بين الفكر الانساني الرباني المصدر الذي جاءت به الرسالات والأديان السماوية ، وبين محاولات الفكر البشري

للخروج عن الضوابط والحدود والقيم الأخلاقية والشرائع التي شرعها الحق تبارك وتعالى لعباده .

ولذلك فإن من أخطر ما يقوله باحث من الباحثين : ان البشرية بدأت وثنية ، ثم عرفت التوحيد بنزول الأديان الثلاثة . اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام . وقد سجل القرآن ذلك في قوله تعالى : « وما كانَ النّاسُ إلا أمةً واحِدَةً فاختَلَفُوا » وقال تعالى « ومَا تَفَرّقُوا إلاَ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ » .

وتمثل الغنوصية في الفكر الشرقي القديم مكانة الهلينية في الفكر الغربي القديم . وقد قامت الغنوصية على مفهوم الإشراق والمعرفة عن طريق الروح والبصيرة ، بينما قامت الهلينية على مفهوم العقل والمعرفة عن طريق المنطق . وإن من يقرأ عصارة الفكر البشري وحصيلة التراث القديم ير كيف تراكمت آراء ونزعات متضاربة فاسدة غاية التضارب والفساد ، تقوم على الإباحة والشك ، والضلال والاضطراب .

فالدهرية : تقول بقدم العالم ، وإن العالم بلا إله ولا صانع .

والطبيعية : تقول بأن التراب والماء والنار والهواء هي أصول كل شيء .

والثنوية : تقول إن صانع العالم اثنان : الخير والشر . أو النور والظلام وهما قديمان .

والبرهمية : تقول بتعظيم النار ، والنهي عن قتل الذبائح ، وإباحة الزنا . وتقول بالتناسخ (١) والتثليث والتجسد (٢) .

والفلاسفة تقول بإنكار بعث الأجساد ، ورد الأرواح إلى الأبد . والصابئة تقول بعبادة الملائكة واعتبارها آلهة .

---

١ – التناسخ : انتقال الروح من جسد إلى جسد .

٢ – التجسد : إنكار وجود الله والآخرة لأنهما غير محسوسين .

والمجوس تقول بعبادة النار ، والصلاة إلى الشمس ، ومنع الاغتسال بالماء تعظيماً له ، واستعمال بول البقر بدلاً منه .

وقد أخذت الدعوات الهدامة من المذاهب الضالة . فأخذ القرامطة مشاعية النساء والأموال التي دعا إليها مزدك . وأخذ الباطنية إنكار البعث والجزاء . وأخذت السبئية الوصاية والرجعة وهكذا .

وإن أخطر ما تحمل هذا المذاهب من معارضة للإسلام : هو إلغاء التكليف . وإلغاء الالتزام الأخلاقي . والدعوة إلى إسقاط فرائض الإسلام . وإباحة ارتكاب المحرمات . والإغراق في اللذات ، والقضاء على الفوارق الواضحة بين الخير والشر ، والتقوى والإباحة ، والفضيلة والرذيلة .

وقد استعرض الدكتور علي سامي النشار مفهوم الغنوصية وتاريخها . فأشار إلى أن كلمة Gneso (غنوص) إنما تعني المعرفة . غير أن الكلمة لم تلبث أن اتخذت معنى اصطلاحياً خاصاً هو : الاتجاه نحو التوصل إلى المعارف العليا بنوع من الكشف . أو محاولة تذوق المعارف الإلهية تذوقاً مباشراً بأن تلقى في النفس إلقاء . وأشار إلى أن الغنوص هو عصارة مذاهب فارسية وسريانية . وأفلاطونية . وفيثاغورثية . ولها اتصال بالمسيحية . واليهودية . والزرادشتية . والمانوية . يقول الدكتور النشار :

وقد قاومت المسيحية هجوم الغنوص مقاومة عنيفة ، ولكن الغنوص استطاع أن يغزوها غزواً فظيعاً ، فسيطر على طائفة من أعظم المفكرين في مقدمتهم القديس أوغسطينوس .

أما الإسلام فقد واجه غنوص الزرادشتية والمانوية والثنوية. وقد ظهرت هذه العقائد في شكل طوائف خاصة . دعيت باسم الباطنية أو الغلاة أو القرامطة .

ويشير الدكتور النشار إلى أن الغنوص استطاع أن يلقي بظله على الفلسفة ، وخاصة الفلسفة الصوفية فيما يتصل بنظرية الفيض . أو العقل الأول . أو النور .

ويعد الحلاّج والسهروردي المقتول من ضحايا الغنوصية وتجاوز مفاهيم الإسلام في البحث عن مثل أعلى للحياة الانسانية يستند على التعامل الباطني بعيداً عن منهج الاسلام في المعرفة المستمدة من القرآن .

إحياء الباطنيّة القَديمَة

كان لا بد من إحياء الباطنية القديمة لأداء نفس الدور الذي قامت به ، وقد أخذت الدهرية من الباطنية القديمة تمردها على الاسلام ، وأضافت إليه ما توصلت اليه أساليب البحث من قدرة على تزييف الوقائع وطلائها بالبريق الذي يخطف الأبصار . بما يحقق نشر الإلحاد والاباحية تحت ستار العلمانية .

والمعروف أن الباطنية القديمة ، قد وضع جذورها يهودي قديم مشهور ، هو عبد الله بن سَبَأ . الملقب بابن السوداء . الذي قال بحلول الإله في بعض عباده ، ورجعتهم بعد موتهم الظاهري . ومن ابن سبأ تشعبت فرق الغلاة[1]، ثم تبلورت الأفكار الباطنية في القرن الرابع على أيدي فلول المجوسية المنهزمة، وتشعبت إلى فرق متعددة تربطها غاية واحدة هي القضاء على الإسلام . وشريعته الخالدة .

وإن أخطر ما طرحته الباطنية — وما تزال تطرحه المذاهب الهدامة، هو التأويل الذي يؤدي إلى تعدد وجهات النظر ، وتباين الآراء دون الاستناد إلى قاعدة معلومة وهذه تتبع الأهواء والرغبات التي يضيع معها الحق ، أو تشوه معالمه . وكان ضرر الباطنية على الاسلام أكبر من ضرر أعدائه الصرحاء . وذلك

---

١ — الفرق بين الفرق للبغدادي .

أن الباطنيين أباحوا لأتباعهم جملة الملذات والشهوات، وأسقطوا عنهم فرائض العبادات كما أباحوا لهم، تأويل أركان الشريعة (١) .

* * *

قبل علماء المسلمين من مترجمات اليونان علوم الطبيعيات والرياضيات، وعارضوا الإلهيات والميتافيزيقا اليونانية . وقالوا : إن لنا علمنا في هذا المجال. ولسنا في حاجة إليها .

وقد ثبت أن هذه الإلهيات ليست سوى علم الأصنام عند اليونان، وأنها عصارة مفاهيم الوثنية القومية . وقد ترجموها إلى لغة الفلسفة، وأضافوا عليها صيغة من الفن .

وما العقول والأفلاك إلا رموز للوثنية الإغريقية القديمة . وما أفعالها وحركاتها وتصرفاتها، إلا عقلية توارثتها الأجيال عندهم، ووثنية تعارض التوحيد، وتحل محل عقيدة الصفات الإلهية .

ومن خلال هذه المفاهيم عن الإلهيات اليونانية . جاءت معارضة التوحيد والنبوة، والوحي، والبعث، والجزاء . وهي الأصول الأصيلة للإسلام والتي يعد من يجحدها خارجاً عن الدين .

وقد اتخذ خصوم الاسلام والعرب والدولة الإسلامية من إذاعة الإلهيات اليونانية وسيلة إلى هدم الدين على طريقة (الهدم من الداخل) المعروفة . ذلك أن إسقاط التكليف، وإنكار المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي من شأنه أن يفتح الباب واسعاً أمام حرية الشهوات واللذات، والدعوة إلى الإباحية، وعبادة الجسد . وقد كانت هذه هي

---

١ – الاسفراييني : في كتابه « التبصر بالدين » .

الأعلام التي رفعتها « الدعوة الباطنية » بكل عناصرها ، وتحت أسمائها المختلفة المتعددة . وقد اتخذوا لهدفهم مدخلاً زائفاً حين قالوا : إن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها أو تطهيرها إلا بالفلسفة !

يقول العلامة : أبو الحسن الندوي (١) :

« شعروا بأن الإسلام لا ينهزم في ميدان الحرب ، وأن المسلمين لا تصح دعوتهم إلى الإلحاد السافر ، فإن هذا يلهب غيرتهم الدينية . لذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوباً لا يزعج المسلمين . ولا يثيرهم . هو الفرق بين الظاهر والباطن . عن طريق الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها .

فعن طريق هذه المصطلحات تقوم الصلة بين المسلمين بماضيهم ومنابعهم الصافية . فإذا انقطعت هذه الصلة بين الكلمات والمعاني وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ، ومفهوم معين ، تسرب الشك والاختلاف إليها ، وأصبحت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة » .

قالوا (٢) إن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري مع الظواهر مجرى اللب من القشر ، وان تصوراتها توهم الجهال صوراً جلية ، وهي عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية ، وان من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار ، وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع . ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه » .

ولما تقرر أن لكل لفظ ومعنى شرعي ظاهراً وباطناً . وأن الباطن هو اللب .

---

١ — في كتابه : « رجال الدعوة والفكر » .

٢ — « تبليس ابليس » لابن الجوزي .

استرسلوا في تقرير بواطن المصطلحات الشرعية المتواترة المعنى حسب أهوائهم . يقولون : للشرائع باطن لا يعرف إلا للإمام ، أو من ينوب منابه ، وكذلك كل ما ورد في الحشر والنشر وغيرهما ، فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن . فمعنى الغسل : تجديد العهد عليه — ومعنى الطهور : التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية — ومعنى التيمم : الأخذ للعلم من المأذون . ومعنى الصلاة — الدعاء إلى الامام : ومعنى الزكاة — بث العلم لمن يتزكى — ومعنى الحج — طلب العلم الذي تشد رحائل العقل إليه .

وتقوم الدعوة الباطنية على قاعدتين : القاعدة الأولى : التمييز بين الظاهر والباطن . القاعدة الثانية : تفضيل الباطن .

لقد تدرجوا في الاستخفاف بالظاهر حتى جعلوه موضع سخرية واستهزاء ، فقد كان الأئمة يفهمون تلاميذهم من الطبقة العليا : أن الظاهر متناقض ومعوجّ . وأنه علم كثيف . وأنه تقليد محض لا دليل عليه ، وأنه لا حياة فيه ، وأن أهل الظاهر ، هم أهل الكفر بل أهل الشرك .

وقد تأسست الباطنية على الفلسفة اللاهوتية اليونانية . وعلى الطبيعيات . وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة اليونانية وأفكارها . وعقائدها في أدبهم وشرح عقيدتهم .

وقد أشار الدكتور زاهد علي [1] إلى هذا المعنى حين قال : لقد اعتقدنا أن جميع النظريات التي جاءت في علم الهيئة القديم ، وفي علم الطبيعيات ، وفي علم الإلهيات صحيحة ، لا يتطرق إليها الشك ، فاستعنّا بها في إثبات دعوتنا . وقد حرص دعاة الباطنية على إغراء الناس بما يحبونه ، والتحدث إليهم عن طريق رغباتهم ومطامعهم . وقد أورد المؤرخون خطاب زعيم

---

١ — نقلنا هذا عن أبي الحسن الندوي عن كتاب : (ديانة الاسماعيلية ونظامها) .

القرامطة الذي جاء فيه : « ادع الناس بأن تقرب إليهم بما يميلون إليه وأفهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن أنِست منه رشداً فاكشف له الغطاء . وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا » .

* * *

حاولت الباطنية أن تفسد مفاهيم المصطلحات الإسلامية التي جاء بها القرآن والتي يتفق المسلمون على معانيها : كالنبوة ، والرسالة ، والملائكة ، والميعاد والجنة ، والنار ، والشريعة ، والفرض ، والواجب ، والحلال ، والحرام ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج . فقد ابتدعوا لكل مصطلح منها مفهوماً مخالفاً للحقائق الأساسية التي تعبر عنها هذه الكلمات . وقد وصف الأستاذ الندوي الدعوة الباطنية بأنها ثورة على النبوة المحمدية ، ذلك لإنكارها المفاهيم الدينية التي توارثتها الأمة ، وتفسير الكلمات الشرعية ، والمصطلحات الدينية . حسب الأغراض والأهواء . والفصل بين الظاهر والباطن . حتى إنهم يقولون : التنزيل هو الجسم . والتأويل هو الروح . والهدف كما أورده المؤرخون والباحثون واضح وصريح هو الانتقاض على الشريعة الإسلامية ممثلة في دولتها ، وإنشاء مجتمع آخر أشارت إليه الاشارات والرموز في رسائل إخوان الصفا وغيرها : ذلك قولهم : فإن سلطة تتصل بأهل الزمان جميعاً ، ويصير العالم بأسره له جسماً وآلة وجنوداً وأبداناً ، ويكون هو بمنزلة الرأس : أي العقل .

وقد جمعت هذه الدعوات المنافقين والملحدين . وطلاب المغانم والملذات . ومن هذه الدعوة القديمة انطلقت الدعوات الجديدة :

(البهائية — والثيوصوفية — والدهرية — والروحية الحديثة . والنرفانا — واليوجا .) وكلها تعمل على تأويل الكلمات الشرعية المتواترة تأويلاً لا يقوم على اللغة والقياس والمنطق ، وتتجه إلى انكار الحقائق الغيبية . وغاية الدعوة

الباطنية : الالحاد في العقيدة ، وإلغاء الالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية المؤدية إلى الجزاء في الآخرة .

ولا تزال الدعوة إلى التأويل ، أو علم الباطن من أخطر الدعوات الهدامة . التي تواجه المسلمين في العصر الحديث ، وغايتها رفع التكليف والضوابط ومعارضة حدود الله ، ودفع الناس إلى الشهوات واللذات في صيحة خطيرة على حد تعبير أحد فلاسفة العصر : « بول هازار » الذي يقول : « هل نترك السعادة وديعة بين يدي العالم الآخر ، ان علينا أن نقتنصها على الأرض ، أسرعوا فنحن في عجلة ، لا ضمان للغد . ولا عبرة إلا في الحاضر ، غافل من يقامر على المستقبل ، فلنضمن أولاً رفاهية بشرية صرفة » . وعبارة الباطنية : تعني الثمرة النهائية التي وصلت إليها المحاولات الماكرة في إنشاء صورة خادعة مغرية . ذات بريق زائف . هي القول بأن لكل معنى من معاني الاسلام والقرآن ظاهراً وباطنا . وهم يجعلون لكل تنزيل تأويلا . يقول الدكتور أبو العلا عفيفي :

« أما تأويل إخوان الصفا لآيات القرآن والحديث ، ولا سيما ما يتعلق منها بأمور الآخرة من جنة ونار ، وبعث وحشر . . الخ فقد اتخذوه وسيلة لتحقيق مآربهم . وهو قلب الإسلام ، وهدم عقائده . ومبادئه من أساسها . »

٢

تحريفُ العقيدَة السَّبئيَّة

إن أخطر الدعوات إلى تحريف العقيدة وإخراجها من أصولها القرآنية . بدأت مع صيحة عبد الله بن سبأ . فقد كان يقول لطائفة من الناس : (أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا ؟ بلى : فرسول الله أفضل منه . فلمَ تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى ؟ . وقال : إن لكل نبي وصياً وعلي وصي محمد ومحمد هو خاتم الأنبياء ، وعلي هو خاتم الأوصياء) [١] .

ومعنى هذا أن عبد الله بن سبأ نادى بمبدأين ليسا من دين الله الحق في شيء وهما من تحريف اليهودية . مبدأ الرجعة ، ومبدأ الوصاية . وفي صميم الاسلام وجوهره . لا يعرف المسلمون ذلك ، ولا يقرونه .

وقد أضاف ابن سبأ . قداسة خاصة إلى الإمام علي ، فسماه وصيّاً ووليّاً ، ومهدياً ، وإماماً ، ونبياً ، وإلهياً .

وقد روى الطبري أخبار عبد الله بن سبأ ، وكيف كانت دعوته خطراً من أكبر الأخطار التي واجهت الاسلام في هذه الفترة الدقيقة من خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه . وليس في الاسلام وصية ولا تناسخ . وهي

---

١ – تاريخ الطبري . ج ٣ – ص ٣٧٨ .

كلها من الأفكار المجوسية القديمة ، وقد كانت هذه الدعوة — دعوة تحريف العقيدة — من أول الصدع الذي واجه الاسلام .

وان الباحث المتعمق لأثر عبد الله بن سبأ وحركته في مصر والكوفة ، والشام والحجاز ، ليعرف بوضوح أن هذه الآراء ، وما وراءها من دعوة إلى الانتقاض على الدولة في عهد سيدنا عثمان، ومن ظلم لسيدنا علي، هي مصدر تلك الفتنة التي أصابت الإسلام في تلك المرحلة من حياته ، والتي اتصلت بعد ذلك بأمور كثيرة .

يقول الأستاذ محمد سعيد الأفغاني : إن ما يذكره المؤرخون من التبعات على بعض الصحابة : كعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعائشة هو بعد التمحيص من التبعات الثانوية . أما أقوى الأسباب التي أرّثت الشغب وهاجت الاضطراب فهي مؤامرة واسعة محكمة . سهر عليها أبالسة خبيرون وتعهدوها في جميع الأقطار حتى آتت ثمرها ، ولم تلق هذه المؤامرة من عامة المؤرخين ما تستحقه من التوضيح والاهتمام . ورأس هذه المؤامرة . « عبد الله بن سبأ » المعروف بابن السوداء . إني أؤمن أشد الإيمان بأنه لو لم يكن شيء قط من هذه المساعي التي يذكرونها لكان عمل ابن السوداء وحده كافياً في بلوغ الغاية المشؤومة (١) ويجمع الباحثون على أن عبد الله بن سبأ . كان على رأس جمعية سرية مختصة غايتها تقويض الدولة الإسلامية ، والقضاء على الاسلام . وان هذه الجمعية كانت تعمل لحساب دولة أجنبية . هي الدولة الرومانية التي انتزع منها المسلمون لسنوات قليلة قطرين كبيرين هما مصر ، والشام .

وان ابن سبأ كان مؤسساً لعمل خطير . امتد من بعد في الحركة الباطنية . وفي دعوات التغريب والغزو الثقافي في العصر الحديث .

---

١ — من بحث عن الصهيوني الأول : عبد الله بن سبأ .

ذلك هو العمل الذي حاول نسف العقيدة الإسلامية من أساسها . بإدخال ما ليس منها . فهو الذي اختلق للمسلمين ما يسمى : بالرجعة والوصاية . ويؤكد الباحثون على أن ابن السوداء ضرب المسلمين بعضهم ببعض وكان عاملاً من عوامل التفرقة . والتمزق بين أتباع الدين الواحد . وكانت دعوته لأصحابه : انهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن في أمرائكم . وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر . (١)

ولا ريب كانت دعوة عبد الله بن سبأ في تحريف العقيدة دسّاً في الدين ، وتفرقة في الكلمة ، واستهانة بالتاريخ ، واستخفافاً بالمقومات ، ووضعاً من شأن الله ، وإفساداً للأخلاق . والإشادة بكل مذهب أجنبي (٢) ومن هذه النقطة بدأت حركات الهدم في الاسلام ، وبدأت مؤامرات القرامطة والزنج والراوندية والمقنع الخراساني . وبابك الخرّمي . والمازيار والإفشين . ويضيف بعض المؤرخين إلى عبد الله بن سبأ كعب الأحبار ، ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام . أما كعب الأحبار ؛ فهو ذلك الكاهن الذي أسلم في عهد عمر نفاقاً . وبلغ من دهائه أن جعل بعض الصحابة يروون عنه أحاديث معزوّة إلى رسول الله . ومما رواه كعب : الارضون السبع على صخرة . والصّخرة في كف ملك ، والملك على جناح الحوت ، والحوت في الماء ، والماء على الريح . والريح على الهواء !

* * *

وفي مرحلة تالية : جاء عبد الله بن المقفع . الفارسي المجوسي . الذي ادعى الاسلام وكان اسمه « روزبة » وكان من أكبر أعداء الإسلام ومن أشدهم مكراً . فهو الذي نقل إلى اللغة العربية الفكر المجوسي ، ريونظات

---

١ – راجع الطبري ج ٣ .ص ٥٠٧ – ٥٠٨ عن حديث هذه المؤامرة .
٢ – م – ١٩٤٦ – الرسالة .

مزدك وماني وغيرهما ، وكان مقدمة لترجمة تراث الإلهيات الوثنية والإغريقية ، والفارسية .

ومن أبرز كتبه التي ترجمها كتاب « ديستاو » وهو كتاب مزدك الذي يضم عقائده ، كما أنه ترجم كتاب « الدرة اليتيمة » في معارضة القرآن ، ومن أهم الكتب التي ترجمها كتاب « كليلة ودمنة » وقد ضمن هذا الكتاب باباً أسماه « برزويه » (١) وهذا الباب من أخطر الأبواب في نقد الدين عامة يتكلم عن تعارض الأديان ، وعن عدم التوصل إلى اليقين فيها مما يعتبر العقل وحده أعظم وسيلة وأفضلها للمعرفة .

وليس ما يقوله خصوم الأديان اليوم ، وأعداء الاسلام إلا هذا الكلام نفسه مكرراً ومعاداً بعد أكثر من ألف ومائتي سنة .

وكان ابن المقفع يرمي إلى نشر الإلحاد . والتحالل من الاسلام بالذات (٢) وقد تبين للبيروني هذا ، فقال في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » : وهو مصدر الكلام عن كتاب كليلة ودمنة .

وبودي لو كنت أتمكن من ترجمة كتاب (سنج سنتر) وهو المعروف بكتاب « كليلة ودمنة » فإنه تردد بين الفارسية والهندية ، ثم بين الفارسية والعربية على ألسنة قوم لا يؤمن تعبيرهم إياه كعبدالله بن المقفع في زيادته باب « برزويه » فيه قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدين ، وكسرهم للدعوة إلى مذهب المانية (أي المانوية) وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عنه فيما نقل) وهكذا تنبه العالم الكبير : البيروني إلى مانوية ابن المقفع . وقد تبين الخليفة المهدي من قبل هذا فقال :

(ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع (٣) كما قـام

---

١ – ٢ دكتور علي سامي النشار في كتابه (مناهج البحث عند مفكري الإسلام) .
٣ – ابن خلكان – وفيات الأعيان – ج ١ – ص ١٨٧ .

القاسم بن ابراهيم الزيدي . المتوفى عام ٢٤٦ بوضع كتاب « الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع » .

ومع هذا كله فما زالت آثار ابن المقفع تدرس في معاهد العالم الاسلامي كنصوص ونماذج للأدب العربي دون أن تبين للشباب هذه الجوانب الخطيرة حتى يضعوها في ميزان الحكم على هذا الرجل .

* * *

جاءت ترجمة الفلسفة اليونانية ، وكان المسلمون قد رغبوا إلى ترجمة العلوم الطبيعية والرياضية ، ثم انحرف الاتجاه إلى ترجمة الفلسفة الإلهية . تحت تأثير عوامل ضاغطة (١) .

وكان ابن المقفع وحنين بن اسحق وأضرابهما . من الذين حملوا لواء هذا العمل ، قد استهدفوا غاية خطيرة : هي نقل مذاهبهم وأديانهم إلى الفكر الإسلامي ، وقصة فساد عملية النقل والترجمة هذه ما تزال من القضايا الكبرى التي تناولها الباحثون . وانتهوا فيها إلى رأي واضح صريح ، والمعروف أنه قد حدث خلط كثير بين المؤلفين . ونقلت كتب إلى العربية باسم افلاطون ، وهي لأرسطو أو لغيره مما أحدث خلطاً كبيراً ، واضطراباً شديداً .

أما الأمر الأشد خطورة . فهو أن القسم الأكبر من النقلة كانوا من السريان والأقل القليل من اليهود . وقد نقلوا ما نقلوه وفق أهواء خاصة . وأكثر النقلة لم تكن غايتهم البحث عن الحقيقة ، فهم إذ كان جلهم من النصارى النساطرة واليعاقبة ، فقد كان أكبر همهم الدعوة إلى شيعتهم وتزيين أهوائهم الدينية . لذلك كانوا يغيّرون ويبدلون في النصوص التي بين أيديهم . خدمة لأغراضهم الدينية وعقائدهم بالزيادة والحذف تبعاً لأهوائهم (٢) .

---

١ – راجع كتابنا – التفسير الاسلامي للفكر البشري .

٢ – راجع عبد الرحمن مرحبا في كتابه عن الفلسفة الاسلامية .

ولقد كان للترجمة آثارها الخطيرة ، وكانت تبعة « المأمون » في ذلك كبيرة وبعيدة المدى فقد كان هدف المسلمين الأول هو الانتفاع بعلوم الفلك — والطب — والرياضيات — من حساب وجبر وهندسة وكيمياء . وهم في طريقهم إلى وضع منهجهم الذي دعاهم إليه القرآن حين قال : « قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ » فكان عليهم أن يراجعوا ما سبقهم من فكر في هذا المجال ، وان يحرروه حتى ينطلقوا على ضوء صحيح من مفاهيمهم الأصيلة . وقد جروا في ذلك شوطاً . غير أن عصر المأمون لم يلبث أن فتح الباب واسعاً لترجمة الفلسفة الإلهية : التي هي علم الأصنام عند اليونان .

ومن هنا فقد جاء شر كثير . وهبت رياح سود . وكان ذلك نذير سوء ومقدمة للأخطار الكبيرة التي ألمت بالمسلمين من بعد .

ولندع الأستاذ خليل هنداوي يحدثنا في إجابته عن سؤال : أكان خيراً للعرب تناولهم الفلسفة اليونانية ؟ وما هي الفوائد التي اجتنوها ؟ يقول : لم يكن من خير في تناول العرب للفلسفة اليونانية وغير اليونانية . بل كان تناولهم الفلسفة طالع شؤم ، وإيذاناً لهم بزوال سلطانهم .

لم يأخذ العرب الفلسفة جدياً إلا حين انتهى إلى المأمون زمام الخلافة العباسية . فشجع الفلسفة ، وعمل على ترويجها .

وقد عمل المأمون على ترجمة مختلف المذاهب والنحل الدخيلة ، وإباحة الجهر بمختلف الآراء . فشاع في زمنه الشك ، وراج الباطل ، وهبت الرياح الصفراء من وراء هذه الإباحة . تحمل في طياتها جراثيم المذاهب المختلفة ، والنحل المتعارضة ، وظهرت الفرق التي كادت تؤلف بإرادتها وعقائدها أدياناً جديدة ، فكانت كل واحدة تزاحم الأخرى . فلم تلبث الدولة إلا قليلا ، حتى انحطت عليها جحافل المغيرين من التتر والمغول ، فقوضت دعائمها . وكان الكثير من اتباع هذه الفرق أعواناً للمغير على تحقيق تلك الغاية التي

اندك بها بناء العروبة ، وسقط صرح الحضارة الإسلامية . ماذا استفاد العرب من هذه الفلسفة ؟

استفادوا الخبرة لفن قتل الوقت وقتل العقل ، واستطابوا الإدمان على تعاطي هذه الكأس التي يقدمها السفسطائيون للإجهاز على الأمم القوية عندما تبلغ القوة مداها ، مقابل ما خسره العرب من الإيمان الفطري ، والاعتقاد النقي . فأهملوا واجبهم ، وتهاونوا في دينهم ، وفرطوا في لغتهم ، والذي أفادوه من تلك الدروب التي هلك فيها اليونانيون ، ومن جرى مجراهم من الأمم القديمة والحديثة .

* * *

كان اخوان الصفا : ثمرة الفلسفة الالهية اليونانية ، والهندية ، والفارسية القديمة . فقد خلطوا عناصرها ، وأضافوا إليها شيئاً من مفاهيم الإسلام ، وأقاموا منهجاً مختلفاً حاولوا به أن يهدموا الإسلام بإخراجه من مفاهيمه وإدخال مفاهيم غريبة عليه ، وجماع الرأي في رسائل اخوان الصفا :

أولا : آراء مفككة ، فيها عَوْد وتكرار غريب اختلطت فيه الفلسفة التقليدية ، والعلوم الرياضية والطبيعية . بخرافات السحر والتنجيم ، وأسمار ألف ليلة وليلة ، وحكايات كليلة ودمنة . وصفها أبو حيان التوحيدي بأنها خرافات ، وتلفيقات وتلزيقات . . وقد ردّ الباحثون آراءهم إلى تراث الكهان كأسرار النجوم والأعداد والفأل والزجر والسحر والعزائم والإيمان بطوالع النجوم وتأثيرها وموسيقى الأفلاك ونغماتها .

ثانياً : مزجوا الاسلام بمختلف الأديان والآراء والعقائد زاعمين أن مذهبهم يستغرق المذاهب كلها ، فكأنهم أرادوا أن يضعوا ديناً عقلياً يعلو

الأديان جميعاً .مغايرة لأصول الاسلام . وقد تبين أن مفهومهم لله سبحانه وتعالى مفهوم فاسد ، وخاصة في رحمة الله . وهم ينكرون البعث بالأجساد ويفسرون الجنة والنار ، والآخرة خلافاً لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص القاطعة ، وينكرون الشياطين على الصورة التي يفهمها معظم المسلمين ، ويفسرون الكفر والعذاب تفسيراً باطنياً فلسفياً .

ثالثاً : أكبر مقاتلهم التي تدل على سوء قصدهم أنهم طمسوا أسماءهم ، وجبنوا عن إعلانها . ولو كانوا صادقين مخلصين لواجهوا الرأي العام في جرأة .

رابعاً : استهدفت هذه الرسائل إقامة نظام جديد ، يحل محل الشريعة الإسلامية . وهي تشتمل على عقائد الباطنية ، وإعداد النفوس والعقول لدولة جديدة .

خامساً : الدعوة إلى التأويل. ومحاولة تفسير القرآن والكتب المنزلة تفسيراً باطنياً يخالف ظاهر اللفظ ، والقول بأن للآيات تأويلات خفية باطنة .

* * *

هذه الدعوة إلى تحريف العقيدة أثمرت تلك الحركات الهدامة ، وفي مقدماتها القرامطة ، وحركة الزنج التي حاولت إسقاط الدولة الاسلامية وإقامة نظم أخرى تحت اسم « العدل الاجتماعي » .

أما محاولة إقامة نظام على النحو الذي دعت إليه رسائل اخوان الصفا فقد فشل فشلا ذريعاً . وقد تبيّن أن عمل هذه الفتنة كان لحساب دعاة الحركة الباطنية الذين حاولوا قلب النظام السياسي بتغيير التفكير العقلي وإيجاد ثقافة

جديدة يعتنقها شباب عصرهم[١] . وقد سقطت هذه الحركة ، وما يماثلها ، مما قام ويقوم في تاريخ الإسلام كله لمعارضته لروح الاسلام وطابعه وذاتيته الخاصة . وقد اعترف جولد زيهر وكازونوفا من المستشرقين بأن آراء إخوان الصفا هي آراء الباطنية ومعتقداتهم . وقد قامت هذه الحركات على أساس التأويل ، ومبادىء الحلول . وتبنت آراء مزدك في شيوعية الأموال وإباحة النساء . وحاولت أن تجعل من الأديان والفلسفات كلها عقيدة واحدة ، وكان ذلك كله من عوامل فشلها وتأكيد فسادها .

وكانت حركة القرامطة خليطاً من المجوسية واليهودية . وقد أباحت زواج البنات والأخوات ، وشرب الخمر ، وجميع الملذات . ورفعت قيود الأخلاق والشرع . واعتبرت ان جميع القوانين والحدود والآداب التي

---

١ – أكدت الوثائق ، والأبحاث العلمية الدقيقة أن من وراء هذه المذاهب (المانوية – والمزدكية والخرمية ، والقرامطة ، واخوان الصفا ، ودعاة الالحاد والحلول ووحدة الوجود) غاية سياسية ، هي محاولة تغيير النظام السياسي الاسلامي للدولة الإسلامية ، والسعي إلى إقامة نظام آخر تصوره مجموعة من المستضعفين على الإسلام ، وجماعة من المجوسية ، وقدامى الحكام المعزولين والشعوبيين ، والطامعين ، ولذلك فقد صيغت مفاهيم هذه المذاهب من أمشاج متفرقة ، وشظايا متعددة من المجوسية ، والأفلاطونية ، وأفكار دعاة تناسخ الأرواح ، وعبدة النيران . والأثينية والوثنيين اليونان ، وأصحاب الفكر التلمودي . مع إبراز طابع خادع من الولاء لآل البيت ، وأسلوب من الرمزية ، وأنظمة سرية يجمعون فيها الناس بخداع الدعوة البراقة ثم ينشئونهم على الحقد والخصومة والانتقام .

وقد اعتمدت « رسائل اخوان الصفا » منهجاً لدعوتهم . وهي تضم فقرات مموهة تشير إلى الوثنية . وتجمع فيها بين مصطلحات متعددة من اغريقية ، وبابلية ، وأشورية وغيرها فهم يضعون آلهتهم الوثنية . كالزدان . واهرمن وغازيمون إلى جانب إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (١) وفي الرسائل فقرات تشير إلى عبادة الكوكب وآلهة المجوس ، وإباحية مزدك في الأموال والنساء . والانهماك في تناول الملذات . وإلحاد ماني . وقوله بالتناسخ . وزيف زرادشت في القول بالنور والظلمة . وتبدو من خلال هذه الملامح الفلسفية تلك الغاية السياسية التي تخفيها اليهودية التلمودية . ومطامعها ، وأهواؤها .

---

١ – عمر الدسوقي : رسالة عن إخوان الصفا .

وضعت للناس قاضية بالجور . مقررة للظلم . وادعت القرامطة أن الجنة هي الدنيا ونعيمها ، واتخذت في نظامها أساليب غاية في العنف . وقام الدعاة لها بما قام به أصحاب حركة الزنج من فظائع لا حد لها .

وقد قاومت السنة هذه الحركة مقاومة حاسمة ، وواجهت مفاهيمها وردت عليها ، ونقضت شبهاتها ، وتأكد للباحثين والمؤرخين أنها حركة معادية للإسلام ، ناشئة من دين أجنبي ، وأنها وثيقة الصلة بالحركات الفارسية كالراوندية والخرمية والبابكية وانها امتداد لها .

٣

المذاهب الهدّامة والإلحاد

ان المصدر الأم للإلحاد هو المذهب المادي ، والنزعة المادية التي تقوم على تصور خاطىء للإنسان وهو أنه خالق من العدم ، وصائر إلى العدم . وأن للإنسان حياته المحدودة ولا سلطان عليه إلا نفسه وأهواؤه . فعليه أن يسارع قبل انتهاء الأجل إلى الانغماس في الشهوات . فإذا وجد من الفلسفات ما يرضي هذه النزعات في نفسه ويبررها فهو يعتنقها ، وتلك طبيعة الانسان منذ قديم ، وما تزال .

والناظر إلى الدهرية ، والمذاهب الهدامة جميعاً يجدها لا تفصل بين الالحاد والإباحية : أي بين الفكر والمجتمع . وقد نشأ الإلحاد في بيئات غير إسلامية ، نتيجة تزمت الديانات والمذاهب التي انحرفت عن أصولها الأصيلة ، فضيقت واسعاً ، وحرمت الانسان من تطلعاته ، وإجابة نداء غرائزه الطبيعية . ودعته إلى قمع هذه الرغبات ، أو فرضت عليه معتقداً يحار العقل في قبوله ، ويتعارض مع الفطرة ، ولا ريب في أن العقل البشري في العصر الحديث بعد أن حررته الطاقة الضخمة التي ألقاها القرآن إلى البشرية ، وأثرت في كل الأديان والعقائد ، وأفكار الأمم ، وحررتها من عبودية الجسم والعقل جميعاً ، هذا العقل ما زال يقف موقف الريبة إزاء كل ما يتنافى مع الفطرة. من حيث أن الدين المنزل من عند الله لا ينافي الفطرة . ولا يعارض العقل . ومن هنا كان ذلك التشابه بين موقف الغرب في هذا العصر وموقف البشرية قبل نزول الاسلام .

وهنا نرى الاسلام في بساطته ويسره ، وسلامة مقاصده . فقد أطلق الدين من كل ما ألصقه به المجسمة والمشبهة ، وحرر محيط العبادة من التماثيل والصور والرموز والطقوس والشارات ، وجعل الأرض كلها مكاناً للعبادة ، وأعاد إلى الطبيعة قيمتها كمحراب للصلاة ، وجعل روح الدين في الشارع والسوق كالمسجد ، ولم يجعل طبقة معينة تحتكر شؤون الدين ، وحتم على جميع معتنقيه ان يكونوا علماء به . ولم يجعل بين العبد وربه وساطة ما (١) .

ولا ريب أن نزعة الإلحاد قديمة . وقد ظهرت في القرن السابع للميلاد في بلاد اليونان ، ثم ما زال ظهورها يتجدد على العصور ، ويدخل في معارك مع رسالة السماء ، ومع الفكر الرباني المصدر ، ويجد من أصحاب الأهواء والمطامع أولياء له وتابعين .

ولما كشف العلم الطبيعي عن أسراره نزع العقل البشري نزعة الاستعلاء . واتخذ من مهاجمة العقيدة التي عارضت طريقه إلى البحث سبيلا إلى معارضة الأديان بعامة دون أن يقدر مدى الفوارق البعيدة الواسعة بين العقائد . وبين التفسيرات المنحرفة لبعض الأديان وبين الأديان التي حفظت مصادرها من كل زيف .

ولو قد خلصت النيات . ولم يجد التعصب سبيلا إلى النفوس ، ولم تكن وراء الدعوات أهواء أصحاب المطامع من دعاة الأيديولوجية التلمودية . لاستطاعت البشرية أن تعرف أن في الاسلام غاية ما ترجوه النفس البشرية وتتطلع إليه : سعة ورحمة وإيماناً بالعلم والتقدم ، ودفعا للانسان الى تحقيق ذاته ، وممارسة رغباته. فقد اعترف بها الاسلام، وأجاز تحقيقها في اطار من الضوابط الكريمة. ولكن البشرية ما زالت منذ خمسة قرون (٢) تبحث وتتخذ من العقل — وهو اداة لها — عن وجهتها الخاصة . وهي في حاجة الى نور الايمان ، أو على حد

---

١ — محمد فريد وجدي

٢ — اي منذ ظهور بوادر الحضارة الحديثة .

تعبير علماء المسلمين عنه: إن العقل « جوهر مضيء خلقه الله في الدماغ ، وجعل نوره في القلب » .

ما زالت البشرية تبحث دون أن تهتدي إلى الحق . وهو قائم أمامها وهي مشرقة نحو الفلسفة الغنوصية ، أو مغربة نحو الفلسفة اليونانية .

ومصطلح الالحاد (Atheisme) يعني نفي وجود المبدع الأول لهذه الكائنات . والإلحاد ككل النظريات يتغير ويتطور ويتحرك في كل بيئة وفق أسلوب جديد. ومن هنا فقد عرف العصر الجديد إلحاداً مرتبطاً بعدد من الدعوات . كالوجودية والماركسية والفرويدية . بل يمكن القول بأن الإلحاد وإنكار ذات الإله هما قاعدة كل هذه المذاهب والدعوات مهما اختلفت حول قضايا العصر . وهذه الدعوات جميعاً تعارض الأديان ، وتعارض النبوة ، والكتب المنزلة . وهي تقف موقف الانكار الشديد للبعث والجزاء .

وقد أخذ الإلحاد يلبس في العصر الحديث طابعاً فلسفياً . ويستمد من بعض نتائج النظريات العلمية أسلحة له . ومن العجب أن معظم أسلحة الإلحاد عن طريق العلم التجريبي قد سقطت ، وكان أخطرها انكار الغيب ، وما وراء المادة ، إذ عاد العلم التجريبي أخيراً فاعترف بما وراء المادة نتيجة ظهور قوانين الذرة وانشطارها . ولكن الفلسفة ما تزال تبحث عن أسلحة جديدة تدعم بها موقفها إزاء هذه المعارضة الباطلة .

والالحاد الحديث هو بمثابة رفض للقوة الأساسية الواضحة القائمة والصانعة والمدبرة في هذا الكون ، وقد طرح هذا الشعار بعد أن كذبت العلوم التجريبية نظرة دعاة الإلحاد القديمة . ان الظاهرة الجديدة هي التمرد على وجود الله في محاولة لتأليه الإنسان ، أو هي محاولة لانتزاع الألوهية من الله (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) لوضعها في الانسان .

ومن يقرأ ما كتبه فورباخ وماركس وسارتر وفرويد ، يجد هذا المعنى واضحاً جلياً . قال ماركس : إن الإلحاد هو إنكار الله، وبهذا الإنكار نؤكد

وجود الإنسان . ويربط فرويد بين التمرد على الله والتمرد على سلطة الأب[١] . ولا ريب أن هذا الخلط بين الله والإنسان من جهة ، وإضفاء الألوهية على الإنسان من جهة ثانية لهما مصدرهما في الفكر الغربي المسيحي .

ومن خلال هذا المفهوم تقوم الحملة على (الاله) . فالإله محدد بالصورة التي عرفها الفكر الغربي . وليس بالصورة الحقيقية لله سبحانه وتعالى . وهي صورة حدث فيها خلط كثير بين الله والطبيعة ، وبين الله والإنسان ، ومن هنا جرت عبارات نيتشه المعروفة عن موت الإله ، وعبارات ماركس عن أفيون الشعوب ، ذلك لأن الفروض التي قدمت كانت فروضاً بعيدة عن العقل ، ولا تقبلها الفطرة ، ولا تطمئن إليها النفس المتطلعة إلى تقبل كل ما هو منطقي ومعقول .

١ – كوستي بندلي في كتابه : إله الالحاد المعاصر .

٤

الله في مَفْهُوم الإسْلام

إن نظرة واحدة إلى مفهوم (الله) سبحانه وتعالى في الإسلام تستطيع أن تزيح من النفس الإنسانية ذات الفطرة الصافية كل ريب ، وكل شك ، وكل شبهة من تلك الشبهات التي جاء أكثرها من قبيل التحدي .

فالله هو الخالق . البارىء . المصور . القهار . الذي ليس كمثله شيء ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . وهو الصانع المدبر ، التي تتمثل صفاته في أسمائه الحسنى . فلا يتعداها المسلم . ولا يصف الله ، أو يسميه إلا بما سمى به نفسه .

والاعتقاد في وحدانية الله هو الركن الأول من أركان الاسلام ، وهو مرجع كل قول ومنتهى كل قصد . وذات الله لا يدركها العقل ، ولا ينالها الحس ، وكل ما يدركه العقل الانساني هو آثارها التي ترشد إلى وجودها .

والعقيدة بوجوده تعالى لازمة من لوازم المعنى الإنساني ، فإن الانسان ما دام صاحب نظر وفكر واستدلال . فلا يستطيع أن ينفك عن تلك العقيدة مطلقاً . ولما كان أول أصل من أصول المحسوسات ، هو علمه بأنه (لا مصنوع إلا وله صانع) فتراه لا يتمالك نفسه من الحكم بأن هذا الكون لا بد له من صانع . وقد ظل الإنسان على هذه العقيدة أنوفاً من السنين لا يعتريه منها

شك ، حتى جاءت الفلسفة قبل المسيح بنحو ستة قرون . فجاءت معها الشكوك والشبه والسفسطة (١) .

وقد أشار القرآن إلى هذه الشكوك في أكثر من موضع « أفي الله شك فاطر السموات والأرض » . وكشف عن عجز المادية في تعليل وجود الكون بدون خالق . حكيم . مدبر .

ومفهوم الله في الاسلام يتميز بمعالم واضحة : فهو المبدع بالمعنى الحقيقي . وهو الصانع والمدبر المتميز عن الأشياء الحادثة المتغيرة التي نراها وسبحانه وتعالى علواً كبيراً عن تشبيهات المشبهين . وتجسيد المجسدين .

ويرفض مفهوم الإسلام في الله سبحانه كل ما قالته الفلسفة ويعتبر مفهومها عن الله قاصراً . فالله سبحانه وتعالى : هو غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال والتنزيه . فهو سبحانه لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد . وهو الأول والآخر . فلا أول قبله . ولا آخر بعده وهو الظاهر والباطن . وهو الذي وسع كل شيء علماً . فهو يعلم الجزئيات والكليات . وهو رب المشرقين ورب المغربين . وهو الذي خلق العوالم كلها . الانس والجن . والملائكة والسموات والأرض خلقها من غير شيء . وهو الذي خلق الإنسان علمه البيان . وهو الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . وصورة الله في القرآن تختلف اختلافاً واضحاً عما جاء في الفلسفات وفي بعض العقائد . فهو ليس إله الحرب والجنود . وليس هو إله أمة دون أخرى. بل هو إله العالمين ، الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء .

* * *

---

١ — محمد فريد وجدي . دائرة المعارف .

ونحن نؤمن بأن الله خالق (١) . وأن هذا الوجود مخلوق له . ولكن لا فراغ بين الله الخالق وبين هذا الوجود المخلوق له .

إن في الوجود ثنائية . ولكن ليس بين طرفي الثنائية انفصالية.ان الإنسان جسم وروح ولكن الانفصال بينهما في حياة الانسان نفسه— وقد اضطرب الانسان في سلوكه عندما اعتقد بوجود فراغ بين الله والإنسان . أو اعتقد أن الإنسان جسم وبدن فقط — الايمان بالله أساس المعرفة — ووحدة الله هي الأساس — والانسجام بين طرفي الثنائية في هذا الوجود قائم وبالأخص في طبيعة الانسان بين روحه وجسمه . وبين الفرد والفرد — فالروح ضرورة — والدين ضرورة — والإنسان بلا روحه هيكل أجوف — ومعرفة بدون دين قلما يصاحبها يقين ، والوجود كله يقوم على مبدأ الثنائية . أو مبدأ التقابل. الله سبحانه وتعالى مجرد عن الحسية والمادية — وطبائع الكائنات خليط بين الروحية والمادية — الله روح خالصة تقابله هذه الطبيعة المادية التي تجلت عنه . والتي شاءها سبحانه وتعالى لمخلوقاته وكائناته .

هذه الكائنات بدورها فيها المادة وفيها الروح ، مزيج مما يرى ويدرك بالبصر ، ومن شيء آخر لا يرى ولا يدرك ، إلا بالعقل والتصور — الثنائية في الذكر والأنثى . في الحياة والموت ، في القوة والضعف — هذا التقابل : أو الثنائية سنة الوجود كله ، فهو مخلوق. وله خالق — ورسالة الله للإنسان في هذا الوجود هي إيجاد الانسجام بين طرفي هذه الثنائية في حياة الانسان. الملاءمة في طبيعة الإنسان بين جسمه وروحه . وغايتها في الوجود كله أن تلائم بين الخالق والمخلوق ، ليس من الطبيعي أن يكون هناك كفر بالله الخالق وايمان بالانسان المخلوق . إن الإيمان بالله نتيجة لازمة لقانون طبيعة الوجود . ولقد كانت دعوة الإسلام إلى الانسجام بين الروح والجسم ، بحيث لا يتخلف أحدهما ، أو يجمد في نفس الوقت الذي يسير فيه الآخر في طريق النمو . كما كشف الاسلام

---

١ — بتصرف عن نص — للدكتور محمد البهي

عن خطأ إعلاء الروح على حساب الجسم – وخطأ إعلاء الجسم على حساب الروح . ذلك أن الإيمان بمادية الانسان وحدها ، كالايمان بروحانيته وحدها . أمر يتنافى مع هذا القانون . ويصطدم مع نتائجه . إن الوجود كله له خالق وما عداه مخلوق له . وليس الإيمان بالله الخالق فقط « بل الايمان بوحدانيته . »

* * *

وفكرة التوحيد هي أبرز أفكار الاسلام عن الله سبحانه وتعالى .

فالإسلام يدعو إلى التوحيد الخالص من كل شائبة ، وهو ما يختلف مع الوثنية والتعدد والشرك والإلحاد .

فالوثني يعبد الأصنام ، والملحد لا يؤمن بالله ، والمشرك يؤمن بالله ، ولكنه يشرك معه غيره ، ويتخذ آلهة أخرى شفعاء له ووسطاء .

ولقد كان العرب (١) في جاهليتهم يؤمنون بوجود الله تعالى ، وكانوا موحدين له في أفعاله من خلق ورزق . وإحياء وإماتة . وهذا ما يسمى (توحيد الربوبية) وإنما كان شركهم ناتجاً عن عجزهم عن الايمان بـ(توحيد الألوهية) أي توحيد العبادة ، وهو أنهم لم يقصروا عبادتهم بأنواعها على مستحقها . وهو الله وحده . كالدعاء . والخوف . والرجاء . والاستعانة والاستغاثة . قال تعالى فيهم (ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى) (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) ، وقد رد عليهم الزعم الباطل بهذه الآيات في توحيد الربوبية (قل من يرزقكم) ، وأقام عليهم الحجة بما أقروه من انفراده تعالى بأفعال الربوبية على ما أنكروه من وجوب إفراده تعالى بالعبادة .

---

١ – من كتاب التصور الإسلامي

لقد كانت (١) فكرة التوحيد الخالص هي أشد الأفكار غرابة عندهم ، هي والبعث سواء ، وذلك مع اعترافهم بوجود الله سبحانه ، وأنه الخالق للسموات والأرض وما بينهما . ولكنهم ما كانوا يريدون أن يعترفوا بمقتضى الوحدانية هذه . وهو أن يكون الحكم لله وحده في حياتهم وشؤونهم ، وان يتلقوا عنه وحده الحلال والحرام ، وأن يكون إليه وحده مردّ أمرهم كله في الدنيا والآخرة .

ولقد كان التوحيد في مفهوم الإسلام متميزاً بالوضوح والشمول . وهو يختلف كثيراً عما قيل من توحيد عند الفراعنة أو اليهود أو غيرهم . فقد جاء الإسلام بالتوحيد الخالص . فانطفأت بيوت النار ومعابد المجوسية ، وبطلت عبادة الشمس .

* * *

ومن الحقائق الواضحة في هذا المجال أن الإنسان بدأ موحداً . ثم أصابته لوثة الشرك . وأن النظرية التي طرحها (علم مقارنة الأديان) والتي تقول بأن البشرية بدأت طفولتها بالوثنيات . ثم ارتفعت إلى التوحيد نظرية باطلة بحكم التاريخ وبحكم المنطق الواعي .

فإن آدم أبا البشر وأول إنسان كان على علم ، وكان يعرف التوحيد ، ويؤمن بالإله الواحد . ومعنى هذا أن البشرية بدأت موحدة ثم انحرفت . وكلما انحرفت جاءت الأديان ترد البشرية إلى التوحيد ، إلى أن جاء الاسلام دعوة عالمية ، وخاتماً للأديان . ولقد واجه الاسلام قضية التوحيد والوثنية على نحو مستفيض . وعالجها بمنهج جامع بين القلب والعقل وعبرة التاريخ . ومن هنا فقد أصبح القرآن هو حافظ البشرية عن الارتداد إلى الوثنية وعصور الأساطير .

---

١ - العلامة محمد بهجت البيطار في دراسته عن التوحيد .

ومن أهم ما دعا إليه التوحيد الخالص في مفهوم الاسلام إنكارُ نظرية اندماج الله والعالم (١) .

* * *

وقد أفاض علماء المسلمين في تصوير عقيدة التوحيد الإسلامية . ورسموا لها صورة كاملة واضحة المعالم . فالله سبحانه وتعالى هو صانع العالم . وله صفات ثابتة . استخصها لذاته ، وان الحوادث كلها لا بد لها من محدث صانع . وهو سبحانه قديم لم يزل وليس له صورة ، ولا أعضاء ، ولا يحويه مكان ، ولا يجري عليه زمان ، ولا تلحقه الآلام واللذات . وهو غني عن خلقه ، وانه واحد . والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء بالاختراع من العدم ، وعلمه واحد ، يعلم الموجودات بتفاصيلها من غير حس ، ولا بديهة ، ولا استدلال ، وسمعه وبصره محيطان بجميع المسموعات والمرئيات ،وهو لم يزل رائياً لنفسه . سامعاً لكلام نفسه .

وأسماء الله وصفاته معروفة من القرآن ، والحديث الصحيح ، وإجماع الأمة . ولا يجوز إطلاق اسم عليه من طريق القياس . وأسماء الله تسعة وتسعون . وهي ثلاثة أقسام : صفات أزلية (نحو : واحد وأول) وصفات أزلية قائمة بذاته نحو (حيّ . قادر . عالم) وصفات مشتقة من أفعاله نحو (خالق . رازق . عادل) والعبد مكتسب لعمله . والله خالق لكسبه والله يراه المؤمنون في الآخرة . ولا يحدث شيء في العالم إلا بإرادته . ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . والله حي بلا روح ، ولا اغتذاء ، وكلام الله صفة أزلية وهو : (أي كلام الله) غير مخلوق ولا محدث . ولا حادث (٢) .

---

١ – انظر فصل وحدة الوجود .

٢ – عبد القادر البغدادي : الفرق بين الفرق .

٥

عَقِيدَةُ البَعْث

ومن قواعد الإسلام الأساسية : عقيدة البعث والايمان بالجزاء الأخروي . وقد اتفقت الأديان السماوية على وجود حياة بعد الموت يحاسب فيها الإنسان عن عمله في الحياة الدنيا . وهي حقيقة جوهرية . لا يسقطها الاسلام أبداً ، ويضعها دوماً نصب الأعين ، والعقول والأفهام ، وتجري من خلالها كل أعمال الدنيا . ولا ريب أن الإيمان بالجزاء والبعث عامل قوة وإيجابية ، ودافع بناء وحركة ، وليس عامل جمود وتخلف ، وإذا لم يكن للأعمال الكبرى في الحياة الإنسانية وجهة ربانية تعطي ثمرتها في الدنيا ، وتعطي جزاءها في الآخرة . فإن رسالة الانسان في الحياة تكون عبثاً ، ولا يمكن أن تكون الحياة بغير غاية ، أو أن يكون وجود الإنسان في هذه الأرض بغير رسالة . وتلك الحقيقة هي أعظم معطيات رسالات السماء ، فليس من المعقول أن يخلق الله هذا الكون كله عبثاً . (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) .

إن الحياة مسؤولية ورسالة ، وهي حقيقة وتبعة ، ثم هي بعد ذلك بعث وجزاء ، وحين يتأكد للنفس الإنسانية هذا الملحظ تنزاح تلك الأزمة التي تحاول أن تغرقها في تيه مضلل . ومن حسن الحظ أن هذه الأرض قد عرفت أصالة التدين وعلى ثراها نزلت الأديان . ومن هنا فهي حرية ألا تقع في تلك الأزمة التي اجتاحت المجتمعات الأخرى . ولا ريب أن الفطرة الإنسانية في أعماقها تستطيع أن تلتمس طريقها إلى الدين الحق ، وتتصل بخالقها الأوحد ، ولا شك أن الإلحاد أمر طارىء على النفس البشرية ، وليس في الأصل من

طبيعتها . ولا شك أن التدين طبيعة عميقة في الكيان الإنساني ، وهو أصدق الطرق إلى بناء الفرد وبناء المجتمع ، وبناء الانسانية المتحررة من الخوف والشك والانحلال .

* * *

إن قول الفلسفة المادية ان العالم مادة فقط . هو ما لا تستسيغه الفطرة ولا يقبله العقل ، ولا ريب أن عقيدة البعث والدار الآخرة عامل بعيد الأثر في حياة الإنسان ، وفي أعماله وسلوكه . ومن أجل هذا أولى القرآن أمر البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيماً ، وقرن البعث بالتوحيد في مواضع كثيرة ، وأشار إلى تلك الجائحة التي استطالت على العصور في إنكاره ، ومحاولة الإفلات من أثره في الدنيا ، ومن المسؤولية الفردية المترتبة على الجزاء الأخروي . وأبرز المكذبين لفكرة البعث والجزاء هم الدهريون الماديون ، ذلك لأنهم يدعون إلى الإباحة ، واطلاق الغرائز والشهوات في الدنيا ، وهو إطلاق تخشاه النفس الإنسانية وتنفر منه إلا حين يزيف لها هذا الأمر مزيف فيحجب عنها هذه الحقيقة ، ولا ريب أن الإيمان بيوم الجزاء هو أقوى باعث للمرء ، يدفعه سعياً وراء الكمال والتقدم ، ولا ريب أن يوم القيامة هو يوم نهاية الإنسان ، وهدف الله من خلق الإنسان (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى) . وفي مختلف الأديان ، حتى أديان قدماء المصريين : عقيدة البعث بعد الموت . ولم يزيف هذه الحقيقة غير التلموديين . والوثنيين ، والدهريين . ويرتبط هذا الفكر الزائف بمحاولة رفع التكاليف . والفروض . وإلغاء مسؤولية الفرد عن عمله .

الباب الأوّل

دعوات هدّامة للعقائد والقيم

الفصل الاول : الدهرية

الفصل الثاني : الثيوصوفية

الفصل الثالث : البهائية

الفصل الرابع : تحضير الارواح (الروحية الحديثة)

الفصل الأول

الدُّهْرِيَّة

الدهرية واحدة من الدعوات الهدامة التي أذاعها النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية كوسيلة من وسائل تدمير مقومات الإسلام، وقيمه الأساسية. فقد كان من أبرز أهداف الاستعمار : القضاء على القوة الأصيلة التي قام عليها الاسلام ، وهي (التوحيد) . فنشر في كل مكان حل فيه مفاهيم « المادية » والدعوة إلى القول بمعارضة وجود الخالق . وأن الكون طبيعي وجد اعتباطاً . وقد عرف هذا المذهب بالنيشرية نسبة إلى (Nature) وقد برزت هذه الدعوة بصورة خطيرة في الهند . نشرها الاستعمار البريطاني بين المسلمين . وتنبه لها السيد جمال الدين الأفغاني . فوضع رسالته المعروفة « الرد على الدهريين » (١) .

وقد صور هدف هذه الدعوة حين قال : النيشر اسم للطبيعة . وطريقة النيشر هي تلك الطريقة الدهرية التي ظهرت ببلاد اليونان في القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح . ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان ، ووضع

---

(١) ص – ٤ من كتاب « الرد على الدهريين » تأليف جمال الدين الأفغاني ، وترجمة الشيخ محمد عبده ألفه عام ١٨٨٥ .

أساس الإباحة والاشتراك في الأموال والايضاع بين الناس عامة . وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا ، وبالغوا في السعي إليه . وتلونوا لذلك في ألوان مختلفة ، وتقلبوا في مظاهر متعددة ، وكيفما وجدوا في أمة أفسدوا أخلاقها ، وعاد عليهم سعيهم بالزوال .

« وأيما ذاهب ذهب في غور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة . تجلى له أن لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية ، وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الانسانية . إذ لا ريب في أن الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعي . ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين البتة . وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان ، وطرح كل عقد ديني . اما عدم شيوع هذه الطريقة ، وقلة سلاكها مع طول الزمن على نشأتها. فسببه أن نظام الألفة الانسانية — وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية — كانت له الغلبة على أصولها الواهية . وشريعتها الفاسدة . وبهذا السر الإلهي انبعثت نفوس البشر لمحو ما ظهر منها . ومن هذا لم يسبق لهم ثبات قدم ، ولم تقم لهم قائمة أمر ، ولا في وقت من الأوقات » اه

وقد أشار العلامة صلاح الدين السلجوقي . في كتابه « أضواء على ميادين الفلسفة والعلم . واللغة . والفن . والأدب » إلى صلاحية إطلاق اسم « الدهريين » على هذه الجماعات المختلفة ، من منكري البعث في الآخرة، كما جاءت به الأديان السماوية . وان هؤلاء الدهريين . هم عشرة مذاهب: الأبيقورية . الارتقائية . المزدكية . الباطنية . أتباع فولتير . وجان جاك روسو . المورمون . النفعيون . المدلسون . الماديون .

يقول : ولما كان الهنود يطلقون كلمة « نيتشري » على جميع المنحرفين عن طريق الحق،فليس بعيداً أن نترجمها بلفظ « الدهري » .

وقال : إن الدهرية عبارة عن حكومة الغرائز، والعقد النفسية . وتشاء « أي الدهرية » أن يعم الذل ، والهوان ، والخوف ، والإرهاب ، والتفرقة ، والكراهية . وقد أشار السيد جمال الدين الأفغاني . في رسالته ، إلى أن الدهرية

هي مركز الرذائل والذل . والهوان ، ومصدر الفوضى والفساد ، والهمجية ، وموجب لسقوط الفرد والمجتمع . وبعد أن سرد تاريخ نهوض الأمم بإيمانها وبمبادئها . وكيانها الذاتي . وسقوطها بنفوذ الدهريين . غير المؤمنين بالله وبأنفسهم — قال : إن طائفة النيشريين « الدهريين » كلما نجمت في أمة أفسدت أخلاقها وأوقعت الخلل في عقولها ، وتخطفت قلوب آحادها بأنواع من الحيل ، وألوان من التلبيس . حتى تصبح تلك الأمة . وقد وهى أساسها ، وتفطر بناؤها ، واغتالتها رذائل الأخلاق من الاثرة . وعبادة الشهوات ، والجرأة على ارتكاب الخيانات . ولا يزال الفساد يتغلغل في أحشائها حتى تضمحل ويمحي اسمها من صفحة الوجود ، أو تضرب عليها الذلة . أو يخلد أبناؤها في الفقر والعبودية .

وقال : إن قبيلاً من هذه الطائفة عملوا على إخفاء مقصدهم الأصلي . وهو الإباحة والاشتراك ، واكتفوا في ظاهر الأمر بإنكار الألوهية ، وجحود يوم الدين ، يوم العرض والجزاء .

إن هذه النزعة وحدها كافية في إفساد الهيئة الاجتماعية ، وتزعزع أركان المدنية ، وليس من ضروب الباطل ، ما هو أشد منها تأثيراً في محو الفضائل وإثارة الخبائث والرذائل . وليس من الممكن أن يجتمع بشخص واحد وهم الدهرية ، وفضيلة الأمانة والصدق ، وشرف الهمة ، وكمال الرجولة . » . ا. ﻫ

أبرز مفاهيم الدهرية هي :

أولاً : إنكار وجود الخالق ، وأن الكون بلا إله ولا صانع .

ثانياً : قولهم إن الدهر قديم .

ثالثاً : انكار البعث والإعادة .

قامت هذه الطائفة في القرن الرابع الهجري . وتحطمت تحت ضربات

معاول التصحيح الذي قام به الأئمة . ثم تجددت في العصر الحديث ، جددها الاستعمار البريطاني في الهند .

ولكي نفهم أبعاد الدهرية علينا أن نستعرض بعض المصطلحات ، وننظر من خلال التاريخ ، لنرى كيف مضت الدعوة الباطنية تشق طريقها . وكيف أن ما نراه اليوم ، ليس إلا إعادة للماضي ، أو صياغة جديدة للفكر القديم الهدام .

الفصل الثاني

الثيوصوفية

مذهب من المذاهب التي ابتدعها الفكر الحديث في مجال معارضته للدين واتخاذه بدائل فلسفية لتحل محله . والثيوصوفية (Theosophie) كلمة يونانية معناها (الحكمة الإلهية) ثيوس (إله) صوفيا (حكمة) أطلق هذا المصطلح في القرن الثالث للميلاد ، ثم عادت إلى الظهور في القرن السادس عشر للميلاد . واستمدت الثيوصوفية مفاهيمها من الفلسفة الهندية القديمة . وبرزت في ضوء الدعوة التي أعلنها بعض كتاب الغرب بالتوجه إلى الفلسفات الشرقية ، للبحث فيها عن مفاهيم ومذاهب تحل محل الأديان . وكان شوبنهور الفيلسوف الألماني : هو أول من نبه الأذهان إلى دراسة الصوفية الهندية . وخاصة مذهب بوذا الذي يقول بإماتة الشهوات حتى تصل النفس بعد مجاهدتها إلى حال لا تشتهي معه شيئاً ، وهي الحالة التي أطلق عليها (النرفانا) (١) وهي حالة إذا وصل اليها الإنسان انطلق العقل حراً . لا تقيده الشهوات أو العواطف . ومن ثم يرى ما لا يراه ، وهو مقيد بها ، ويشعر عندئذ بحقيقة الكون ، أو عنصره الأول . وقد برز هذا الاتجاه في الفكر الغربي على أثر الخلاف الذي قام منذ عصر النهضة بين العلم والدين . وظهور الفلسفة كبديل للدين ، ثم جاءت

---

١ - (النرفانا) : هي حالة التشبع الروحي بالانصراف عن الدنيا كلها

الفلسفة المادية ، ثم حاولت الفلسفة أن تجد من الثيوصوفية سبيلاً للبحث عن ما وراء المادة ، وذلك ما يسمى بالانتقال من المذهب العقلي المادي إلى المذهب الباطني الحدسي القائم على البصيرة والإلهام . وقد اعتمد مذهب الثيوصوفية على كتب البراهمة والبوذيين وقدماء المصريين . والكبالا اليهودية (١) وما يقوله المعتقدون بمناجاة الأرواح (٢) . وقد ترعرعت هذه الظاهرة ، وامتدت حتى أطلق عليها بعض الكتاب . (الصوفية الجديدة) ، واعتمدت على نفس الأصول القديمة . التي تقول بها الصوفية الهندية وهي : (الحلول) . وقد وجد هذا المنطق تقبلاً في النفس الأوروبية . لأنه يتصل بمعنى قريب من مفهوم الدين في الغرب .

فالأوروبيون يقولون : « إن كان المسيح قد أسمى نفسه إلهاً . فذلك لأنه يعتقد أن ملكوت الله ليس خارجاً عنّا . إذ هو حالّ بنا . ونحن آلهة مثله . وما أرواحنا (٣) إلا قبس . أو شرارة من تلك الروح العامة الشاملة للكون (٤) .

وقد شاع هذا المفهوم في الفكر الأوروبي ، وهو أحد مفاهيم وحدة الوجود والحلول المجوسية القديمة ، واستطاع أن يجد في مفهوم العقائد الغربية : أرضية خصبة لتقبله ، ولكنه يختلف اختلافاً كبيراً عن مفاهيم الإسلام .

ولا ريب أن مفهوم الثيوصوفية يتعارض مع الإسلام في أكثر من موضع :

أولا : في الصلة بين الخالق سبحانه وتعالى ، وبين العالم والكون .

ثانياً : في اهدار المسؤولية الفردية التي تجعل الإنسان مسؤولا عن عمله مسؤولية كاملة يوم القيامة .

---

١ — الكبالا اليهودية : مفهوم للتصوف اليهودي .

٢ — مناجاة الأرواح : (راجع فصل الروحية الحديثة)

٣ — مفهوم الألوهية في الإسلام يختلف عن هذا المفهوم . كما يختلف مفهوم النبوة . فالله تبارك وتعالى في مفهوم الإسلام : ليس حالا في الكون . ولا متحداً به ، ولكنه قائم بذاته سبحانه ، وكذلك في مفهوم الإسلام أن النبي هو عبد الله ورسوله .

٤ — المجلة الجديدة : ١٩٣٣ . سلامه موسى .

ثالثاً : في إنكار البعث والجزاء . والجنة والنار ، وذلك في القول بأن الإنسان خالد ، وأن لمستقبله من المجد والبهاء ما لا حدّ له . وأن الجزاء هو دنيوي وليس أخروياً .

* * *

ومن الناحية التاريخية : نقول ان الجمعية الثيوصوفية : أنشأتها : مدام هيلانة بتروفنا بلاخابسكي الروسية المولودة عام ١٨٧٥ في الولايات المتحدة. ثم انتقلت إلى (مدراس) في الهند . فاتخذت قاعدة اعمالها في (اديار) . ثم انتهت رئاستها إلى مسز بيزانت (١) . الانجليزية الحاصلة على دكتوراه في الحقوق فأمضت في رئاستها حتى عام ١٩٣٠ . وما زالت تتنقل من الهند إلى أوروبا وأمريكا . تلقي المحاضرات والخطب . ولها مؤلفات متعددة في الفلسفة ، وعلم النفس والاجتماع ، والسياسة وخاصة في الثيوصوفية .

وقد أحصى بولس مصوبغ (٢) فروع الجمعية في العالم في الثلاثينات فبلغ المنتمون إليها ستين ألفاً. ويقول انها هيئة طائفية من طلاب الحقيقة تسعى لخدمة الانسان على قواعد روحية ، كما أشار إلى أن أهم أهدافها هي : (إيجاد فكرة أخوة إنسانية عامة بدون تمييز بين العناصر . والمذاهب . والطبقات . والأجناس والألوان ولا يسأل أحد عن آرائه الدينية عند الانضمام إليها ، ولا يسمح بالتعرض لتلك الآراء ، والجمعية ليست لها عقائد » .

ويرى بعض الباحثين أن الثيوصوفية تنظر إلى جميع الأديان نظرة تكاد تكون ديمقراطية من حيث مساواتها جميعاً (٣) وأنها وليدة الصوفية الهندية

---

١ — مسز بيزانت . هي أكبر دعاة الثيوصوفية . وقد كانت زوجة قسيس انجليزي . دب الشك في قلبها نحو المسيحية . فأخذت تدعو مع صديق لها يدعى (برادلف) إلى التعطيل . وأخيراً اهتدت إلى الصوفية . فاعتنقتها بحماسة وهمة . وسافرت إلى الهند حيث تعلمت اللغة الهندية . ودرست الصوفية الهندية . وقد ألفت في الحلول والتجسد .

٢ — الهلال — ١٩٣٠ — ٣ — الهلال م ٣٤ — ص ٢٣٨ .

والفارسية القديمة التي كانت موجودة في الشرق قبل الاسلام .

نشر هذه الأفكار في بلادنا خريجو الإرساليات الذين سيطروا على الصحافة العربية في أواخر القرن الماضي ، وحملوا لواء كثير من هذه الدعوات . ويقول الدكتور يعقوب صروف . محرر المقتطف عام ١٩١٠ في عرض لهذا المذهب : إن الثيوصوفية نوع من التصوف المسيحي ، والتأمل ، والاتصال بالله ، دون حاجة إلى كتاب ولا لوح . وان الثيوصوفية : قد اختلطت بالتصوف الهندي الآن . ولأصحابها دعاوى طويلة عريضة .

وقد وصفها (مكس ملر) اليهودي بأنها الديانة السرية . وأنها جاءت نتيجة التقاء البوذية والفكر المسيحي الغربي . ويرد الكثيرون هذه المفاهيم التي حددتها الثيوصوفية إلى الغنوصية القديمة . وما كان يسمى في المشرق بالعلم الروحي (اتمافزيا) والعلم السري (غيتامزيا) . مما كان يقول به : ماني . وبوذا . وكنفوشيوس . وفيثاغورس وأفلاطون . وأهل هذه المذاهب يعتقدون بالحلول أو التجسد والتقمص .

وَحْـدَةُ الوُجُـود

إن أخطر ما تحمله فكرة وحدة الوجود من مخالفة للعقيدة الإسلامية . عقيدة التوحيد الخالص الذي أنزل الله بها رسله وكتبه ، هو أنها تقول بتأليه المخلوقات واعتبار الكون هو الله . بينما يفرق الإسلام بين الله : الخالق الذي ليس كمثله شيء . وبين الكون المخلوق . فالاسلام يقرر أن الموجود اثنان : واجب الوجود ، وممكن الوجود . فواجب الوجود هو صانعه الواحد الفرد الصمد . وممكن الموجود هو هذه الكائنات التي ندركها بحواسنا الخمس مباشرة .

أما أصحاب مذهب الوجود : فيقولون إن كليهما واحد ، ومعنى هذا أن الكون هو الله . وهو مفهوم غير أصيل في الفكر الإسلامي ، ومستمد من فلسفات أخرى . خرجت على مفهوم التوحيد الخالص الذي أنزل الله به الأديان والرسل جميعاً . والذي استبان على أكمل وجه في الإسلام وكتابه القرآن .

فقد أنكر الإسلام عقيدة الاتحاد والحلول . وأنكر حلول الخالق في المخلوق ، أو استغراق المخلوق في الخالق . وهو يميز طبيعة كل منهما . ولا يقبل الاسلام وحدة الوجود . لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصلية . (لا إله إلا الله) إلى ما يقوله بعض الفلاسفة (لا موجود في الحقيقة إلا الله) . وسياق كل منهما ينتهي إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف عن النتائج الاخرى .

* * *

والمعروف : أن نظرية وحدة الوجود هي فكرة ترددت أول الأمر في الفلسفة اليونانية . وهي تتعارض مع الفطرة التي جاء بها الإسلام حاثاً أتباعه على التفكير في خلق الله ، ناهياً عن التفكير في ذات الله ، مقرراً أن الوجود أو الكون لا يمكن أن يكون موجوداً بنفسه . ولا ريب أن كثيراً من الباحثين ، دون هدي من معطيات الوحي والرسالات المنزلة ، قد جروا أشواطاً طويلة ، وراء الحقائق الكونية ، فلم يهتدوا ، وكانت غايتهم في إدراك الله تبارك وتعالى . وإدراك ما وراء الطبيعة بالحواس القاصرة ، وبالعقل البشري المحدود غير مقدرين أن هذه الأدوات من حس وعقل هي في ذاتها قاصرة عن الوصول بهم إلى هذه الغاية الكبرى ،التي لا تتحقق إلا عن طريق الإيمان برسالة الله ووحيه . الذي أنزله إلى أنبيائه ، والتي تكفل للانسان الطمأنينة التامة في هذا المجال ، وتغنيه عن هذه المحاولات التي لا تنتهي إلى شيء ما .

والقول بأن الله هو الكون : إنما يمثل فهماً مادياً خالصاً لذات الله تبارك وتعالى . يتعارض مع العقل ، ومع الفطرة . ومع ما أودعه الله في رسالة الدين الحق الموحى به الذي أراد به سبحانه أن يطامن النفس الانسانية في هذا المجال حتى لا تكون في حاجة إلى البحث الذي لن تصل به إلى شيء وان يفسح لها طريق التأمل والفكر في المجال الآخر . مجال العمران ، واكتشاف أسرار المادة ، وما أودعه في الأرض . والماء والجبال من معطيات وكنوز وهبها للإنسان ، وحرضه على البحث عنها واستخلاصها . وذلك حسبما صوره الرسول الكريم : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا .

* * *

إن أخطر ما تصل إليه نظرية وحدة الوجود من أن دعوى القول بأن الكون هو الله : هو إسقاط التكليف وتدمير المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

فحيث إن مذهب وحدة الوجود في ذاته لا يتفق مع الدين الحق المنزل

الذي يقول بالتفرقة التامة بين الله والعالم . ولا يتفق مع العقل السليم الذي لا يقبل أن يكون الله هو العالم . بما فيه من حيوان وجماد فإن القول بوحدة الوجود يهدد قيمة كبرى من قيم الاسلام : هي الأخلاق .

فالقول بوحدة الوجود يتعارض مع قاعدة أخلاقية الحياة التي تقوم على أساس مكين فما دام الله (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) قد اتخذ الإنسان مظهراً له . فكيف يستقيم أن يكون هذا الإنسان نفسه هو المسؤول عن نتائج عمله ؟ ومن هنا تظهر تلك الدعوة الخطيرة التي تستهدف معارضة الإسلام في صميم أصوله . وهي إسقاط التكليف ، أو إباحة ما حرم الله ، أو تجاوز حدود الله . ولا شك أن أقوال القائلين بوحدة الوجود تخالف مخالفة أكيدة ، عقائد الإسلام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة .

ونحن في حاجة إلى ان ننبه إلى أخطاء المصطلحات التي تقول (الكل في واحد . والواحد في الكل) أو القول (لا موجود إلا الله . وأن جميع الممكنات مظاهر له) فهذا كله يتعارض تعارضاً كاملا مع التوحيد . كما جاء به القرآن وفهمه المسلمون .

* * *

وإذا كانت فكرة وحدة الوجود . تعارض الوحي والعقل والفطرة جميعاً فإن عدداً من الفلاسفة اعتبروها كذلك حتى قال شوبنهور ان وحدة الوجود : ليست إلا صورة مهذبة لمذهب الإلحاد ، لأن حقيقة مذهب الوجود تنحصر في أنه يهدم التعارض الثنائي الموجود بين الله والكون . وأنه يقرر أن الكون موجود بفضل قواه الباطنة الخاصة به . فالمبدأ الذي يقول به أصحاب وحدة الوجود من أن الله والكون شيء واحد ، إنما هو وسيلة مهذبة للاستغناء عن الله أو تعطيل عمله . والمعروف أن الفلاسفة اليونان من لدن طاليس أول فلاسفتهم إلى

أرسطو : يقولون باندماج الله في العالم . أو العالم في الله (١) .

ويقول الأستاذ عبد المنعم خلاف : ان انفصال الله عن الكون ، هو النظرة البديهية التي تحل أكبر مشكلات الوجود ، وبها يضبط تقدمنا البشري ، وتحدد المسؤوليات والتبعات ، ولا تختلط الحدود ، ولا تسقط التكليفات ، ولا تهدر قيم الأشياء . ويقول نقولا حداد : ان الأديان السماوية الثلاثة ترفض هذه النظرية الفلسفية رفضاً تاماً ،وهي مجمعةعلى أن اللهوالوجود المادي شيئان مختلفان . وأن لكل منهما ذاتية قائمة بذاتها ، منفصلة عن الأخرى . وأن الله : واجب الوجود . هو خالق الوجود ومسيره .

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى : « الله والعالم » متباينان في كل شيء . ومنفصلان تمام الانفصال . أحدهما وجوده رهن بإرادة الآخر .

ويقول الأستاذ البشبيشي : ان وحدة الوجود مذهب خلاصته أن الله تعالى هو الوجود المطلق ، وأن غيره لا يتصف بالوجود أصلاً . فلو قيل ان الإنسان موجود . فمعنى ذلك عندهم . أن له تعلقاً بالوجود ، وهو الله تعالى . وأن جميع العوالم سواء اختلفت أنواعها ، وتباينت أجناسها وشخوصها . موجودة من العدم ، وأن وجودها هذا محفوظ عليها بوجود الله تعالى ، وليس بنفسها . لأنها معدومة من جهة نفسها ، بعدمها الأصلي ، ومن ثم بوجودها الذي هي به موجودة في كله . هو وجود الله تعالى . وهو واحد لا ينقسم ولا ينتقض . ولا يتجزأ ، ولا ينتقل ولا يتغير . ولا يتعدد أصلاً . ثم هو مطلق عن الكيفيات . والأماكن والأزمان « إننا لا ننكر كون العالم موجوداً لقدرة الله وإرادته . ولكن يجب أن نفرق بين وجود الله. وهو وجود أزلي ، لا بداية له ولا نهاية . ووجود العوالم ، وهو وجود حادث له بداية ونهاية . ثم اننا أيضا نسلم بأن وجود العوالم مسبب من الله تعالى . ولكن انا أن نقرر : أن هناك فرقاً كبيراً بين السبب والمسبب . والعلة والمعلول » .

---

١ – دريني خشبة : الرسالة . م ١٩٤٤ .

الحُلول

ويختلف مفهوم الحلول عن مفهوم وحدة الوجود . فحيث يقول مذهب وحدة الوجود بالوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها في الظاهر . (وهو زيف لا يقره الإسلام) فإن مذهب الحلول يقول بوجود حقيقتين مختلفتين : الإلهية ، والبشرية . وقيام الأولى بالثانية تحت ظروف خاصة .

ويرى لويس ماسينيون أن الحلول له طابع مسيحي ، وله أصول يونانية وهندية . وأنه مهدم لوحدة الله حسب رأي القرآن .

ويقول الأستاذ الإمام الغزالي (١) ان الحلول لا يمكن تصوره بين عبدين . فكيف يمكن تصوره بين الرب والعبد . ولئن سلم أحد بإمكان ذلك إلى نفس واحدة . فكيف يسلم به لجميع النفوس . وعندئذ يصبح العالم كله آلهة . ويقول : فمن المحال إذن أن يحل الله في النفس . وأن ينطبع فيها انطباع الحمر في اللبن . فإن ذلك من صفات الاجسام .

ويقول الأستاذ محمود البشبيشي : ان الله واجب الوجود، منزه عن صفات الحلول . وان الحلول محال على الله تعالى لأسباب كثيرة . ذلك لأن القديم يختلف عن الحادث لاختلاف الماهية في كل منهما . وهذا الاختلاف يوجب استحالة حلول القديم في الحادث .

---

١ – في كتابه مدارج السالكين أورده الدكتور محمود قاسم في بحثه .

ثم ان الله واجب الوجود . وهذا الوصف ينفي الحلول . لأنه في حالة حدوثه يصبح الحالّ تابعاً لما حل فيه ، كما يصبح معلولا لهذا المحل ومتأثرا به ، بل إنه ليصبح في غير الامكان تصور الحال إلا بتصور المحل . إذن ينتفي الحلول في هذه المرة . كما استحال في الأولى ، ثم إن الله واجب الوجود . والواجب ليس عرضاً . وليس جوهراً ، فإذا كان الحلول حلول عرض في جوهر . فلا يمكن بالنسبة لله تعالى ، لأنه ليس بعرض ، وإذا كان حلول جوهر . فلا يمكن أيضاً . لأن الله تعالى ليس بجوهر . »

* * *

كتابات الحلول ، ووحدة الوجود وغيرهما هي من كتابات عصور الضعف والتخلف. وقد كانت من أهم ما التفت إليه المستشرقون. وحاولوا إحياءه وإذاعته . وذلك لخلق منطلق لدعوات الإباحة المستحدثة . وخاصة الوجودية والفرويدية . وغيرها . ومحاولة لتحطيم قانون أصيل هو « البعث ، والجزاء » . وكذلك لترديد الدعوة إلى إسقاط التكاليف والالتزام الأخلاقي . وذلك كله مقدمة من مقدمات الانحلال الذي يستهدف التأثير في فريضة الجهاد في سبيل الله . والمعروف أن الاعتقاد بالحلول يسقط التكاليف والالتزامات وحدود الله . ويدفع المسلمين خارج نطاق قيمهم الأساسية . ويدمر مقوماتهم النفسية في الاندفاع نحو الترف والانحلال والفساد والشهوات ، عن طريق إعلاء الغرائز . أو الاندفاع نحو الانسحاب من الحياة كالرهبانية . ومعارضة مبدأ الزواج وتكوين الأسرة . والزهادة عن بناء الحياة . ومجاهدة أهواء المجتمعات .

---

٢ – مجلة الرسالة م ١٩٤٤ .

الاتّحـــاد

وليست فكرة الاتحاد بأكثر من فكرتي وحدة الوجود والحلول اضطراباً وفساداً ، ذلك لأن قول القائل : ان العبد صار هو الرب . كلام يتناقض مع نفسه، بل ينبغي أن يتنزه الرب سبحانه أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحاولات . وطريق البرهنة على فساد ذلك يورده الغزالي في ثلاثة احتمالات :

أولاً : إما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة .

ثانياً : إما أن تفنى إحداهما . وتبقى الأخرى .

ثالثاً : إما أن يفنيا معاً .

وفي الحالة الأولى : لا يكون هناك اتحاد ، وفي الثانية : كيف يمكن الزعم بأن هناك اتحاداً بين موجود ومعدوم؟ وفي الثالثة : لا يكون هناك محل للحديث عن الاتحاد بل الأولى أن نتكلم عن الانعدام . فالتناقض واضح في جميع هذه الاحتمالات (١) ويقول الاستاذ البشبيشي : وكما تنزه الله سبحانه وتعالى عن الحلول ، فهو يتنزه عن الاتحاد . لأنه لو حدث أن اتحد واجب الوجود بغيره ، نتج عن ذلك حالتان : إما أن يبقيا موجودين معاً ، وإما أن يدركهما العدم معاً ، ويخرج منهما ثالث . أو يدرك العدم أحدهما ، ويبقى

---

١ – نقلا عن الدكتور محمود قاسم في بحثه عن الحلول والاتحاد .

الآخر . ففي بقائهما موجودين فهما إذاً في هذه الحالة اثنان متمايزان متباينان . وهذا التمايز ينافي الاتحاد ، لأن الاتحاد يلزم أن يصبحا واحداً . وفي عدمهما معاً يبطل الاتحاد ، لأن المعدوم لا يتحد بمعدوم . وفي حالة عدم أحدهما فقط . فإن الاتحاد لم يتحقق أصلا .

التَناسُخ

لا ريب أن هناك عناصر وافدة دخلت إلى الفكر الاسلامي . وحاولت أن تؤثر في المفاهيم الاسلامية القرآنية الأساسية ، ومنهاالتناسخ.إن نظرية التناسخ . تتعارض مع مفهوم الفطرة والعقل والدين . وهي لا تطابق الحقيقة الثابتة عن مسؤولية الإنسان والتزامه الأخلاقي . فضلاً عن سذاجة النظرة التي تقول بها ، وتحاول أن تبررها ، وهي أن انتقالها من بدن إلى بدن ، إنما هو وسيلة لمنح الروح فرصة بعد فرصة ، لكي تتطهر من أدرانها . وتوحي المذاهب الفلسفية القائلة بالتناسخ بأن الحياة ما دامت قصيرة ، فلا بد من إيجاد فرصة ، وثانية ، وثالثة ، للروح حتى تتحرر من أخطائها . وفي الهندوسية أن الروح لا تحاسب بعد حياتها الأولى مباشرة .

ونظرية التناسخ تعارض المسؤولية الفردية التي تناط بكل إنسان بحسب عمله في الدنيا ، فكيف بالروح التي تتعاورها نفوس كثيرة ؟ كيف يمكن تحديد جزاء كل إنسان منهم ؟ فإذا كانت الأرواح تتناسخ مع الحيوان أيضاً . فإن الأمر يصبح أكثر اضطراباً .

ومما يورده الدارسون : أن فيثاغورس : يرى تناسخ الأرواح بين الإنسان والحيوان . بمعنى أن روح الإنسان . قد تصبح روحاً لكلب . أو ثعلب مثلا وهو تصور غريب .

وفي هذا المعنى يقول الدكتور يحيى هويدي : كيف تستطيع النفس

أن تنتقل من جسم إلى جسم ، ومن كائن إلى كائن . إن هذا الانتقال يفرض أولا احتفاظ النفس بفردانيتها ، وأنها هي التي تنتقل من هذا الكائن إلى الآخر ، ويفترض ثانياً عدم تعلق النفس بجسم معين ، وهذا تناقض . لأننا نعلم أن مصدر وحدة الإنسان . هو النفس ، فالنفس هي التي تبقي الإنسان على شخصيته ووحدته وهويته . وتجعله هو هذا الإنسان باعتباره مكوناً من هذه النفس المعينة، وذلك الجسم المعين. فكيف يعترف القائلون بالتناسخ بفردانية النفس وبهويتها ، ولا يؤدي ذلك إلى اعترافهم بهوية الأجسام باعتبارها مكونة من نفس وجسم .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فإن فكرة التناسخ تقوم على قياس زمني خاطىء ، فهي تقول إن الفرصة التي تعطى للإنسان في حياته الأولى فرصة ضيقة جداً . إذا قسناها بالزمن اللانهائي للأبدية التي ستعيش فيها النفس بعد ذلك. من أجل ذلك، فعلينا أن نطيل هذه الفرصة في فترات متعاقبة ، لكي تكون متناسبة مع الزمن اللانهائي للأبدية ، التي ستعيش فيها النفس بعد مفارقتها جسدها الأول . وتلك فكرة قائمة على وهم خاطىء ، إذ مهما أطلت في المدة السابقة على فناء النفس فناءها الأخير . ومهما تراكمت في ذلك السنون ، وتعاقبت الأدوار ، فإن هذا كله لن يكون شيئاً بالقياس إلى الأبدية التي تكون فيها النفس بعد الموت . فأولى أن نجعل لتلك النفس حياة واحدة من أن نجعل لها حيوات متعاقبة تقاسي في كل منها الأهوال . وقد رفض الاسلام فكرة التناسخ، وذهب إلى خلود النفس خلوداً نهائياً بعد حياتها الأولى المرتبطة بجسم معين . ولا شك أن موقف الاسلام من خلود النفس ، وبعث الأجساد ، هو أظهر منطق للمسؤولية الفردية . والالتزام الأخلاقي بالحساب والجزاء في اليوم الآخر .

ويمكن أن نلاحظ هنا . أن أول من قال بتناسخ الأرواح بعد الإسلام السبئية (أصحاب عبد الله بن سبأ) . وذلك في محاولة ترمي إلى تزييف المفاهيم الأساسية القائمة في حدود العلاقات بين الله تبارك وتعالى والنبي ﷺ . وعلي بن أبي طالب . ولا ريب أن نظرية التناسخ تسلم إلى مذهب الحلول .

النرفــانا

النرفانا : كلمة غامضة معناها الامحاء، والسكون ، والانعدام ، والانتعاش والراحة . والمقصود الروحي منها : أنها حال من فقدان الشعور تتخلص النفس في اثنائه من الإحساس بالألم . الذي يسببه لها اتصالها بالأجسام .

فالنرفانا : ليست وجوداً إيجابياً ، ولكنها تخلص من الوجود المؤلم يقوم لها مقام السعادة والتنعم . أما المتصوفة المسلمون . فقد أخذوا (النرفانا) بمعناها اللغوي . وسموها الفناء والمعروف أن الفناء الصوفي ليس نوعاً من النرفانا . ولا ريب أن النرفانا ظاهرة سلبية وفكرة متفرعة عن مذهب تشاؤمي . وهي تأمل خالٍ من كل مضمون تصل بصاحبها إلى حالة يفنى فيها عن نفسه . وتغيب عن ذكره وفكره كل الصور والرسوم . وقد استمدوها من قول بوذا : كل شيء فارغ والكل لا جوهر له ، لا شيء موجود ، الكل يصير ، الكل في صيرورة بغير جوهر . وعندهم أنه حتى لا يتعرض الإنسان للتناسخ . أو دورة الأرواح أن يصل إلى النرفانا . وقد صدق الدكتور عبد الرحمن مرحبا حين قال : إن التفكير الهندي قد حطم الإنسان ، وهو يدعي تأليه الإنسان .

الإشـراق

يتشكل مذهب الإشراق من عناصر إغريقية وفارسية ، وهو فرع من الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الجديدة ، وجماع بين مفهوم الرواقيين . والعناصر الإغريقية منه مأخوذة من فلسفة أفلوطين وفيلون اليهودي، أما العناصر الفارسية فهي مأخوذة من ماني ومزدك . وهو جماع آراء وتيارات . راجت في الديانات القديمة . ويقوم في جملته على القول : بأن مصدر الكون هو : النور . فهو يعبر عن الله سبحانه وتعالى بالنور الأعلى ، ويصف العوالم بأنها أنوار مستمدة من النور الأول . والمعرفة الإنسانية في مفهوم الاشراقيين « إلهام » من العالم الأعلى يصل بواسطة عقول الأفلاك ، وهو ما يسمى بالكشف أو الإشراق . أي ظهور الأنوار العقلية للنفوس بعد تجردها ، ولا ريب أن مذهب الاشراق في جملته وتفصيله خارج عن مفهوم الاسلام وبعيد غن جوهره ، ومتعارض مع التوحيد الخالص وقد تجددت الدعوة إلى هذا المذهب في الإسلام أيام الحروب الصليبية ، وفي نفس اللحظات الحرجة التي كان المسلمون يعملون لمقاومة العدو الزاحف .

وقد كانت فكرة النور والظلام من مذاهب المانوية والمزدكية، والباطنية. وقد مضى دعاة الاشراق . متأثرين بمفاهيم المجوسية، والزرادشتية ، وما يتصل بالكواكب والنجوم والأفلاك .

عمر فروخ – تاريخ الفكر العربي .

ومعرفة الله في الإسلام لها أصولها ومصادرها . وهي بعيدة كل البعد عن أساليب الغنوصية . وليست قائمة على الإلهام وحده ، أو العقل وحده ، ولكنها منهج متكامل . له خصائصه وأبعاده الكاملة . وليس في الإسلام ترقٍ للإنسان إلى مرتبة الآلهة . أو اتحاد للناسوت واللاهوت . وقد ثبت أن الحركة الداعية إلى ذلك في مجموعها متصلة بالقرامطة الباطنية ، وبحركات الزنج وغيرها . التي كانت تحاول إسقاط الدولة الاسلامية عن طريق الدعوة الفكرية . وهدم التوحيد بالنظرية الفلسفية .

ولقد أقام المسلمون فكرهم على أصول ثابتة من القرآن والسنة الصحيحة ، واتخذوا من حياة الرسول نموذجاً تطبيقياً . لا يتعدونه ، ولا يطمعون في زيادة عنه ، مؤمنين بأن كل ما لم يتحدث به القرآن، أو رسول الله، فإنه ليس من دين الله ، وأن رسول الله لم يكتم عن أمته شيئاً ، وأنه جاء ليتمم مكارم الأخلاق .

الفصل الثالث

البهائية

الدعوة البهائية هي : دعوة قديمة مجددة ، شكلتها أصول متعددة من الفكر الوثني الهليني ، والفكر التلمودي اليهودي ، والفكر الغنوصي المجوسي. وهي واحدة من الدعوات التي ظهرت في إبان الاستعمار البريطاني بهدف إسقاط فريضة الجهاد . أو تعطيلها .

وقد دخل يهود إيران هذه الحركة ، وحولوها وجهة متصلة بالماسونية . وتحاول البهائية نشر دعوة وحدة الأديان بالخروج عن أصولها للدخول في دين جديد ، يقول بالسلام العام، وتوحيد لغات العالم ، ومساواة الرجل بالمرأة ، واعتبار العبادة هي العمل .

وحيث تدعو البهائية إلى وحدة الأديان . تدعو إلى وحدة الأجناس والشعوب. ومن خلال هذه الدعوة العالمية تتكشف روح المخططات التلمودية التي تحاول أن تنشر هذه الدعوة من وراء الروحية الحديثة ، والثيوصوفية . وانها جميعاً تحاول التبشير بعصر جديد يشرق على البشرية ، وهذا هو جماع ما حملته بروتوكولات صهيون .

ولا ريب أن كل دعوة تدعو إلى وحدة الأديان ، والأجناس : إنما تحاول

هدم الإسلام . لأنه الدين الوحيد الذي يراد له أن يندمج ، وأن ينصهر . وعالمية الأديان لا تستهدف إلا القضاء على عالمية الإسلام . وهذه المعاني كلها مستمدة أساساً من التلمود . وأبرز معاني البهائية إسقاط فريضة الجهاد . وهي دعوة حين تنتشر بين المسلمين . لا تفيد منها إلا الصهيونية العالمية التي تحرص على كلمات السلام . وقد ايدت البهائية الربا بإيعاز من اليهود . فقد أحصت للبهاء تصريحات عن أرباحه الربوية ، ولا ريب أن هذا مما يكشف عن مطابقة تامة مع الأيديولوجية التلمودية البهائية حتى وصف البهائيون بأنهم مجوس القرن العشرين . وهي في أنظمتها أقرب إلى الماسونية . وقد وجدت مناخها في كل المناطق التي ضعفت فيها يقظة الإسلام . فقد استوطن البهائيون تركيا ، وعكا ، وحيفا قبيل الحرب العالمية الأولى . وكان لذلك أثره البعيد في إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، والقيام بدور هام في عملية تهريب المهاجرين . وقد أعطى عباس البهاء بسلوكه وتصرفاته نموذجاً للزعامة البهائية . فقد كان ماجناً مفرطاً في مجونه ، وأحصيت له في زياراته لسويسرا . وفرنسا ، وانجلترا ، مواقف قوامها التحرر من كل القيم والأخلاق . وكشفت تصريحاته عن إشادة واضحة بالأفكار المجوسية واحتقار دعوات الأنبياء . وقد وصف الرسل بأنهم أصحاب أوهام وخرافات أفسدت عقائد الشرق .

* * *

كشفت مخططات البهائية عن منهج كامل في هدم الإسلام .

أولا : ان أبرز مفاهيمها هو تأويل آيات القرآن . بما يخرج عن مفهومها ومدلولها اللغوي والشرعي حيث تقوم البهائية في أصولها الأولى على التأويل شأن الفرق الباطنية القديمة ، بعيداً عن أصول اللغة والمتعارف من النواميس والسنن ، والتحايل على آيات القرآن الكريم ، وصرفها عما يراد بها من حكمة وهداية ، وتوجيهها إلى غايات تتعارض أساساً مع القرآن وتأويل نصوص الشريعة بما يحقق الدعوة إلى إسقاط التكاليف . والتأويل فن ابتكره اليهود .

ثانياً : تقول البهائية بتطور الشريعة ، وتبدلها تبعاً لتطور الأزمان ، وهي نفس الدعوى التي ترددها اليوم دعوات الفرويدية والوجودية ، والتي هي من الأسس الأصيلة للمخططات التلمودية . وهم يذهبون إلى القول زوراً وبهتاناً ، بأن الشريعة الاسلامية لا تصلح لهذا الزمان . وفي هذا إقرار بالقوانين الوضعية وإقرار بنظام الغرب ، وفصل الدين عن المجتمع .

ثالثاً : معارضة الجهاد ومقاومته . حتى ليقول أحدهم : إن البشارة الأولى لجميع أهل العالم هي محو حكم الجهاد من الكتاب « أي القرآن » (١) . وقد علا صوت هذه الدعوة في مواجهة احتلال اليهود لفلسطين ، دفعاً للمسلمين إلى الاستسلام والتخاذل . وكذلك ارتفع صوت هذه الدعوة الأولى إلى هذا المعنى ، في مواجهة صيحة السلطان عبد الحميد بإعلان الجهاد الاسلامي في مواجهة زحف الاستعمار على الدولة العثمانية .

رابعاً : محاربة اللغة العربية ، والدعوة إلى تبديل اللغة الفصحى بما أسموه « اللغة النوراء » وذلك بهدف محاربة لغة الإسلام العالمية . وهي لغة القرآن العربية ، وإثارة الشكوك حول عالمية اللغة العربية ، وكونها اللغة المشتركة بين العرب والمسلمين ، لغة الفكر ، والثقافة ، والصلاة ، والهدف هو تمزيق الصلة بين حاضر المسلمين ، وبين ميراثهم الخالد . .

خامساً : ادعاء نبوة جديدة ، ودين جديد ناسخ للاسلام وللأديان جميعاً . والدعوة إلى الخروج من الأديان القائمة ، والدخول في دين جديد ، وفي ذلك متابعة لدعوة الماسونية ، ومنهج اليهود ، والأيديولوجية التلمودية في محاولتها فرض نظام عالمي من خلال منطلق « الربا » وتحقيق هذه الغايات عن طريق مذهب يحتوي جميع رغائب المطامع والشهوات .

سادساً : دعوة السلام العام ، وهي دعوة اسرائيل التي تستهدف بقاء وجودها في الأرض العربية ، ودعوة الصهيونية العالمية ، بالسيطرة على العالم .

---

١ – كتاب : نبذة من اشراقات بهاء الله . ص ١٠٩ .

سابعاً : إبطال شريعة الإسلام وأحكامها في شأن المرأة ، والدعوة إلى الاختلاط بين النساء والرجال ، والمساواة على النحو الذي تصبح فيه المرأة متحررة من قوامة الرجل ، واتخاذ المرأة متعة وأداة . وذلك في ضوء فلسفة اللذة ، ومشاركة المرأة الرجل ، في صالات الرقص والنوادي الليلية ، وإقامة الحرية الجنسية المطلقة . ومن نتائجه انهيار الأسرة وانحلالها .

ثامناً : الترابط الواضح بين اليهودية التلمودية ، والبهائية ، ومتابعة اليهود في منهجهم ، والاستمداد من التراث اليهودي – وهذا التعانق بين البهائية ، والصهيونية في الحديث شبيه بتعانق اليهودية والمجوسية في القديم – وهدفه القضاء على الإسلام وزلزلة أعمدته . وقد ثبت عن البهاء قوله : انه يدعو إلى جمع المسلمين والنصارى واليهود على نواميس موسى عليه السلام . أي أنه يريد (تهويد) المسلمين والنصارى . وأنه يجعل اليهودية الدين السائد في الأرض ، وبذلك يكون السلطان في العالم كله لليهود وحدهم (١) .

واجه كثير من الباحثين الدعوة البهائية ، وكشفوا عن زيفها . وفي مقدمة هؤلاء العلامة محمد فريد وجدي . الذي قال : إن طموح البهائية إلى أن تكون ديناً عاماً يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم . هو مما يقضي بالعجب ، لأنها ليست بدين سماوي ، وليس فيها من الأصول والمبادىء ما يلفت العقول إليها ، بعد أن بالغت في عرض نفسها على الأمم . فأين هي من الاسلام الذي بَنَى أمماً قوية ، ومدنيات فاضلة في خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال مثل حيويته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون . منهم برنارد شو ، ان مبادىء الإسلام توشك أن تعم العالم أجمع . يقوم الاسلام على أصلين . ضمنا له التعميم والخلود : موافقته للفطرة ، واعتماده على العقل والعلم . فأين البهائية من هذا الموقف العلمي الحق ، وهي تقوم على أصلين : أحدهما عتيق غامض ، قال به أفراد من محبي السبح في الخيالات . فهي تصور ذات الله بصور المخلوقين . وثانيهما : وهو صرف الألفاظ عن ظواهرها وفيه مجال

---

١ – محسن عبد الحميد : حقيقة البابية والبهائية .

فسيح للظنون والأوهام والخبط .

« تدعي البهائية أنها أتت العالم بجديد من الأصول ، لم يدر في خلد المصلحين قبلها . كاتحاد الأديان ، وترك العصبيات ، واتحاد الأجناس ، والسلام العام ، ومساواة المرأة بالرجل . أما ما سموه باتحاد الأديان : فقد سبق إليه الإسلام وأسسه على أقوى الأصول . وحاطه بأحكم الدلائل . فقرر أن أصل الأديان كلها واحد ، وأن الخلافات التي بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأوهام .

فالاسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضاً ، ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق بينهم .

إن البشرية ليست في حاجة إلى دين جديد بعد الاسلام ، فانه استكمل جميع شرائط الدين العام . ا هـ

هذا ومع أن البهائية قد انقضى على دعوتها نصف قرن ، أو يزيد . فما نرى أنها استطاعت ان تحقق هدفاً واحداً من أهدافها في اتحاد المشرق أو المغرب ، أو اتحاد الأديان ، أو الأجناس، أو زوال الحروب . وكل ما كشفت عنه أنها موجة زائفة من موجات الإباحة والإلحاد ، التي حملت كل سخائم الباطنية القديمة ، وأعادت طرحها على البشرية مرة أخرى .

وأبرز ما يكشف عن نحلتهم وهدفهم أنهم يشاركون الدعوات الهدامة الأخرى في أبرز المفاهيم المشتركة بين هذه الفرق جميعاً .

أولاً : إنكار البعث ، والجنة ، والنار . وهم يؤولونها.(وهم في هذا يقلدون طائفة الدهريين) .

ثانياً : دعوى النبوة لبعض زعماء المذهب .

ثالثاً : نزع السلاح ، وإنكار الجهاد ، ونشر السلام العام ، ونبذ العصبيات الدينية .

رابعاً : إنكار اعجاز القرآن وأنه من عند الله .

خامساً : فساد عقيدتهم في الأنبياء . والدعوى عليهم بأنهم ستروا الحقائق . وإنكار معجزات الأنبياء .

مفهوم التأويل

لا يقرّ الإسلام التأويل بمفهوم تخفيف الضوابط الأخلاقية ، أو التهوين من شأنها . وليست هذه الضوابط أغلالا باطلة . أو قيوداً مفروضة على الانسان .

والاسلام في جوهره . يقوم على الثبات ،وعلى المفاهيم الواضحة . « آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنّ أمّ الكِتاب » « فأمّا الذينَ في قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتّبعونَ ما تشَابَهَ منْهُ ابتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تأويله . ومَا يَعْلَم تأويْلَهُ إلاّ اللهُ والرّاسِخُونَ في العِلْمِ يَقُولُون آمنّا بِه كُلٌ منْ عِنْدِ ربّنَا[1].

وتجري محاولة التأويل المستحدثة الآن لتجعل الاسلام متقبلا للحضارة في مختلف فروعها ، وأعمالها . (ومنها الإباحية ، والربا ، والسرقة) .

والحق ان للإسلام قيماً ثابتة لا تتغير ، وإنما يجري التطور في الفروع لا في الأسس . فلا يقال مطلقاً إن الاسلام يتطور ، ليتناسب مع الزمن والتقدم المادي ، بل إن على المجتمعات أن توائم بينها وبين الأصول الثابتة في العقيدة والبعث والالتزام الأخلاقي . انما تتطور الأديان البشرية والأيديولوجيات والمذاهب ، لتستطيع أن توائم نفسها مع التغير الحادث ومع البيئات والعصور ، ذلك لأن هذه المذاهب ليست عالمية وإنما الإسلام وحده هو الذي يمتلك الطابع العالمي الخالد . ومن شأن الوضعيات أن تواجه التغيير .

---

١ — سورة آل عمران آية — ٧ .

أما الإسلام، فانه في أصوله الأصيلة الثابتة، قد أقام قواعد عامة لا تتعارض مع تغير الأزمنة ، أو تطور البيئات . أما أن يصبح الاسلام مبرراً لأوضاع الحضارة ، والمجتمعات ، فإن ذلك ليس من رسالة الإسلام وأهدافه .

يقول العلامة النيسابوري : واعلم أن مقتضى الديانة أن لا يؤول المسلم شيئاً من القرآن والحديث بالمعاني . بحيث تبطل له الأعيان التي فسرها النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح .

* * *

وأبرز أخطاء التأويل يتمثل في محاولة القول بأن عذاب جهنم ، هو عذاب معنوي . والهدف من ذلك هو إشاعة (١) الاباحة والجريمة في الناس بانتزاع فكرة العذاب الأخروي من نفوسهم ، بينما هو عنصر هام من عناصر إحياء الضمير وردع أهواء النفس من الشرور والمآثم . وقد أصبحت الدعوة للإباحة المطلقة ، والتحلل من ضوابط الفضائل النفسية والجنسية، هدفاً أيديولوجياً لبعض الفلسفات المعاصرة . كالوجودية وغيرها .

فالقائلون بعدم كون العذاب الأخروي حقيقة ، إنما يعملون بدهائهم الخاص لتسريب هذه الفلسفات الهدامة للقضاء على روح الأمم . وإفساد مقوماتها النفسية والعقائدية.وهي أشد ما تكون حاجة اليها،وهي تصارع في معركة المصير إلى الاحتفاظ بهذه المقومات التي هي منابع طاقتها المناضلة . وإن هذا الاتجاه يؤدي إلى ابطال قضية (الثواب والعقاب) على الاطلاق ، وتبطل تبعاً لها مفعولية التكاليف الشرعية ، والتزام العمل بها لأنه أي (الثواب والعقاب) مناط التكاليف الشرعية ، والتزام العمل بها ، فاذا بطلت حقيقة الجزاء بالثواب والعقاب على فعل التكاليف وتركها ، فقد بطلت حقيقة التكاليف الشرعية ذاتها ، وهل الاسلام ، إلا هذه التكاليف من الأمر والنهي ، فإذا بطلت بطل الاسلام كلــه .

---

١ – قرآن وسنة : الدكتور محمد سعاد جلال .

الفصل الرابع

الروحية الحديثة

تحضير الأرواح

من الدعوات التي روجت لها الصهيونية والاستعمار : دعوة تحضير الأرواح . وجمعياتها تتخذ أسلوب الماسونية . إذ تقوم على الأسرار والرموز ، ولها درجات يترقى فيها العضو ، حتى يصل إلى أعلى مكان . ولا ريب أن القول بأن أرواح المتوفين يمكن أن تعود إلى عالمنا ، وأن تتكلم . هو ادعاء ليس له أي دليل علمي أو عقلي .

ذلك أن عالم الروح : عالم غيبيّ . من المستحيل أن يستطيع البشر اختراقه . وأن كل ما عرف عنه لا يعدو ما جاء في الكتب المنزلة . وفي مقدمتها القرآن .

ولقد كشف كثير من المنتمين إلى هذه الجمعيات مدى فساد الطريقة التي يحاول بها محترفو هذه الصناعة ، خداع الناس ، والدخول إلى نفوسهم بألوان من الأساليب القائمة على الأضواء ، والإيماءات . ومدى الزيف الذي تنطوي عليه هذه الوسائل التي لا تخدع إلا البسطاء . والسذج .

وأمامنا تجربة كاملة لرجل على درجة عالية من الثقافة : هو الدكتور محمد محمد حسين . الذي كشف في كتابه (الروحية المدنية — حقيقتها وأهدافها) عن مدى الزيف الذي اتضح له بعد أن مر بهذه التجارب ، وأنار

الله بصيرته إلى الحقيقة . وقد نقد جوانب كثيرة من حلقات تحضير الأرواح . سواء منها ما يتصل بأسلوب الفنجان أو السلة أو وسيط التنويم المغناطيسي . وذلك كله يتم في ظلام ، وتحت ضوء أحمر خافت لا يكاد يميز فيه الناظر أشباح الجالسين ، بالاضافة إلى رنين أجراس ، وما إلى ذلك من أساليب الخداع التي تثير الرهبة في نفوس البسطاء .

وقد تبين أن المقبلين على هذه الحلقات هم ممن فقدوا أعزاء لديهم ، فهم يريدون أن يشبعوا شوقهم إليهم بالاتصال بهم . أو ممن وقعوا في أزمات يطمعون في استقصاء أرواح أقارب ، أو شخصيات بارزة ، وسماع نصائحهم. أو طلاب العلاج من الأمراض . وقد انتشرت في السنوات الأخيرة أضاليل كثيرة . منها أن أرواح الموتى تقدم للأحياء أشياء مكتوبة تملى عليهم ، وقالوا إن أحمد شوقي ما زال يرسل بشعره من عالم الأرواح . ويدعم دعاة الروحية الحديثة ومروجوها دعاواهم بنصوص من الكتب السماوية . يجازفون بتأويلها حسب أهوائهم ، أو يخرجونها عن مدلولها ، وكذلك بنصوص من المأثور عن السابقين الأولين .

يؤكد المتصلون بالأبحاث الروحية . والذين اندمجوا فيها ، ان هذه التجارب على الطريقة التي تجري بها في أوربا وأمريكا باسم (Spiritualism) والتي نقلها عنهم المروجون لها ، هي تحت تأثير أيدٍ هدامة ، تحاول أن تجعلها « ديناً جديداً » يهدم أسس المجتمع ، وينشر فيه الفوضى بالتشكيك في كل المقررات الدينية والخلقية . وأنها شعبة من الدعوات المريبة التي تأخذ الناس من كل جانب والتي تلبس مختلف الأثواب ، وتخفي حقيقتها تحت شتى الأسماء ، وهي تتخذ اسم العلم ، أو السلام ، أو الرحمة ، أو محاربة الإلحاد والمادية (١) . بل إن مراجعة يسيرة للعقائد والمفاهيم التي يعتنقها دعاتها وأتباعها ، تكشف عن خطورتها وآثارها البعيدة في تهديم الاسلام والتوحيد .

---

١ – دكتور محمد حسين : الروحية الحديثة .

أولاً : تقوم تعاليم الروحية الحديثة على وحدة الوجود (فالله والعالم شيء واحد) ، وعلى تناسخ الأرواح ، وخلود الحياة المأنوسة لنا الآن . فلا فناء للدنيا ، وأنه ليس هناك يوم للبعث والحساب العام . والعبادات المقررة لا وزن لها عندهم ، وكذلك إنكار خلق الله للكون ، ومحاولة الترويج لقدم العالم ، وإنكار نهاية الخليقة . ومن عجب أن جميع هذه الدعوات قديمها وحديثها . إنما تقوم على هذه القاعدة العجيبة ، سواء أكانت البهائية أم الثيوصوفية أم الدهرية . بل إن دعوات الفرويدية والوجودية والهيبية ، تبلغ في ذلك مبلغاً لا حدّ له من التزيد وتصل دعواها إلى أبعد الغايات في استغلال مظاهر العلم ، وأساليب البحث الفلسفي رغبة في تحقيق أكبر قدر من الإغراء والخداع ، والمعروف أن فكرة تناسخ الأرواح وخلود الدنيا ، وإنكار الجزاء هي نفس مبادىء الماسونية مصوغة في اسلوب جديد . (١) والواضح أن فكرة التبشير بنبيّ أو إمام أو مهدي هي عنصر أصيل في مثل هذه الدعوات . ذلك أن أصحابها إنما يمهدون بها لتحقيق غاية يتطلعون إلى أنها ستكون في المرحلة التالية . ومن ثم فهم يشدون الأبصار إليها .

كذلك فإن هذه الدعوات تبشر بفكرة العالمية ، أو الكونية . وتلك غاية أخرى من غايات الدعوات الهدامة ، وهدف أصيل من أهداف الماسونية في خدمة الصهيونية العالمية .

ثانياً : تقوم الروحية الحديثة على معاداة الأديان . وخاصة الإسلام ، والمسيحية . وتكشف في كثير من إيماءاتها عن صلتها باليهودية التلمودية . ولذلك فإن دعاة الروحية يهاجمون رجال الدين عامة . كمدخل إلى مهاجمة الأديان نفسها . ويركزون على السخرية منهم ، واتهامهم بالتقصير والتأخر والجمود ، إلى غير ذلك مما يراد إلصاقه بالدين نفسه ، فضلا عن إنكار علماء الدين ، لما يدعونه من اتصال بالأرواح أو ما يسمونه بالعلاج الروحي . وهم

---

١ – الشيخ محمد الغزالي : مجلة الوعي الإسلامي .

في نفس الوقت يمجدون الوثنية والنحل القديمة ، ويعلون من شأن الفرعونية ، ويتخذون من أسمائها رموزاً لهم ولمحافلهم – وهم يشيدون ببعض الأرواح الفرعونية . مثل روح (رع أمون رع) و(همبوت) ويطلقون اسم جمعية الأهرام على محفلهم ، ويركزون على الآثار والكشف عنها ، ويولون هذه الكشوف عناية كبيرة .

ثالثاً : تركز الروحية الحديثة : على هدم الأخلاق ، ونفي الاختيار ، والقول بالجبر . وهم في دراساتهم الروحية ، يتخذون نفس الأسلوب الذي اتخذته الدراسات النفسية في تبرير الجريمة ، والاعتذار عن المجرم ، ووصفه بأنه مريض ، ومحاولة إرجاع دوافعه إلى عقد نفسية . أو إلى اضطراب في تركيب جسمه . على نحو ما تشير نظرية (لمبروزو) التي أثبت كثير من العلماء فسادها واضطرابها . وهم يحاولون بهذا أن يصلوا إلى تبرئة المجرم ، ورفع القصاص عنه . كما يدعون المجتمع إلى عدم مطاردته .

فالروحيون يذهبون هذا المذهب نفسه عن طريق آخر. فهم يبررون الجريمة بإرجاعها إلى ما يسمونه (المس الروحي) والمجرم في كلتا الحالتين مكره على الجريمة . يرتكبها تحت عامل داخلي عند الفرويديين ، أو تحت عامل خارجي عند الروحيين ، وكل منهما يهدم التقنين الخلقي من أساسه . لأنه يمحو المسؤولية الفردية التي هي مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، ومن الواضح أنه يمحو في الوقت نفسه الشرائع السماوية كلها ، بل القوانين الوضعية أيضاً . فهو عود إلى الحيرة الضالة المفسدة للدين والدنيا جميعاً (١) .

رابعاً : من أخطر دعواتهم وأكذبها : قولهم إن الجنة والنار فكرة عقلية ، أو حالة نفسية. وإن الناس على اختلاف أديانهم ، وعلى اختلاف نحلهم وطبائعهم يعيشون فيما وراء الموت حياة هي نفسها حياتهم على الأرض ، وإن فرص

---

١ – دكتور محمد حسين – الروحية الحديثة .

التكفير عن الذنوب لا تنقطع بموتهم . وهم بذلك يهدمون أكبر رادع للناس عن الظلم والفساد . وهم يدعون أن القيامة هي قيامة « آدم » الجديد الذي يقوم على وجه الأرض في عالم لا يحكمه إلا السلام . وتسوده الروحية ، وتلك إحدى دعاواهم التي يمهدون لها .

خامساً : إنكار القرآن والإنجيل أساساً ، ثم محاولة الاستشهاد بهما مع التحريف الشديد في سبيل خداع البسطاء ، وضعاف النفوس .

وحيث أن الدعوات الهدامة . تقوم على المادية ، فقد كان من الضروري خلق منطلق آخر له مدخل ناعم الملمس . يحاول استقطاب المتدينين ، والذين يكرهون الدعوات المادية ، ومن هنا كانت الروحية أسلوباً للهدم. فهم يدعون الناس ممن تجتويه أساليب الخوارق والمعجزات ، ويتدرجون بهم حتى يصلوا معهم إلى نفس الغاية التي تصل إليها المذاهب المادية من انكار الوحي ورسالات السماء ، ومن أن الأديان كلها تهدف إلى غاية واحدة. فليس بينها خلاف ؛ وأن الرسل والأنبياء ليسوا إلا وسطاء بين الله وخلقه ، وأن هذه الرسالة قائمة لا تنقطع ، وأن هناك من يقومون بها على الدوام ، وفي الوقت الحاضر أيضاً . ويصلون من هذا إلى الحديث عن نبيهم (سلفر بيرش) الذي يسمونه الروح الرائد أو (آدم الجديد) وهو الذي سيكون خليفة الله على الأرض . وينقلون عنه كتابات وأحاديث ، تستهدف التركيز على الغايات الكبرى للمذهب الروحي . وهو إخراج الناس من الإيمان بالله على الوجه الذي جاءت به أديان الله ، والتي نزل بها الإسلام خاتماً . وفي هذه الدعوة حديث عن إسقاط التكاليف ، وتجاوز حدود الله، وإباحة المتعة والشهوات ، والتشكيك في الجزاء والعقاب والثواب ، وفي الجنة والنار ، وفي الحياة الأخرى جملة — وتقوم هذه المفاهيم على أساس «التأويل » على نفس المنهج الذي عرفته الدعوات القديمة كلها ، وتهدف إلى الترويج للإلحاد ، والإباحة تحت ستار التنويه بمكارم الأخلاق .

سادساً : محاولة التفريق بين العبادات والأخلاق . والادعاء بأن العمل الصالح وحده كاف لأن يقرب الانسان من ملكوت الله . ويشير (سلفربيرش) إلى هذا المعنى حين يقول : أعطني الرجل الذي لا يعتنق أي دين . والذي لا يركع لذكر اسم الله . ولكنه (أمين) ، ويحاول أن يخدم ويمد يده للضعيف ، ذلكم أكثر تديناً ممن ينسب إلى أي دين (١) .

لا ريب أن هذه الحقائق تصل بنا إلى غاية واضحة : هي أن الصهيونية العالمية قد استطاعت أن تحتضن فكرة الروحية الحديثة ، وأن توجهها إلى أهدافها . كما احتضنت كثيراً من الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية في العصر الحديث .

ولقد كانت حركة الروحية . أو (الاسبرتزم) في أول أمرها سلاحا جباراً ، أريد به معارضة المادية — ومقاومة نفوذها . وشغل به كثير من أرباب الأديان ، ومن أعداء الدعوات الهدامة ، وكان لأمثال : فريد وجدي وغيره اهتمام كبير به ، يحسبانه ، باباً للإدالة من الدعوة المادية وإسقاطها . غير أن القوى الهدامة ، استطاعت أن تستوعب الحركة الروحية ، وأن توجهها إلى غايات أبعد ما تكون من أهدافها الصحيحة . فأصبحت الروحية بمثابة دين جديد يبشر به المبشرون ويدعو إليه الداعون ويتنبؤون بعالم جديد يسوده السلام والمحبة ، وهو نفس الطريق الذي سارت فيه دعوة (الثيوصوفية) ثم البهائية .

وقد أكد هذا المعنى (هوايت هوك) فيما نقلته عنه مجلة عالم الروح حين قال : إن الروحية اليوم تلقنها يد الحراس من الأرواح . والسادة مصلحو البشر ، أولئك هم الذين خلقوا الحركات المتعددة منذ مائة سنة . فهم الذين وضعوا أساس الثيوصوفية ، والفكر الحديث ، والعلم المسيحي الحديث ، ولذلك

---

١ — يكشف لنا النص مصادر الدعوة التي ثارت وترددت حول الفصل بين الايمان بالله . وبين الأخلاق أو بتعبيرهم بين « الدين والضمير » .

فالروحية ستكون أقدر على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله . [١] .

ويقول أحد دعاة الروحية الحديثة : إن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية . وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالم الروحي : طريقة جديدة للحياة ، ويعطوننا فكرة جديدة عن الله ومشيئته . انهم سوف يأتون لنا بالسلام والطمأنينة الروحية وسعادة النفس والقلب . سوف يحطمون الحواجز ، بين الشعوب والأفراد ، بين العقائد والاديان [٢] . ومعنى هذا كله . كما يقول الدكتور عبده الراجحي [٣] : ان الروحية الحديثة هي صورة أخرى من صور العالمية . تتخذ أسلوب الماسونية ذاته . فهي تقوم على رموز وأسرار . ولها درجات . ولم تنشأ للتسلية ، ولكن أنشئت لأهداف خاصة . وهي مخطط إسرائيلي واضح الهدف والأسلوب . يرمي إلى انتزاع الشخص من دينه وقوميته وصبّه في قالب جديد من العالمية ، أو الكونية ، مستخدمة لذلك مختلف الوسائل ، حتى أنها تستخدم الدين في هدم الدين. فهم يؤولون آيات القرآن تأويلا عجيباً . ليصلوا إلى منهجهم . ويحاولون أن يجعلوا من الوسيط الروحي في العصر الحديث رسولا يفوق الرسل . وهدف الروحية الحديثة « لا بد أن يتحطم الدين بيد أتباعه ، ولا بد من تحقيق القومية على أيدي أبنائها ، وهذا هو السبيل أمام الاسرائيليين كيْ يركبوا أكتاف العالم من جديد » .

أما نحن المسلمين ، فاننا نقف إزاء ذلك كله على قاعدة صلبة . فقد كشف لنا القرآن عن الموقف الصحيح من كل هذه الدعاوى الباطلة التي كشفها القرآن نفسه في حديثه عن أصحاب المذاهب الهدامة ، والنحل الضارة التي سبقت الإسلام . ونحن المسلمين نؤمن بالمادة ، وما وراء المادة ، وبالحياة والموت والنشور . ونؤمن بالبعث والجزاء وبأن النار حق ، والجنة حق ، وأنها ليست من باب التصورات والأحاسيس . والمسلمون لا يؤمنون بأن

---

١ – العدد ١٢٧ – مجلة من عالم الروح .

٢ – العدد ١٢٦ – من مجلة عالم الروح .

٣ – في كتابه الشخصية الاسرائيلية .

الأرواح التي ذهبت تستطيع أن تتصل بعالمنا هذا أو أن يكون لأحد في عالمنا سلطان لاستحضارها . ولا يقر الإسلام الاتجاه إلى الروحية وحدها ، وليس الإنسان روحاً بلا جسد . ولا ينصر الإسلام إحدى الكفتين. الروحية،أو المادية . ولكنه يجمعهما معاً ويوازن بينهما . وهذه الدعوة إلى الروحية ليست إلا نموذجاً للدعوة إلى المادية . وكلاهما يتعارض مع الفطرة وطبيعة الإنسان ومع مفهوم العقل المؤمن بالوحي . ويبقى الاسلام متميزاً بنظامه ودعوته إلى الإيمان بالله ومقاومته لطغيان المادية أو الروحية على السواء ، ونحن نعرف أن هذه الفلسفات جميعاً نشأت في غير محيط الإسلام. كرد فعل لمفاهيم سبقت بالكبت والحجر على العقول والأبدان ، والدعوة إلى الرهبانية وتأليه الإنسان وما يتصل بذلك من دعوات التعدد وغيرها مما دفع الفكر الغربي إلى الصراع بين المثالية والمادية. وبين الأديان والفلسفات ، وهذا ما دفع بعض الفلاسفة إلى إعلاء الإنسان ، وإلى عبادة الأجساد، وما دفع الآخرين إلى وصف الدين بأنه أفيون الشعوب، ودفع بعض الفلاسفة إلى القول بأن الإله الذي عرفوه عن طريق دينهم قد مات وهكذا . ومن هنا كان رد فعل المادية المطلقة الغالية في إنكار عالم الغيب والوحي والأديان وانكار الله إلى دعوة غالية في الاتجاه الآخر . إلى الروحية والعوالم والأفلاك. وكلاهما مسرف شديد الإسراف، وكلاهما يصدر عن العقل الذي تحكمه الأهواء ، والذي تقوده دعوة « الفكر الحر » فلا يستطيع أن يصل إلى شيء . لأنه يخرج عن نطاقه ووظيفته وأفقه المحدود .

وقد نقلت الجمعيات الروحية ، ودعوات تحضير الأرواح إلى بلادنا بغية انتزاع المسلمين من دينهم وقوميتهم ، وإخراجهم من عقائدهم وقيمهم . فهم بين شرين ، كلاهما مر . إما روحية تنكر الجسد والمادة « الانسان روح لا مادة » كما يقولون أو مادية تنكر كل شيء ، وتعتبر الروح نفسها مادة خالصة . وكل هذا يستهدف إخراج المسلمين من عقائدهم وشريعتهم وأخلاقهم،ويلتمس لذلك ما حملته الدعوات الهدامة قديماً من باطنية وغنوصية وإشراق وتناسخ وحلول ، فالعبارات هي العبارات، والأهداف هي الأهداف ، ولا جديد إلا أن تتشكل من جديد تحت اسم جديد .

ولا ريب أن الروحية الحديثة بدأت حركة في مواجهة المادية ، ولكن مخططات التلمودية لم تلبث أن احتضنتها ، وسارت بها خطوة في طريقها إلى غايتها . ولا ريب أن القول بأن العلم الروحي قد أصبح علماً تجريبياً ، هو من أكبر التجاوزات الخاطئة التي ليس هناك دليل على صحتها . ولا ريب أن التواصل بين الأحياء والموتى أمر مشكوك فيه إلى درجة الاستحالة المطلقة . ومن الخطأ في هذا المجال ، الربط بين هذه المفاهيم الوافدة . وبين القرآن الكريم عن طريق التعسف في تأمل الآيات والنصوص .

الباب الثاني

دعوات هدّامة للمجتمعات والأمم

الفصل الاول : أيدلوجية التلمود

الفصل الثاني : العنصرية

الفصل الثالث : المادية

الفصل الرابع : العلمانية

الفصل الخامس: العالمية

الفصل الأول

أيدولوجيّة التلمود

ما تزال البشرية تواجه أيدلوجيات مناهضة للفطرة الإنسانية والتوحيد والعدل . ومتحركة داخل نظريات ومذاهب ، وطارحة نفسها خلال العصور المختلفة بأساليب متجددة . وفي هذا العصر نجد هذه الدعوات الهدامة للأمم والمجتمعات ، وقد صاغت أفكارها القديمة . التي سبقت الإسلام . والتي جاء الاسلام، ومن قبله كل أديان السماء، للكشف عن زيفها، وللتحذير من أخطارها . صاغت هذه الأفكار في أسلوب براق ، وفي منهج علمي ، واتخذت أساليب مستحدثة ، وقدمت فكرها في أجواء زاهية ، ومن خلال مطبوعات لامعة فاخرة ، وتحت أسماء مغرية . ولما كانت دعوات الهدم تعارض الأديان والأخلاق والقيم . وتناهض الضوابط والفرائض والحدود، وهي تغري بالتحرر في الفكر والسلوك . فإنها قد تجد من بعض الجماعات البشرية ، والأفراد تقبلا بالإغراء ، وموأزرة بالرغبة . ومن هنا تتعرض الأمم للأخطار ، جيلا بعد جيل . وتتعمق الأزمة ، وتبرز الآثار المروعة التي لا يدفعها ، إلا أن تعود الأمم مرة أخرى ، إلى التماس مناهج الله وأساليب الرسل والأنبياء . ومن أخطر ما تواجهه البشرية اليوم ، مخططات التلمود التي صيغت في دعوات هدامة كالماسونية ، وحركات خطيرة كالصهيونية ، وأساليب

عمل كبروتوكولات صهيون . وهدفها هدم الدين والأخلاق والحضارة . واستعمال كل الوسائط والأساليب ، لفرض سيطرة الصهيونية على العالم .

إن هدف أيدلوجية التلمود ، هو إقامة امبراطورية الربا العالمية . وقد رسم اليهود أهدافهم بدقة خلال منفاهم في بابل منذ ألف عام تقريباً . حيث أعدوا مخططاً كاملا للسيطرة على العالم ، والانتقام من الأميين . ومن أجل هذا أجرى اليهود تحريفات كثيرة في كتبهم المقدسة ، ومنها برزت نقمتهم وأحقادهم . فقد حشوها بأفحش القول ، وأبشع الحقد على الأديان والأمم ، وضمنوها عديداً من التعاليم الضالة ، والمبادىء الحاقدة ، والقيم الفاسدة .

يقول جاك رومان ، وماري لورا ، في كتابهما (التحدي الصهيوني) : إن أبرز ما تحمله تعليمات اليهود هي نصوص تفيض وحشية وعنصرية وحقداً على العالم كله ، وقد غذيت العقول بهذه الأحقاد على مدار الأجيال ، فأصبحت قوام النفسية اليهودية التي نشأت نتيجة لها الدعوة لاعادة التركيب الاجتماعي . ومنها نشأت تلك الأيدلوجية القائمة على العنصرية ، والسيطرة والظلم والربا . ولا ريب أن هدف الأيداوجية التلمودية هي طبع العالم كله بذلك الطابع . واحتوائه داخل منهج ربوي مادي . يتحرك من خلال مفاهيمهم وقيمهم . وقد وصلوا في ذلك إلى حد كبير بتطعيم الفكر الغربي بمذاهب جديدة في النفس والاجتماع والأخلاق والاقتصاد . ويمكن القول ان الأيداوجية التلمودية . قد استطاعت فعلاً بعد صراع كبير مع الفكر الغربي المسيحي من السيطرة على الحضارة الأوروبية والفكر الغربي وطبعه بطابع المثل الأعلى التلمودي .

٢

من أجل إقامة منهج وأيدلوجية ، لا بد من تذليل القوى لتحقيق هذا الهدف . فإذا كان المثل الأعلى التلمودي هو الربا والسيطرة الاقتصادية العالمية . فلا بد من تذليل كل العقبات في سبيل إخضاع البشرية لهذا الهدف . ومن هنا تكون الأديان والأخلاق هي عقبة العقبات ولذلك ، فلا بد من تذليل الأديان

والأخلاق لأنها قوى المعارضة الحقيقية . ومن هنا تركز التلمودية اليهودية على تفكيك الأخلاق ، وتسهيل سبل الشهوات ، وتزيين ذلك للناس بوسائل العرض ، وصياغة المناهج والفلسفات ، ومن هنا كانت سيطرة اليهودية التلمودية على الصحافة ، والسينما ، والجامعات ، والمناهج الثقافية والتربوية . ومن ثم أصبح في أيديهم كل وسائل التأثير العقلي ، والاقناع الفكري ، عن طريق الكلمة المكتوبة . والكلمة المسموعة ، والصورة المرئية . فالأزياء وأشرطة الصور المتحركة ، والرقص ، ومسابقات الجمال ، والمودات ، وكتب الجنس ، والصور العارية . كل ذلك في أيدي اليهود . وقد نشروا في العالم كله مجلات متخصصة للدعوة إلى عبادة الجسد ، ونشر المجون والفسق ، وإذاعة القصص الكاشفة عن الأسرار ، وإعلان الفضائح والجرائم تحت ستار التحقيق الجنائي . وليست كل هذه الأساليب والمناهج ، والمذاهب ، من سياسية واجتماعية ، إلا محاولات لتقريب العقل البشري كله من الأيدلوجية التلمودية وصهره فيها وتشكيله من جديد .

٣

حيث اقتضى مخطط الأيدلوجية التلمودية الطموح إلى السيطرة على البشرية . فقد كانت الماسونية هي الجهاز الذي يمهد لهذا العمل . والماسونية هي عصارة الفكر التلمودي مصوغة في فلسفة موجهة إلى مختلف الأديان والأجناس على النحو الذي يضع هذه المجموعات البشرية في خدمة الهدف على نحو تدريجي . ووفق مغريات . وأساليب ومطامح تتفق مع مختلف العقليات . والأذواق ، والرغبات ، ومن هنا قامت الماسونية على هدم طودين كبيرين هما : الدين والأخلاق ، وقد جعلت شعارها (البناؤون الأحرار) ، هادفة من وراء ذلك إلى غاية واضحة هي بناء هيكل سليمان في القدس . فالماسونية ، وجميع الجمعيات السرية المماثلة ، ليست غايات ، وإنما هي وسائل تستخدمها القوى الخفية لتهديم القيم التي تقف حائلا دون مطامع اليهودية التلمودية . وقد أجمعت مصادر كثيرة على أن الماسونية تعمل على : تقويض الحضارة ومحو الأديان

وهدم القوميات وإسقاط الدول والامبراطوريات والقضاء على الآداب والأخلاق . إن الهدف هو السيطرة على العالم عن طريق حصر المال ، والقوة السياسية والصحافة في أيدي حفنة من اليهود ، وجعل هذه القوى الخاصة ببني البشر وسائل تتحكم فيها . وان هذه المخططات والدعوات الهدامة ، هي محاولة مستمرة لتغيير تركيب العالم السياسي ، والاقتصادي ، والفكري بما يتفق مع المخططات اليهودية .

٤

الربا . هو أس الأساس في بناء الأيدلوجية التلمودية . يقول اليهودي لازار : إن أصحاب المصارف اليهودية ، ورجال الصناعة، والشعراء، والكتاب، والخطباء اليهود ، متحدون بأفكار مختلفة ، ينشدون غاية واحدة . ويعتقد اليهود أن اتحادهم فيما بينهم ، يظل قائماً ما داموا يبثون روح الهدم . ومتى تضعضعت ثروة أوربا فإن مصرف اليهود يبقى راسخاً لا يتزعزع .

إن الهدف هو طغيان رأس المال ، واستنزاف جميع الثروات . وفي سبيل ذلك يحتم ضرب كل العوامل التي تحول دون هذه السيطرة .

والمال كما يقول كارل ماركس في كتابه «المسألة اليهودية» : هو إله اسرائيل المطاع وأمامه لا ينبغي لأي إله أن يعيش . ومحاولة إسرائيل والصهيونية هي أن يصبح إله اليهود إلهاً للناس أجمعين . ومن الحقائق الاجتماعية التاريخية : ان اليهود هم الذين وضعوا النظام المالي، الذي هو القطب الروحي للمدنية الغربية في العالمين : القديم ، والجديد . وأن لهم به النفوذ الأعلى في جميع الدول والأمم الرأسمالية — وأنهم أخفوا أنفسهم بصفتهم المالية . أن تظهر في مملكة المال ظهوراً يمكن به لغيرهم أن يسلبوا ثرواتهم . وهم من أجل تحقيق هذا الهدف يضعون الاقتصاد العالمي على أساس الذهب الذي يحتكره اليهود لا على أساس قوة العمل والثروات الأخرى . وهم يجعلون من الذهب أقوى الأسلحة لإثارة الرأي العام ، وإفساد الشباب ، والقضاء على الضمائر والأديان

والقوميات ونظام الأسرة . ومن شأنهم إحداث الأزمات الاقتصادية العالمية على الدوام . حتى لا يستريح العالم أبداً . فيضطر إلى الاستعانة باليهود . وقد أجاب الدكتور خالد شلدريك على سؤال : لماذا تقف الصهيونية واليهودية التلمودية موقفاً معارضاً للإسلام خاصة والأديان المنزلة بصفة عامة فقال : إن السر الحقيقي يختفي دائماً وراء المال ، فالدين الإسلامي بتحريمه الربا أقفل بلاد المسلمين دون الفوائد الفاحشة الكامن حبها في نفوس ناشئة بني اسرائيل . وقد وجدوا أن الحراب الأوربية تستطيع حمايتهم فتدفقوا للاستيلاء على أملاك المسلمين . فالمالية اليهودية إذن ترمي إلى غزو كل بلاد إسلامية . ووضع الأغلال لا في أعناق المسلمين الأسيويين فقط . بل والإفريقيين أيضاً . فالمال إذن هو الذي جعل اليهود اليوم خصوماً للمسلمين .

هذا ، وتختلف وجهة نظر المسلمين عن وجهة نظر الأيدلوجية التلمودية ، التي فرضت مفهومها على الحضارة الغربية ، وجعلتها خاضعة لحب الملذات ، وتوفير اللذات ، والذهاب بالانتاج الصناعي غايته في سبيل تحقيق الترف والرفاهية ، ومن هذا المنطلق نشأت المزاحمات والمضاربات ، وأعمال البورصات. أما الحضارة الإسلامية ، فلا تستمد روحها من مثل هذه البواعث. وإنما تستهدف أن تكون أمة أخلاقية تنصر الحق ، وتخذل الباطل. ومن هنا فليست الحضارة الإسلامية في حاجة كبيرة إلى ما يسمونه الرفاهية والترف على حساب القيم الخلقية والدينية .

ولقد كان اليهود هم الذين حملوا لواء الربا على طول العصور ، وكان المرابون اليهود وراء اقراض الأمم والملوك . وقد قامت الرأسمالية على الربا الفاحش ، وارتبط الاقتصاد العالمي بالربا . وارتبطت بالربا صناعة السينما وتجارة الرقيق ، والخمر والمخدرات . وكان للربا أثره في التركيز على بضائع معينة هي أدوات الترف والزينة وما وراءها . حتى قامت مئات الصناعات في العالم من أجل الانحلال ، وكان لا بد أن تخلق من ورائه فلسفة ونظريات تدعم الدعوة إليها . وتحبب فيها . وتغري بها السذج ليستمر نمو نفوذ الربا .

وبذلك فرض الربا نفوذه وتأثيره على كل القيم الدينية والأخلاقية والانسانية .

٥

يقول أحد الباحثين إنه من خلال الأيدلوجية التلمودية نسقت نظم الغرب . ان جميع أنظمة الغرب التي كان لليهود اصبع في وضعها أو تعديلها ، أو في تفسيرها ونشرها . قد صنعت إما لمصلحة أصحاب رؤوس الأموال ، أو لمصلحة طائفة أخرى من أهل القوة والتأثير ، أو للترويج لنزعة من النزعات التي يرتاح لها فريق ، ويسخط لها فريق . والنظام اليهودي قائم على تبادل المنفعة . وافق هذا التبادل الفضيلة أم خالفها ، والحق عندهم . هو ما يتمشى مع القانون ، ولا تعاقب عليه المحاكم : أما مفهوم الإسلام فيختلف عن ذلك اختلافاً عميقاً . ومن خلال الأيدلوجية التلمودية التي نسقت نظم الغرب أشرف اليهود على مراكز القوى العالمية .

أشرف اليهود على الصحافة ، ودور النشر ، ووكالات الأنباء .

أشرف اليهود على أبحاث الجامعات ، والثقافة ، ومذاهب العلم ، والفلسفة ، والفن ، والمسرح ، والسينما ، ونظم التعليم .

أشرف اليهود على البنوك ، والشركات . والبورصات — أشرف اليهود على الأزياء ، وهم من وراء كل الظواهر المستحدثة الخطيرة . الهبية ، والخنافس ، وتجارة علب الليل ، وتركيب حقن الهلوسة ، والمارجوانا .

وقد عملوا على السيطرة على معامل الملابس ، والمساحيق ، والعطور ، وما سواها ، وبذلك توصلوا إلى تحقيق غرضين : السيطرة على المال ، وافساد الأخلاق وهدم الأديان . وعملية الزينة والأزياء ، تتغير حيناً بعد حين . ويزداد النساء انفاقاً ، وتتسرب الأموال إلى جيوبهم ، وفي نفس الوقت ينشرون عن طريق الأنماط ، والمودات ، أسباب التفسخ والهدم بما ينشر الرذيلة ، ويشيع الاختلاط ، ويزيل الفوارق بين الرجل والمرأة . وينشر الأمراض الجنسية ، ويضيع الطهارة ، ويهدم الأسرة .

٦

حملت الأيدلوجية التلمودية لواء دعوات مختلفة في العصر الحديث ، بعد أن سيطرت عليها ورفعتها في العالم كله من أجل تحقيق أهداف تتفق مع غايتها الكلية . في مقدمة هذه الدعوات ، الثيوصوفية ،والروحية الحديثة ، والبهائية ، كما قدمت مذاهب تهدف من ورائها إلى فرض مفاهيم معارضة للحقائق التي استقرت في الأذهان . منذ نزل الإسلام إلى اليوم . والتي وضعت حداً فاصلا بين عصر وعصر . من هذه المذاهب علم مقارنة الأديان ، والدعوة إلى العنصرية ، وإعلاء جنس على جنس ، والدعوة إلى المذهب المادي ، وإلى العلمانية ، وإلى فصل الدين عن المجتمع .

كذلك طرحت نظريات عديدة متضادة في ميدان الاقتصاد ، والسياسة ، والتفسير المادي للتاريخ ، وعلوم النفس والأخلاق والاجتماع ، تستهدف وضع أصول التلمود وأهدافه موضع التطبيق العملي في المجتمعات .

وما من مبدأ أو مذهب علمي ، أو فلسفي يظهر في العالم حتى يَهُبّ (١) اليهود ليكونوا من ورائه ، ويتصرفوا معه بما ينفعهم ، وقد أفلحت الدعاية اليهودية في طبع كثير من العقائد والنحل بما يحقق مصلحتها ، فترى روح الولاء والتهلل لبني اسرائيل ومعتقداتهم تهيمن على بعض المقدسات المسيحية . وما ظهر مذهب فكان مؤديا إلى مسّهم بالأذى إلا قتلوه ، وما كان مؤدياً إلى خير لهم إلاّ روجوه في أنحاء العالم . وكذلك يروجون كل قلم ما دامت آثاره — عن قصد . أو غير قصد — تساعد على إفساد الناس . ورفع شأن اليهود ، كما فعلوا مع « نيتشه » الذي يتهجم على المسيحية وأخلاقها ، ويقسم الأخلاق إلى قسمين : أخلاق سادة كالعنف — وأخلاق عبيد كالرحمة والبر ، مما يتفق وروح اليهودية وتاريخها ، ويمهد لها في الأذهان ، ويجعلها سابقة على نيتشه ، وكذلك روجوا مذهب التطور ، وأولوه تأويلات ما خطرت

---

١ — الأستاذ محمد خليفة التونسي — مقدمة كتابه « الخطر اليهودي »

لدارون ، واستخدموه في القضاء على الأديان والقوميات والفنون .

٧

وهم يستخدمون المذاهب المتناقضة لخدمة مصالحهم ما دامت تؤدي أخيراً إلى انحلال العالم ، والقضاء على أخلاقه ونظمه وأديانه وقومياته . فهم يدعون إلى العالمية ، والوطنية المتطرفة ، والتسامح الديني ، والتطرف الديني . وقد كونوا جماعات دولية ذات نفوذ عالمي لإثارة الخلاف بين الدول الديمقراطية والشيوعية في الشرق والغرب وإثارة مخاوف كلا الفريقين من الآخر كلما خَفَّتْ حدتها .

٨

محاربة الأديان والخشية منها ، والحيلولة دون ظهورها في سائر الأمم الحديثة في الغرب ، ذلك لأن النص على الدين سيحول بين اليهود ، وبين المناصب القيادية في الأمم المختلفة . ولذلك : فقد وجهوا إلى الدين حملة ضخمة . وعارضوه بالفلسفات حتى كادت تسقط قيمة الدين كلية في نظر الغربيين . وقد أثاروا في وجه الفكر الديني في الغرب شبهات كثيرة منها أنه لا يفي بحاجة النفس الانسانية ، ولا يحقق غاياتها .

ولكن هذه الحملة تجد مواجهة صحيحة . وتختلف اختلافاً بيناً إذا وجهت مثل هذه الحملة إلى الاسلام . ذلك أن موقف الإسلام من الانسان ومن العلم ومن العمل والتقدم وزينة الله التي أخرج لعباده موقف مختلف في أصوله وفروعه — وتحرص الأيدلوجية اليهودية على تطبيق شبهات الفكر الديني الغربي على الاسلام . وذلك يفرض ضرب أكبر مقررات الاسلام ، وهو أنه دين ونظام مجتمع . فهي تستهدف ابعاد الاسلام عن المجتمع ، وإيقاع الخلاف بينه وبين العروبة ، وعزله عن الاقتصاد ، والقانون ، والتربية .

٩

تقف التلمودية اليهودية موقف المعارضة للمنهج القرآني الإسلامي الرباني الذي يتمثل في الأخوة الإنسانية ، والحنيفية السمحة البعيدة عن العنصرية ، وإعلاء الجنس . وتقف من الأنبياء والرسل والكتب السماوية موقفاً معارضاً لموقف القرآن والإسلام، فالإسلام يؤمن بالله،وكتبه،ورسله. لا يفرق بين أحد من رسله . بينما تفرق التلمودية اليهودية ، وتصور بعض الانبياء بصورة تغض من أقدارهم . وهم المؤهلون لقيادة الإنسانية المعصومون عن الخطأ — ذلك أن صور أبطال اليهود في القرآن صور إسلامية . وصورهم في العهد القديم صور يهودية — والخلاف بين صورتي كل بطل منهم خلاف واسع . قد يصل إلى التناكر. وأهم مظاهره، هو عصمة هؤلاء الأبطال في القرآن عما لا يليق بهم . وعدم عصمتهم في العهد القديم من ذلك (١) .

١٠

أبرز مفاهيمهم المعارضة للأديان عامة ، والإسلام خاصة إنكار البعث . وهو أخطر مفاهيمهم التي يقيمون عليها منطلق النهج الربوي المادي الخالص .

١١

رفض(١) لحركة التاريخ الانساني منذ ما قبل المسيح حتى الآن على مدى ألفي سنة ، وللتطورات الهائلة التي حدثت في العقليات ، والنفسيات ، والعلوم ، والحضارات . وقربت ما بين الأجناس والألوان والأفكار حتى وصلت بالناس إلى عهد الإيمان بالإنسانية الواحدة المتعاونة على تحقيق السلام . بعد ما سلحتها

---

١ — محمد خليفة التونسي في بحثه عن الابطال بين القرآن والعهد القديم .

علومها ، وفنونها بأسلحة تجعل الحرب بينها كحروب آلهة الخرافة تدميراً وإبادة للجميع . وارتداداً بالمدنية إلى عهود الكهوف والجبال .

١٢

محاولة علم مقارنة الأديان . رد ما في الأديان الأخيرة إلى الأديان السابقة : ورد كل القيم التي تمثلها الأديان المنزلة . إلى عادات وتقاليد قديمة بدائية (والمعروف أن هذه القيم نزلت بها الأديان الأولى ، ثم توالت ، وأن البشرية لم تعرفها إلا من هذا الطريق) وهذه محاولة ترمي إلى تشكيك المسلمين في دينهم . فالعالم اذا تمكن من تفتيت الدين ، واعادة كل أفكاره إلى مصدر قبله ، ولو لم يكن المصدر يهودياً ، استطاع أن يمحق قداسة الدين في القلوب والعقول ، وبخاصة المسلمين الذين يعتقدون أن القرآن وحي من الله أنزله على محمد ، فبلغه من غير أن يكون له مشاركة فيه . وهذا يخالف ما يعتقد المسيحيون في الوحي ، إذ يرون أن كتاب الأناجيل هم كاتبوها . بإلهام من الله .

١٣

تقسيم البشر إلى يهود ، وهم الشعب المختار و « جوييم » وهم من عداهم من البشر ، ومعنى الجوييم : الكفرة ، والوثنيون ، والأنجاس ، والحيوانات . وتترجم أحياناً إلى العربية بكلمة الأميين Gentiles وقد صور القرآن هذه التفرقة « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » أي أنهم غير ملزمين بأية شريعة في معاملة غيرهم ، فلهم قتل غير اليهودي وسرقة ماله وانتهاك عرضه (١) .

١٤

روجوا لمذهب التطور . وأولوه تأويلات ما خطرت لداروン . واستخدموه

---

١ – الرسالة . ١٩٤٨ – من بحث عن أبطال اليهود بين القرآن والعهد القديم .

في القضاء على الأديان، والقوميات، والقوانين ، والفنون . باعتبار أن كل شيء بدأ ناقصاً شائها يثير السخرية والاحتقار ، ثم تطور . فلا قداسة إذن لدين ، ولا لوطنية ، ولا قانون ، ولا فن، ولا لمقدس من المقدسات. وهم يعبثون بعلم الاقتصاد والاجتماع ،وعلم مقارنة الأديان ، ويسخرونها لمصلحتهم. وإفساد الآداب والنظم والعقول في كل انحـــاء العـــالم . ويدسون فيها نظريات مبهرجة لا يفطن إلى زيفها إلا الموهوبون من ذوي العقول . وهم وراء كل زيّ من أزياء الفكر والعقيدة والملبس والسلوك إذا ما نفعهم ، لا سيما إذا كان يفسد غيرهم (١) .

ويقول الاستاذ عباس العقاد : لقد تفهم المدارس العصرية في أوربا ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها . هي أن أصبعاً من الأصابع اليهودية كان وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية . وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الإنسان في جميع الأزمان . فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان ، واليهودي دوركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ، ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب واليهودي أو نصف اليهودي سارتر وراء الوجودية التي نشأت معززة لاكرام الفرد ، فنحا بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات القنوط والانحلال ــ ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية . بل الأزياء الفكرية كلما شاع في أوربا منها مذهب جديد . ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها ، وظواهرها ، دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة . والتدبير المقصود ، وقل مثل ذلك في فرويد اليهودي الذي هو وراء علم النفس الذي يرجع كل الميول والآداب الدينية ، والخلقية ، والفنية ، والصوفية ، والأسرية إلى الغريزة الجنسية كي تبطل قداستها . ويخجل الانسان منها . ويزهده فيها . ويسلب الإنسان الإيمان بسموها ما دامت راجعة إلى أدنى ما يرى في نفسه . وبهذا تنحط في نظره صلاته بأسرته ومجتمعه . والكون

---

١ – كتاب الخطر اليهودي للتونسي .

وما وراءه . وقل مثل ذلك في علم مقارنة الأديان التي يحاول اليهود بدراسة تطورها ، ومقارنة بعض أطوارها ببعض ، ومقارنتها بمثلها أن يمحوا قداستها . ويظهروا الأنبياء بمظهر الدجالين. وكذلك حركة الاستشراق التي تقوم على بعث الكتب القديمة . فهي في العربية تزحم مكاتبنا بأتفه الكتب التي لا تفيد علماً ، ولا تورث خلقاً ، ولا تهذب عقلاً ، فكأنما تؤسس المكاتب لتكون متاحف لحفظ الموميات الخالية من الحياة . والتي تغري الإنسان لتفاهة محتوياتها وكثرتها ، وتفككها بالنفور منها . إذا كان سليم الطبع والعقل . أو التمسك بتفاهتها ، فتورثه الغرور والعناد والكبرياء . وكذلك يروج اليهود لكل المعارف التافهة التي تمثل في المجلات والقصص والكتب التي تثير الشهوات ، وتهيج الجوانب السيئة من الغرائز ، وتحبب الرذائل ، وتنشر الانحلال .

١٥

هناك نظرية تحتاج إلى مراجعة واسعة . وإن كانت لها دلائل ترجح صدقها . هي أن الأصابع التلمودية الصهيونية ، وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية ، وأنها وراء كل الثورات والانقلابات ، بل إن بعض الباحثين ، يرد حركات ابن سبأ وابن الصبان وابن ميمون القداح ومهران قرمط ، وبابلك والحشاشين إلى اليهودية ، والأثر اليهودي .

١٦

يقول بوكهارت : ان الأدب العالمي ، قد يكون مديناً لبعض كتاب اليهود . ولكن شرهم أكثر من نفعهم ، وإثمهم أكبر من خيرهم . فإن (هينه) أفسد أخلاق باريس . وأزوفالد : أنذرنا بقرب زوال الحضارة ، أما فرويد فقد خلق الاباحة الحديثة على نمط الوثنية الاغريقية ، ومجد الغريزة. وأطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة ، أن يفعلا بجسديهما ما

شاء لهما الشبق الكامن في حنايا ضلوعهما . فالتهتك الجنسي لا حد له في رأيه، والولد يغار على أمه من أبيه ، ويود لو يموت الوالد ليحل محله (مركب أوديب) . أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاغتلام وعلاقة الجنس . وتوماس مان : برر عشق الذكور (قصة الموت في البندقية) ووصف مرضى الصدر بحيوانات مفترسة . تتخذ من يأس الشفاء عذراً للتساند . فمصحات الجبال مواخير للمرضى تحت مراقبة الأطباء (قصة الجبل المسحور) .

١٧

يقول أحد الباحثين : كان من المستطاع أن تشق الفلسفة الأوربية طريقها حتى تصل إلى العلم من ناحية ، وإلى الدين من ناحية أخرى . ولكن تداخلات الصهيونية واليهود منذ سبينوزا ، قد حالت دون ذلك ، وحولت دفة الفلسفة إلى المادية والإلحاد .

وقد وصف مكسيم جوركي أمة اليهود بأنها سيف ذهبي شهر على رأس أوربا منذ مهد المسيحية . وقد حاولت الفلسفات التي حمل لواءها اليهود تغيير مفاهيم الحياة ، وإفساد الفطرة . إذ حاولت أن تصف الانسان بأنه حيوان ، وابن المصادفة ، وأنه لا غاية لوجوده . ولا هدف ، ورتبت على ذلك أنه لا معنى للحياة الانسانية ، ولا للمثل العليا . وأن الحياة تخبط ، ليس فيها إلا الطعام والجنس . وبذلك طغى طابع المادية على علوم النفس والأخلاق . والتربية والفن.وهاجم ماركس وفرويد ودوركايم (وهم جميعاً من اليهود) الدين، فقال ماركس : انه أفيون الشعوب ، ومجموعة الأساطير . وقال فرويد : انه ناشىء من الكبت . وقال دروكايم : انه ليس فطرة .

١٨

محاولة الادعاء بأن اليهود منبع الأديان ، ورأس الحضارات والثقافات . والقول بأن بناء الأهرامات واختراع الآلات إنما كان بفضلهم . والتاريخ

يؤكد أنه لا دور لهم في الحضارات إلا دور التخريب وأنهم لم يخلقوا حركة اجتماعية واحدة . ولا قدرة لهم على خلقها . ولكنهم يحتوون أي حركة تنبع ويستغلونها ويحولونها إلى غاياتهم . ويمكن القول بأن الفلسفات الحديثة كلها : ليست إلا تراث الفلسفات الهدامة القديمة . وقد حملوها إلى العصر الحديث. وابتعثوها وفق ترتيب محدد لهدم مقومات الأمم الدينية والخلقية ، وقد وصفوها بالتراث القديم . والتعاليم السرية من كتب البراهمة . والبوذيين . والمصريين . ومما يتصل بالسحر والخرافة والأرواح . والهياكل ، والأوثان . وذلك هدف أساسي من أهدافهم . وهو إغراق العالم بأفكار غريبة وآراء شاذة . وكلمات تهدف إلى تدمير الأديان . وإنكار التوحيد والتشكيك في البعث والجزاء . وترضي الرغبات والأهواء في نفوس البسطاء وتحملهم بها إلى غاياتها البعيدة .

١٩

يقول هنري فورد في كتابه اليهودي العالمي : الموسيقى الشعبية الرخيصة هي احتكار اليهود ، وليست موسيقى الجاز ، إلا احتكاراً يهوديا ، وليست هذه الحركات المثيرة بما فيها من قذارة ، والتي تتسق مع النغمات التي تبعث الغرائز إلا من عمل اليهود . ولعل من الغريب أنك حيث التفت للتحري عن الخيوط المؤذية للنفوس ، التي تسري في المجتمع . تجد جماعة من اليهود خلفها. فوراء الفساد في لعبة الكرة جماعة من اليهود . هم وراء الاستغلال المالي ، ووراء الدعاية للمشروعات الروحية ، والسيطرة على السياسات القومية الحزبية. والسيطرة على الصحافة عن طريق الضغط المالي والتجاري ، وثمانون في المائة من مستغلي الحروب هم من اليهود .

٢٠

إن مفهوم التنوير الذي أدخلته المخططات التلمودية إلى الفكر الغربي المسيحي . هو نقله إلى التعبد للرقي المادي « أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة

هدف آخر سوى هذه الحياة نفسها » . ويقول محمد أسد [١] : ان هياكل هـذه الديانة هي المصانع العظيمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، وإباحات الرقص ، وكهنة هذه الديانة هم : الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما . ويتسع هذا المفهوم ، حتى يصل إلى أنه ليس للاعتبارات الخلقية أي أثر مباشر محسوس في الرفاهية المادية . وأن كل الفضائل تتعلق برفاهية المجتمع المادي ، مع إزاحة الحب الأبوي والعفاف لأنها لا تهب المجتمع فائدة مادية محسوسة .

ومن ثم فقد أخذت القيم الوثنية اليونانية تحل محل القيم الدينية والأخلاقية . وتحمل الدعوة إلى حرية فردية للجسد البشري غير مقيدة تقودها قاعدة (الفكر الحر) التي تشرف عليها الصهيونية العالمية ، وتقوم على تعاليم التلمود . وقد أشار إلى هذا المعنى « ديستوفسكي » حين قال : اليهودي وحده وماله هما سيد العالم . فاليهودي وماله يسيطران على كل شيء في أوربا : على التعليم ، وعلى الحضارة ، وعلى الاشتراكية .

٢١

تجمع المصادر على أن الفكر الصهيوني التلمودي فكر مراوغ . يحاول أن يضع أكاذيبه وأضاليله داخل مناهج علمية براقة ، تخدع البسطاء . ولكنها تتكشف عن زيف كبير حين توضع تحت أضواء الحق ومصادره من القرآن ورسالات السماء .

وخير دليل ونموذج على هذا الاتجاه : مذكرات هرتزل وايزمان . فهي مليئة بأساليب الخداع ، والمغالطة ، والمطامع .

---

١ – الاسلام على مفترق الطرق .

المخطّطاتُ التّلمُودِيّة

تقوم مخططات أيدلوجية التلمود التي تقوم الماسونية بواجهة أساسية في تنفيذها على أهداف واضحة هي :

أولاً : محاربة الأديان بصورة عامة ، وبث روح الإلحاد والاباحة بين الشعوب . تقول المصطلحات : يجب ألا تقتصر الماسونية على شعب دون غيره . ولتحقيق الماسونية العالمية : يجب سحق عدونا الأزلي . الذي هو : الدين : بإزالة رجاله ، إن غايتنا قبل كل شيء هي إبادة الأديان جميعاً . وتطرح الماسونية شعاراً خطيراً : هو أنه لا فرق بين دين ودين ، حتى ولو كان في نظرها باطلا . وتستهدف القضاء على عاطفة الجمعية للدين المعتنق ، والقضاء على اعتزاز كل انسان بدينه ، أو التمسك به . كما ترعى الماسونية أدياناً باطلة : كالمجوسية . والبرهمية ، والزرادشتية .

ثانياً : تدمير القوى البشرية ، ومعنويات الأمم . واستذلالها واستعبادها .

ثالثاً : السيطرة على الشباب من أولي الغايات . تقول المصطلحات : دعوا الكهول والشيوخ جانباً ، وتفرغوا للشباب . بل تفرغوا حتى للأطفال . لا بد من تربية الأطفال بعيداً عن الدين . إن الماسونية تستعين بالفرق والأندية الرياضية ، والجمعيات الموسيقية لاستدامة نفوذها على أوساط الشبيبة . إن حرية الآباء : لا تتفق مع مصالحنا وغاياتنا أبداً . يجب تربية الأطفال وفق

منهاج مقرر . إن الجمعيات الرياضية، والفرق الموسيقية وغيرها من المؤسسات التي تربي الناشئة عقلياً وجسمانياً هي المرتع الخصيب لنمو الماسونية فيها . إن غاية الماسونية هي تطعيم أكبر مجموعة من الكتل البشرية بأفكارها . تقول البروتوكلات : لقد خدعنا شبيبة الخوارج ، وأفسدنا آدابها . وجعلناها شبيهة بالبهائم . وأفقدناها نشاطها ، بما علمناها وألقينا في ذهنها من المبادىء والنظريات الكاذبة ويقول ماكس نوردو : ادعوا إلى تنشئة الجيل الصاعد على الكذب والتمويه ، والمخادعة ، وعلى الأنانية ، وحب المنفعة ، والسعي وراءها بكل الطرق .

رابعاً : اشعال الثورات والفتن والاضطرابات . وإنفاق الأموال الطائلة في سبيل الأغراض الهدامة . وقد اعترف كثير من المصادر اليهودية بأن البناء الحر : أي الماسونية كان لها أعظم الشأن في تدبير الانقلابات والثورات . وخاصة ، الثورة الفرنسية . وثورات البرتغال ، وإيطاليا ، وبلاد البلقان .

خامساً : خلق جيل العلمانيين في العالم لمعالجة القضايا على أساس مادي ، وإبعاد الآثار العقائدية ، والروحية ، والدينية عن مخططات السياسة والاجتماع .

سادساً : التركيز على المذاهب والفلسفات ؛ تقول المخططات ان من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الماسونية طوال القرن الماضي : هي المذاهب الحرة التي تعتبر من نتاج الفكر البشري . إن الأفكار المستقلة التي لا تساير الأفكار الماسونية كانت تتعرض للنقد اللاذع ، والعداء المر ، والأراجيف من قبل الماسونية . والمعروف أن هذه الأفكار المستقلة هي : كل فكر يتصل بالوحي والقيم العليا . التي جاءت بها الأديان .

سابعاً : الاختفاء وراء المسرح السياسي : يقول بنيامن اسرائيل السياسي الانجليزي عام ١٨٤٤ . إن الذين يديرون دفة السياسة في العالم ليسوا هم الذين في دست الحكم ظاهراً . وإنما هم أولئك الذين يكمنون وراء الكواليس —

وقال نابليون الثالث ملك فرنسا عام ١٨٥٩ : يجب ألا نخدع أنفسنا. إن الدنيا تدار من قبل المنظمات السرية . وقال والترتينا الوزير الألماني اليهودي : إن ثلاثمائة رجل من رجال السياسة المتعارفين فيما بينهم ، يديرون الأمور في أوربا ، والآن في العالم كله .

ثامناً : بث الدعاية الخبيثة للمبادىء القاتلة للدين والأخلاق باسم المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية بحيث تسود هذه المبادىء على روح الأديان، والدعوة إلى الأدب الشخصي الخالي من الإيمان بالبعث . يقول (الن) إن الكتاب الذين يجري في عروقهم دم يهودي . كانوا في طليعة الداعين إلى المذاهب المنافية للدين والأدب والمجتمع . تقول البروتوكلات : انظروا إلى نجاح مذهب داروين ، وماركس ، وجميع المذاهب . هي من صنع دسائسنا . فإنكم لاتجهلون تأثير سموم هذه التعاليم في عقول الخوارج .

تاسعاً : التركيز على المرأة ، والدعوة إلى تحريرها ونزعها من الدين والأسرة ، واجتذابها إلى المراقص والمحافل . تقول المخططات : لسنا بمسيطرين على الخرافات —ويقصدون الأديان— إلا يوم تشاركنا المرأة العمل.المرأة رسول لمبادئنا الحرة تخلصها من نفوذ الكهنوت . إن خطتنا هي دفع الأبناء إلى نبذ السلطة الوالدية (دريدو) وإلقاء الكراهية بين الأولاد ووالديهم (دالمير) (١) . إن الاعتراف بالجميل ليس واجباً لازماً على البنين لوالديهم . وليست السلطة الأبوية تدوم . والنساء من أقوى العوامل للفوز بنسف الدين ، ونشر الفساد .

وتقول المخططات إن العفة المطلقة مرذولة عند الماسونية ، لأنها ضد ميل الطبيعة . ويقول الدكتور أحمد أبو شادي في كتابه عن الماسونية : المرأة لا تستطيع الحياة الكريمة إلا إذا حاربت رجل الدين .

عاشراً : تدمير الأسرة : والدعوة إلى الزواج المدني العقيم ، لاستنزاف

---

١ — الاسكوليديا .

قوة الإله . والدعوة إلى الاباحة المطلقة ، وإشاعة الأغلاط في الفرد والمجتمع والأمة ، تقول المخططات : إن الهجوم على رب العائلة هو الأمر الجوهري في استمالة الناس إلى جماعتنا . من الضروري إفراد الرجل عن عائلته وإفساد أخلاقه وترغيبه في المعيشة الحرة . إن الخلاعة باب واسع لسن الزواج المدني ، إن الزنا ليس بمحظور إذا تسامح الرجل بامرأته لغيره — يقول دالمار : إن الماسونية بنشرها أسباب الفساد ، والخلاعة ، قد أضرت بفرنسا أكثر من الحرب السبعينية . وأخسرتها عدداً وافراً من الرجال .

حادي عشر : مهاجمة الدعوات الوطنية والنضال من أجل تحرير الأوطان ، ومهاجمة نظام الجندية . تقول المخططات : الوطن خيال باطل . وكذب محض . إن الوطن هو كل يغتصبنا . أما الرايات الوطنية فهي آية الظلم والاستبداد . فيجب أن تلقى في المزابل .

ثاني عشر : الدعوة إلى التعليم العلماني اللاديني ، الذي يفسد قلوب الشباب ، ويفرض مقومات الرذيلة . تقول المخططات : إن الدعوة إلى أن تكون المدارس علمانية إلزامية . هو إخراج للأبناء من رعاية الآباء . إن تهذيب الأحداث ، هو حجر الزاوية في بنائنا الحر . ينبغي أن ننفي التعليم المسيحي . التعليم لا يهتم بالديانة ، ونفي كل تعليم ديني . المدارس الجديدة تعمل على نشر الفساد والخلاعة واقتلاع العفة من عقول الفتيات .

ثالث عشر : توفير أسباب الفساد : عن طريق الثقافة ، والصحافة ، وذلك بنشر الروايات المباحة ، والصور الخليعة ، والأغاني البذيئة ، ونشر الخرافات .

رابع عشر : جحود الخالق الأعظم . وإطلاق اسم له من غير أسمائه الحسنى التي اختارها سبحانه لنفسه . فجعلوه بمنزل مهندس الكون . كأنه لم يخلق الكائنات من العدم . وإنما هو مهندسها فقط ،ومنظمها . وزادوا على ذلك الاسم ابهاماً بقولهم (المهندس الأعظم) كأن الله (جل وعلا عما يقولون علواً

---

١ – نشرة الماسونية عام ١٨٦٦ م . ١٣ ص ٧٥٨ مجلة الشرق .

كبيراً) قد استعان في هندسته هذه بغيره من المهندسين . فكان هو الأعظم بينهم .

الرابع عشر : إحيـاء النحل والوثنيات القديمة . يقول رينان وهو أحد كبار دعاة الماسونية : ليس في العالم عبادة موافقة للعقل السليم ، ولمبادىء العالم كعبادة الشمس . فهي إله كرتنا الأرضية . ويقول أحد فلاسفة الماسونية : إن (أدونيرام) في مذهب الماسونية هو أوزيريس إله المصريين . أو ميترا إله الفرس ، أو باخوس إله الرومان ، أو أحد الآلهة المتعددين الذين كانوا في سالف الزمان . ويقول فرنندمور : كل اعتقاد ديني أساسه ما وراء الطبيعة –كالإله غير المنظور– فهو ضعف في عقل الانسان . ويقول فلاسفة الماسونية : علينا أن نرقى فوق طبقات كل الأديان . نتحرر أيضاً من كل اعتقاد بوجود إله أيا كان . ويقول آخر : لم يوجد أحد يؤمن بالله ، وبخلود النفس غير البله والحمقى . ومن هنا كانت محاولة الماسونية الخطيرة التي نفذتها في التعليم الغربي . وهي نفي اسم الله من كتب التعاليم في المدارس المتوسطة (١) .

الخامس عشر : القول بأن المادة انما ترقى من تلقاء نفسها بكرور الدهور . إلى أن يتمخض جمادها . فيلد النبات ، ويتحول النبات إلى حيوان ، وينسل الحيوان إنساناً همجياً ذا عقل ضعيف . والهدف من هذا . هو إقناع أتباعهم بأنه لا شيء يلزمهم من الفرائض والواجبات ، نحو العمران البشري ، وأنه ليست هناك شرائع وتعاليم مفروضة على جميع البشر (٢) .

السادس عشر : اعلان حرية العقل ضد السلطة الدينية ، واستقلال الإنسان ضد استبداد رجال الدين . واستقلال المدارس الحرة المجردة من تعاليم الدين . ويعلنون أن العلم هو الأساس الوحيد لكل معتقد . فهم يرفضون كل عقيدة بنيت على أساس الوحي(٣) ويرون أن من حرية البحث انتقاد عقائد الدين.

---

١ – مجلة الشرق م ١٢ – ٢ – لويس سنحو اليسوعي . م ١٣ المشرق ص ٦٧٨ ، ص ٥٤٣ .

٣ – السر المصون في شيعة الفرمسون .

السابع عشر : تأليه المال أو عبادته ، واستعمال كل الوسائل في سبيل الحصول عليه كالرشوة ، والكذب ، والعنف ، والانتهازية .

الثامن عشر : احتقار كل الشعوب ، وكل الأديان . ووصف الشعوب بالأمية . (يقول التلمود إن الاميين . هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعبه المختار .)

التاسع عشر : إشاعة الأدب المكشوف الاباحي يقول « البروتوكول ١٣ » سننشر بين الشعوب أدباً مريضاً قذراً تغثى له النفوس ، ويساعد على هدم الأسرة ، وتدمير المقومات الأخلاقية للمجتمعات المعادية لنا ، وسنستمر في الترويج لهذا الأدب وتشجيعه . من هذا الأدب المريض القذر تنطلق الدعوة إلى الإباحة المطلقة لهدم الأسرة ، وتدمير الأخلاق في المجتمع .

العشرون : تحطيم المعتقدات الإسلامية والمسيحية ، وسحق القيم الروحية والمعنوية ، وإثارة الشكوك حول المعتقدات ، وطرح فلسفات الشك .

الحادي والعشرون : الدعوة إلى العالمية . وتذويب القوميات والعصبيات الدينية والعنصرية والوطنية . ومن هنا كان تركيزهم على نبذ التعصب القومي والديني ، واعتبار الإنسان مواطناً في العالم كله . وخلق أسباب الصراع بين الدين والقومية ، وإيجاد التناقضات بين الاسلام والعروبة ، وطرح فلسفة الأجناس والعناصر والدماء والأقليات .

الثاني والعشرون : تمجيد الغريزة ، وإعادة نمط الوثنية الاغريقية . والدعوة إلى اطلاق عنان الشهوات البشرية ، والترخيص للرجل والمرأة . أن يفعلا ما يشاءان من التهتك الجنسي ، وعشق الذكور . وتكشف هذه الصفحة موضع كتابات فرويد ، وقصة توماس مان « الموت في البندقية » . تقول البروتوكولات : للتوصل إلى حكم العالم يجب أن نقوم بتكثير النقائص ، والشهوات ، ونشوه الشرائع المصطلح عليها . بحيث يضيع الجميع ويتبلبلون بهذا الخواء .

الثالث والعشرون : السيطرة على الصحافة ، والمسرح ، والعلم ، تقول البروتوكولات : الصحافة والمسرح . والمضاربة . والشريعة . كل ذلك يجب أن يكون تحت تصرف من في قبضتهم كل ذهب الأرض ، وهي أقوى سلاح لإثارة الرأي العام ، وإفساد أخلاق الشبيبة ، ولتهييج عمومي إلى الرذيلة للاشاة كل ميل إلى التهذيب المسيحي ، لتشييد عبادة المال والمادة والشهوة الكلية للملاذ — يقول البروتوكول : يجب أن تكون الصحافة تافهة كاذبة بعيدة عن الحق ، إنها تعمل للتحريض ، وإثارة المشاعر التي نحن في حاجة إليها من أجل أهدافنا .

الرابع والعشرون : خلق دائرة مغلقة متكاملة من مناهج التفكير والعمل والحياة ، يحول بين البشر ، وبين التخطيط لأنفسهم — تقول المخططات : لقد فقد الخوارج عادة التفكير خارجاً عن آرائنا العلمية. ويقول: وجب علينا أن نقوض أركان كل إيمان . . وننزع من عقل الخوارج الاعتقاد بالله وبالنفس وذلك بشغلهم بقوانين رياضية وضروريات مادية .

الخامس والعشرون : نشر الرذائل والخمر . تقول البروتوكولات : يفقد الخوارج رشدهم بتناولهم المشروبات الكحولية وتسير شبيبتهم إلى الجنون بفرط ما تلقفته من المبادىء المدوسية . وبانهماكها بالرذائل التي تتسرب إليها من عمالنا وموظفينا كالمعلمين والخدم والحاضنات . وبنوع أخص من نسائنا اللواتي يترددن إلى محلات الملاهي عند الخوارج وانني أعني بهؤلاء الأخيرات بنات الهوى اللواتي يتزاحمن على الرذيلة والدعارة .

السادس والعشرون : الغض من قدرة العلماء والمتخصصين في العقائد والأديان — يقول البروتوكول ١٧ : وقد عنينا عناية كبيرة بالحط من كرامة رجال الدين عند الأميين في أعين الناس . وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي يمكن أن تكون عقبة كؤودا في طريقنا. وان نفوذ رجال الدين ليتضاءل يوماً فيوماً .

السابع والعشرون : الدعوة إلى الإلحاد عن طريق حرية العقيدة — يقول

البروتوكول : لقد خدعنا الجيل الناشىء . وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادىء ونظريات . يجب أن نحطم كل ايمــان . وتكون النتيجة المألوفة لهذا هي اثمار ملحدين . يجب أن نكتسح كل الأديان والعقائد الأخرى . ويقول : إن لفظ الحرية يجعل المجتمع في صراع مع جميع القوى بل مع قوة الطبيعة ، وقوة الله نفسها .

الثامن والعشرون : الدعوة إلى الانحلال — تقول البروتوكولات : علينا أن نشجع الانحلال في المجتمعات غير اليهودية . فيعم الفساد والكفر ، وتضعف الروابط المنيعة التي تعتبر أهم مقومات الشعوب . فيسهل علينا السيطرة عليها ، وتوجيهها كما نريد .

الفصل الثالث

دعوة العنصرية

كانت الدعوة إلى العنصرية على النحو الذي استطارت به في التاريخ الحديث من أبرز الأعمال التي قصد بها إلى تحطيم الوحدة الفكرية التي تقيمها العقائد والأديان ، والعوامل النفسية والروحية التي تجمع بين بني البشر ، ولذلك فقد بدت منذ اليوم الأول لها في صورة استعلاء الدم والعرق ومن ورائه استعلاء الجنس الأبيض على الأجناس الملونة . ثم جرت من خلال ذلك الدعوة إلى إثارة الأساطير التي تحاول أن تفرض تميزاً خاصاً للإسرائيليين ، وتفوقاً خاصاً يحاول أن يشكل دعوة إلى السيطرة العالمية على النحو الذي تكشف عنه بروتوكولات صهيون من عداء للجوييم أو الأميين الذين هم في نظر اليهود (العالم كله) .

ولقد كانت مخططات التلمود من وراء دعوة العنصرية في مختلف صورها . وقد أحرز اليهود كل ما كسبته هذه الدعوة من آثار ونتائج. ففضلا عن أن هذه الدعوة قد أيقظت العنصرية الصهيونية التي تحاول أن تستعلي بامتياز خاص على البشرية كلها . فإنها قد أقامت صراعاً لما ينتهي بعد بين الأجناس السامية . والآرية — وبين أجناس أوربا ذاتها . وخلقت قضية كبرى كتب فيها الباحثون عشرات الألوف من الصفحات ، ومئات من الكتب دون أن يصلوا إلى شيء

نهائي. وكانت هذه الدعوة قد بلغت ذروتها فترة ما بين الحربين. حين اعتنقت الدول الجرمانية عقيدة الاستعلاء العنصري ، ونشأت عنها الفلسفة النازية .

ولقد انسلخت من الدعوة العنصرية مذاهب عديدة . منها الدعوة القومية . والنزعة الاقليمية ، والفكرة اللاسامية . وظهرت علوم متخصصة في مقدمتها علم الأجناس البشرية « الأنتروبولوجيا » أو الاثنولوجيا الجديدة . وهو علم تولى السيطرة عليه موجهون يستهدفون منه إبقاء نيران الخصومات والأحقاد بين الأمم وإيقاعها في الحروب والصراع . وقد استغل الاستعمار نتائج هذه الدراسات في دعم مركزه ، وتبرير وجوده في المناطق المحتلة . وفي ضوء هذه الدراسات تكشفت مخططات التفرقة العنصرية ، والتمييز العنصري الذي تحمل لواءه الدول المستعمرة في محاولة التشكيك في وحدة الجنس البشري ، وتعميق التمييز بين الأجناس ، وإقامته على أساس فوارق طبيعية تعطي بعض الأجناس مكان السيادة والسيطرة ، وتعطي أجناساً أخرى مكان التبعية . ولا ريب أن نظرية التفوق العنصري باطلة أصلاً ، وأن جميع الأبحاث والدراسات التي قام بها العلماء المنصفون ، قد زيفت مثل هذه الدعوى وأبطلتها ، وأبانت بأن فوارق الهياكل ، ولون البشرة . وفصائل الدم لا قيمة لها في تركيب الإنسان عقلياً ونفسياً . ومن المعروف أن الاستعمار لم يحقق ما ادعاه من رسالة في ترقية الشعوب، وتمدينها، بل على العكس من ذلك عمد إلى تدمير مقدرات هذه الشعوب ، وأثار فيها البلبلة بطرحه عشرات من النظريات والدعوات المدمرة .

٢

ولا ريب أن فكرة التفوق العنصري التي رفعت لواءها الحضارة الغربية في العصر الحديث ، هي فكرة قديمة ظهرت قبل الاسلام ، وحملت لواءها الحضارة اليونانية الرومانية . ثم جاء الإسلام لدحضها ومعارضتها . فقد كانت نظرية التفوق العنصري والسيادة هي أبرز مميزات الحضارة اليونانية

الرومانية . إذ قام المجتمع الاغريقي ، ثم المجتمع الروماني على نظام طبقي : قوامه طبقة الأحرار وهم السادة . وطبقة العبيد الذين يعملون ويكدحون . وقد كانوا ينظرون إلى كل الأجناس المخالفة على أنهم من البرابرة ، ونفس النظرة كانت في مجتمع مصر القديمة ، ومجتمع الفرس . وهي المجتمعات الكبرى الثلاثة التي سبقت الاسلام . ولقد ذكر هيردوت أن الفرس كانوا يرون أنفسهم أسمى مرتبة من بقية البشر . ولقد برر فلاسفة الإغريق هذا النظام العبودي . وأقره أكبر فلاسفتهم : أرسطو وأفلاطون .

أما أرسطو (١) . فقد برر طموح الإغريق لسيادة العالم . فنادى بنظرية أكد فيها أن جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة . وأخرى تولد لكي تكون عبيداً.

أما أفلاطون فقد أقام جمهوريته على أساس سيادة السادة ، وعبودية العبيد . ولقد كشفت الأبحاث العلمية ، والدراسات التاريخية . أن واحداً من أبرز عوامل سقوط الامبراطورية الرومانية . إنما يرجع أساساً إلى هذه النزعة العنصرية . فقد بلغ تعداد العبيد أو الرقيق في الامبراطورية الرومانية نحواً من خمسين مليوناً .

ويقول الدكتور ابراهيم علي طرخان : ان الامبراطورية الرومانية عرفت بدولة العبيد الأذلاء بصرف النظر عن الأرقام ، ولا سيما أن من المؤرخين من قدر عدد الأحرار من المواطنين بنحو عشرة آلاف ، أو عشرين ألف مواطن ، وسرى في عرف الرومان . أن المواطن الحر العادي . هو الذي يمتلك بين خمسة وعشرة آلاف عبد. ويقال ان أحد المحررين — أي كان عبداً ثم اعتق — مات زمن الامبراطور اغسطس عن ٤١١٦ عبد ، لذا فان الروماني الذي لم تزد ملكيته للعبيد عن ٢٠٠ عبد كان يعتبر دون المألوف .

ولقد كان لهذا النظام العبودي أثره البالغ في القضاء على الطبقة الوسطى

---

١ — كتاب عن الأجناس . تأليف جون توماس عن ملخص له في مجلة الثقافة .

عماد كل تقدم وتطور . كذلك كان له أثره في إضعاف الدفاع عن الامبراطورية الرومانية خلال الأزمات الكثيرة التي تعرضت لها .

مثال ذلك أنه عندما جاء الاريك القوطي . وهدد إيطاليا في مطلع القرن الخامس الميلادي هرب الرقيق من استبداد سادتهم ، وأقبلوا جماعات على معسكر الأريك . إذ كانوا يتطلعون إلى منقذ من الخارج . وتجمع لدى الأريك نحو ٤٠ ألف عبد خلال فترة قليلة ، وقد أدوا له أعظم الخدمات في تعريفه بالطرق والمسالك ، وإرشاده إلى مواطن الغنيمة ولا سيما في غزوته الأخيرة ، واقتحامه مدينة روما عام ٤١٠ م .

ويقول الدكتور طرخان : أما الطبقة الوسطى . وهي عماد الإدارة ومجالس الولايات . بل عصب الحياة في الامبراطورية الرومانية . فقد كان إضعافها وتدميرها من بين الأسباب الكبرى في سقوط الامبراطورية — ويبدو أثر هذه التجربة التي مرت بها الامبراطورية الرومانية من العبودية والتي مرت بها امبراطوريات الفرس ، والفراعنة ، واضحة وضوحاً قوياً في منهج القرآن ، ودعوة الإسلام إلى محاربة النظام العبودي . ووضع النظام الأمثل للتعايش الكريم بين الأجناس فقد دعا الإسلام إلى القضاء على مفهوم التفرقة العنصرية كلية . وأقام نظاماً لتصفية الرق ، كما دعا إلى الوحدة البشرية بين مختلف الأجناس . وكشف بوضوح عن أن بني الانسان جميعاً من أصل واحد — وأن الفوارق بينهم لا تتصل باللون ، أو العنصر ، أو الوطن ، وإنما تتمثل في التفاضل .

وقد طرح مفهوم الإسلام أمام البشرية اتجاهاً جديداً قضى على مجتمعات العبودية . وفتح الطريق أمام الأخوة الإنسانية ، ورسم أروع صورة لمفاهيمه في مجال التطبيق — غير أن نزعات الأيدلوجية التلمودية القائمة أساساً على العنصرية . والتي حملت لواء الدعوة إلى جنس مميز ، وشعب مختار . لم تلبث أن عاودت دعوتها من جديد بأسلوب جديد . فنفثت في الحضارة الغربية . والفكر الغربي هذه المذاهب من أجل تحقيق غايات بعيدة المدى أهمها :

١ — تركيز النفوذ الاستعماري في العالم ، وهو نظام يقوم على الأسس

الربوية والرأسمالية . وسيادة القروض والمغامرات الاقتصادية .

٢ – إثارة الصراع بين الأجناس، بين آرية وسامية، وبين الألوان. وإيقاع التضارب بينها .

٣ – اعلاء الدعوة العنصرية التي تقوم عليها الصهيونية . وتحاول أن تفرض نفسها بالاستيطان في فلسطين .

ولهذا فقد كانت المخططات التلمودية من وراء هذه المعركة الضخمة التي سيطرت على أوربا ثم انتقلت منها إلى العالم كله تحت أسماء متعددة ؛ منها العنصرية والأجناس والقوميات والأقليات والاقليمية وغيرها .

٣

لا ريب أن الأديان السماوية المنزلة قد طرحت مفهوماً أساسياً لوحدة البشرية وللإخاء الإنساني . وهو من الأصول التي حملتها رسالة موسى عليه السلام إلى بني اسرائيل .

غير أن اليهود لم يلبثوا أن غيروا المنهج الأصيل الذي جاءت به التوراة . وتبنوا فكرة الاستعلاء العنصري المتميز باسم الشعب المختار ، وغيروا من أجل إقرار هذه الفكرة أبرز مفاهيم الدين المنزل . فأقاموا عنصرية خاصة لها طابع الاستقلال والتمييز عن المجتمعات العامة . وقد حملت هذه العنصرية فكرة الامتياز والاستعلاء لجنسهم . كما حملت فكرة الاحتقار والانتقاص لبني البشر جميعاً حتى أنهم أطلقوا عليهم اسم « الجوييم » أو الأميين – ثم جاءت تعاليم السيد المسيح . ومن أبرز مفاهيمها تحطيم العنصرية ، والعودة إلى المفهوم الرباني الأصيل القائم على وحدة البشرية ووحدة الدين .

وقد جاءت عنصرية الحضارة اليونانية والرومانية تتجه لمفاهيم التلمود . التي فرضت نفسها على المجتمعات بإقامة عنصرية طاغية . غير أن أوربا

بعد المسيحية لم تلبث أن اعتنقت الدعوة العنصرية ، وذهبت في ذلك إلى أبعد مدى .

ويشير توماس في كتابه عن الأجناس إلى هذه الظاهرة التي تبدو واضحة في العهد القديم فيقول : « في العهد القديم نجد اعتقاداً بأن الاختلافات الجسمانية والعقلية بين الأفراد وبين المجموعات على السواء . هي اختلافات ترجع إلى المولد . وأنها اختلافات موروثة لا تتغير . ويشتمل سفر التكوين على عبارات تفترض وجود هذه الاختلافات . وانحطاط جماعات معينة بالنسبة لغيرها . مثال ذلك « ملعون كنعان : عبد العبيد يكون لإخوته » هذا إلى جانب أن نوعاً من التفوق . قد تضمنه التأكيد بأن يهوه . قد عقد عقداً مع ابراهيم ونسله » .

ومن هنا نفهم أن نظرية التفوق المنسوب إلى الجنس أو العنصر هي واحدة من النظريات التي ركزت عليها الأيدلوجية التلمودية ، ودفعتها المطامح الاستعمارية ، لتواجه النظرية الأصيلة — نظرية وحدة الجنس البشري — ولقد كانت نظرية السلالات البيضاء وتفوقها التي وقع باسمها الاستعمار على السلالات الملونة محاولة خداعة لتبرير حقوق جديدة في الغزو والسيطرة والسيادة يخصون بها الجنس الأبيض .

ومن هذا أن الحضارة الغربية المرتبطة بالاستعمار . قد اتخذت نفس الأسلوب الذي سبقت به الحضارة اليونانية الرومانية ، واتجه كتابها وساستها إلى تبرير العبودية والرق على أساس نظرية أرسطو . ولا يمنع هذا من القول بأن عدداً من المفكرين قد كشفوا عن فساد هذه النظريات . ودافعوا عن وحدة البشرية ، وتساوي شعوب العالم في الموروثات الطبيعية . غير أن رجال الفكر التلمودي كانوا من وراء معارضة فكرة تساوي الأجناس . ومناهضة وحدة الجنس البشري كلما كشف زيف هذه النظريات . وكذلك . فقد كانوا حريصين على أن يؤججوا هذه الحرب كلما خمدت . ويثيروا هذه الدعوة من جديد . وقد استطاع هؤلاء الباحثون المنصفون من أمثال دي لاس كازاس وجوان

كومتش القول بأنه ليس ثمة أساس علمي على الاطلاق لتصنيف الأجناس تصنيفاً قائماً على أساس الرقي النسبي . وأن التمييز الجنسي وخرافاته وأساطيره ليست إلا وسائل لإيجاد كبش فداء حين تتهدد الأخطار مركز بعض الأفراد . أو تماسك بعض الجماعات (١) وجملة القول ان اليهود والإغريق هما أول دعاة العنصرية — فاليهود يعتبرون أنفسهم شعباً مختاراً . والإغريق كانوا يقولون : روما سادة وما حولها عبيد . وقد جرت الحضارة الغربية على هذه المفاهيم .

٤

استخدمت العنصرية في مجال الاستعمار استعمالاً خطيراً . فقد حيل بها بين العرب والمسلمين أولا باسم الأجناس ، ثم بين العرب وبعضهم باسم الاقليمية والوطنية .

ولا ريب أن هذه الهزة التي أحدثتها موجة السلالات والدماء قد أشاعت الاضطراب في العلاقة بين العروبة والإسلام — فقد طرحت نظرية العنصرية في العالم الإسلامي من أجل : فك الرابطة وحل العروة — وكان لأساليب التعليم — وللأنظمة السياسية أثرها في إعلاء الاقليمية ، والقومية الضيقة . فقد وضعت الوطنية المجردة ، والإقليمية الضيقة في مواجهة الوحدة ، فكانت عاملا هاماً في تمزيق الحزام الرابط .

وقد برزت في خلال ذلك دعوات عنصرية وإقليمية متعددة . منها الفينيقية في لبنان ، والأشورية والكلدانية في العراق ، والفرعونية في مصر . والبربرية في المغرب ، والزنجية في افريقيا . غير أن الدعوة العنصرية في العالم الاسلامي ، لم تستطع أن تحقق تقدما كبيراً . ذلك لأنها كانت تواجه مفهوم الإسلام في الأخوة الإنسانية ، ووحدة الجنس البشري .

---

١ — خرافات عن الأجناس (جوان كوماس)

ومفهوم العنصرية في مجال العالم الإسلامي . هو العودة التاريخية إلى ما قبل الاسلام ، ونحن نعرف أثر الدعوة العنصرية في تمزيق الدولة العثمانية .

ويقول أرنولد توينبي : ان انطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين تعد ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية في الإسلام . وفي العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية ، ومع أن التاريخ يظهر عموماً أن الشعور بالعنصرية لم يكن قاعدة عامة . بل حالة شاذة في طبيعة العلاقات المتبادلة بين الأجناس البشرية المختلفة ، فإن من سيئات الحالة الحاضرة . أن يكون هذا الشعور بارزاً بشدة لدى الشعوب القوية التي استطاعت أن تقتطع لنفسها، ولو موقتاً على الأقل، حصة الأسد من ميراث الأرض خلال التنافس الذي قام بين الدول الغربية في القرون الأربعة الأخيرة .

إن دعاة التعصب العنصري في تزايد . وإذا قدر لحركتهم هذه أن تطغى ، فإن ذلك سيؤدي إلى وقوع كارثة عامة ، والمعقول أن تكون روح الإسلام هي ملك القوة المدخرة التي تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام .

٥

جاء الاسلام محدداً قاطعاً في أمر البشرية . فأكد وحدة الجنس البشري ، وحرم التفاخر بالنسب . وأكد هذا المعنى رسول الإسلام (محمد صلى الله عليه وسلم) في عبارة قاطعة : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء — كلكم لآدم ، وآدم من تراب . ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . ولقد قامت الأمة الاسلامية ، على نظام بديل لنظام القبيلة ، فقد أعلى رابطة الفكر والعقيدة والوحدة القرآنية الجامعة . وقام المجتمع الإسلامي على عناصر مختلفة . الفارسي ، والرومي ، والحبشي ، والعربي « أمة واحدة من دون الناس » وكشف الرسول عن العروة الوثقى الجامعة ، ليست العربية لأحدكم بأب . أو أم . إنما العربية اللسان . فأيما مسلم تكلم العربية فهو عربي . وقد نفى الإسلام العنصرية نفياً صريحاً ، وأقر كفاية العربي للأعجمي . لم

يدع نسبة علم أو فضل . إلى مصادره في الأنساب ، بل جعلها مرتبطة بوحدة الفكر . ولم يعرف الإسلام ما يتردد الآن من قول ، بأن الفارابي تركي . والغزالي فارسي ، فذلك مما لا يقره مفهوم الإسلام لوحدة الأجناس وللرابطة الإسلامية الجامعة ، التي ألغت فوارق الدماء والعروق ، وتشكلت منذ اليوم الأول على مفاهيم الإسلام نفسه ، ومن خلال أيدلوجيته الصريحة . فالمؤمنون إخوة ، ومن خرج عن الإيمان فهو ليس من أهلك .

وقد تصاهر المسلمون في الأقطار المفتوحة ، واختلطوا بأهلها ، وامتزجوا بهم امتزاجاً كلياً . فتشكلت وحدة تامة .

وقد أكد القرآن وحدة الإنسانية . وأكد أنه لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل ، والإسلام لا يعرف أي تفرقة بين الناس بسبب أجناسهم وألوانهم وأنسابهم . وإذا كان هذا موقف الإسلام من العنصرية ، فما هي النتائج التاريخية لمفهوم الإسلام ؟

يقول الاستاذ عبد الحميد العبادي (١) لا ريب أن تقارب الأجناس الإسلامية وتداخلها بالزواج المختلط . أو التوليد ، واختلاط العناصر العربية بالفارسيات ، والروميات ، والصقليات ، والصينيات ، والهنديات، قد نشأ عنه جيل جديد من المولدين ، يحوي عن طريق الوراثة خصائص الأجناس المختلفة التي ولدته من جسمية وعقلية . وأصبحت الدولة الإسلامية . وكأنها وطن لأمة واحدة ، لا لشعوب مختلفة ، تدين بدين واحد ، وتتكلم لغة واحدة .

ولا ريب أن هذا الاتحاد هو السر في تلك النهضة العلمية التي شملت كل نواحي التفكير الإنساني من فقه وحديث ، ولغة وأدب ، وفلسفة وطب ، ورياضيات وتاريخ وجغرافيا . وهي إحدى النهضات العلمية الكبرى المعدودة في تاريخ الحضارة على الإطلاق . وإنما صارت الحضارة والعلوم الإسلامية

---

١ – الاسلام والمشكلة العنصرية .

إلى هذا المستوى الرفيع بتلك الوحدة التي شملت الشعوب الإسلامية، وإخلاص العناصر غير العربية للدين الاسلامي واللغة العربية ، ولا سيما بالنسبة للعقائد التي كانوا ينتحلونها من قبل من صابئة ومجوسية وهندية وغير ذلك ، كما بهرتهم الثانية بغزارة مادتها ، وروعة أدبها ، وأنها قبل كل شيء ، لغة القرآن الكريم ، والسنة المطهرة . وقد جرهم في النهاية هذا الإعجاب بالدين الإسلامي واللغة العربية إلى الاعجاب بالعرب أنفسهم ، فهم الذين حملوا إليهم هذين المصدرين لأعظم مادة تغذي قلوبهم وأذهانهم ، فتغيرت الحال عما كانت عليه من قبل ، فلم يعد الأمر أمر سياسة عنصرية ضيقة متحزبة للعرب على غير العرب ، ولا كراهية من الموالي لنفوذ العرب السياسي ، بل لقد جر هذا الإعجاب كثيراً من الموالي والأعاجم إلى انتحال النسب العربي تشرفاً به وتعظيماً . بل إن بعض الشعوب غير العربية . أخذت تمد أصولها إلى العرب كما قيل في البربر . إذ نسبوهم إلى قيس عيلان .

٦

ولقد وجدت نظرية العنصرية من يكشف عن زيفها ، ويدفع خطأها ، وينبه إلى أهدافها الهدامة. وإلى من وراءها من قوى وغايات بعيدة المدى. فقد تأكد أنه لا يمكن القول بأنه توجد سلالات بشرية نقية . وثبت أن سكان أوربا متعددو الأصول ، لدرجة أن محاولة تصنيفهم مستحيلة استحالة تامة .

وأكد العلماء أن الحاجز « الوهمي » بين الرجل الأبيض ، والرجل غير الأبيض لا يستند إلى أساس علمي . كما ثبت خطأ دراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق أحجام الرؤوس والجماجم والألوان وفصائل الدم ، وشكل الشعر .

وتبين (١) أن القول بأن اختلاط الأجناس يهدد الإنسانية بالتقهقر

١ – راجع دكتور يسري عبد الرزاق الجوهري . في كتابه السلالات البشرية .

والتدهور – وهي الدعوى التي يدعيها أصحاب الاستعلاء العنصري – لا تستند إلى أقل دليل علمي ، فإن عملية الاختلاط بين الأجناس عملية مستمرة منذ بداية الحياة البشرية على سطح الكرة الأرضية ، وعمليات الهجرة قديمة قدم السلالة البشرية . ولا ريب أن الهجرة تعمل على اختلاط الجماعات اختلاطاً طبيعياً . ذلك أن (١) التزاوج والاختلاط والانتشار عوامل ساهمت في تحطيم العزلة بين الأجناس ، وإيجاد جماعات مولدة . أو جماعات وسطى تحمل صفات سلالتين أو أكثر . وقد أعلن الباحثون المنصفون ، أن فكرة النقاء الجنسي التي تحدث عنها بعض العنصريين الأوربيين في أعقاب الحرب العالمية الثانية أصبح قبولها أمراً صعباً . لأن الاختلاط والزواج لم يمكن من وجود جماعة تحمل دماء نقية غير مختلطة . واتضح أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن أن يرجع إلى لون البشرة كما أكد الباحثون . ان الفروق العقلية والنفسية ، ما هي إلا نتيجة لظروف بيئية ، وقد تأتي نتيجة أن أفراد جماعة من الجماعات ، قد سنحت لها فرصة التعلم عن طريق الاحتكاك الحضاري أو استغلال المواد الطبيعية. وقد تبين أخيراً أن فكرة الأجناس تقوم على أهواء وعواطف دعاة التميز والاستعلاء الفردي . ولقد ذهب دعاة العنصرية مذاهب شتى في محاولة التفريق بين المستوى العقلي للأجناس .

غير أن التجارب التي اجريت على طلبة المدارس بالولايات المتحدة أثبتت أن المستوى العقلي لتلاميذ زنوج الولايات المتحدة ، يفوق مستوى نظائرهم في الولايات الجنوبية . وقد تأكد أن المسألة ليست مسألة جنس ، بل مسألة بيئة وفرص مختلفة ومستوى ثقافي . وقد تأكد خطأ القول بأن الوراثة البيولوجية هي الفاصل الوحيد المهم ، بل هناك الوراثة العقلية ، ولا ريب أن الفاشلين في الحياة هم من العناصر المنحطة في كل شعب وجنس . كما كشفت

---

١ – الدكتور يسري عبد الرزاق الجوهري .

الأبحاث عن أنه ليس هناك ثمة ارتباط بين حضارة معينة ، والتكوين الجنسي لسلالة من السلالات . وأنه ليس هناك ارتباط بين ما يسمى بالسلالة الآرية ، أو الجنس النوردي وبين الحضارات الغربية . كما تأكد كذب الدعوى التي تقول بأن الجرمان هم صانعو الحضارة .

فالحضارات القديمة التي ازدهرت في حوض البحر المتوسط في حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد ، تمت في بلاد تميز سكانها بالاختلاط . لا بالنقاء الجنسي . وذلك بالإضافة إلى أن الشعوب تختلف في تطورها الحضاري باختلاف السلالة والدماء ، وأن الحضارة في الوقت الحاضر ليست قاصرة على المجموعة البيضاء . فقد دخلتها اليابان والصين . وكل هذا يؤكد أمرين :

الأول : أنه ليس هناك صلاحية لجنس ما للقيام بأنواع معينة من الأعمال والحرف .

الثاني : أن جميع الأجناس بل جميع الأفراد في إمكانهم القيام بنفس العمل إذا سنحت لهم فرص متكافئة . في التعليم والمران (١)

هناك دعوى ترددها الصهيونية العالمية عن نقاوة السلالة اليهودية وعزلتها بما يؤدي إلى القول بأن الجنس اليهودي يمثل جنساً متميزاً عن بقية السلالات .

والواقع التاريخي . والدراسات الأنثرولوجية ، تؤكد أن اليهود لم يستقروا في أي مكان على نحو يمكنهم من أن يكونوا أمة . فضلا عن أنهم في القديم تزاوجوا واختلطوا بجيرانهم من الشعوب التي تسكن آسيا الغربية ، مثل الكنعانيين . والعرب ، والحبشيين . وهناك أعداد كبيرة تعيش في مناطق متفرقة من آسيا ، وفي منطقة القوقاز . وسوريا ، والعراق ، واليمن ، وسمرقند ، وبخارى ، وإيران ، وان هذه المجموعات قد اختلطت بغيرها .

يقول العلامة سالمان : إن نقاوة السلالة اليهودية ، ما هي إلا أوهام . فإن أكثر التغيرات والاختلافات بين السلالات توجد بين اليهود .

ويقول فيشبرج : ان مزاعم اليهود وادعاءاتهم عن نقاوة سلالتهم عبث مجرد عن كل أساس . واليهود الذين هاجروا من موطنهم الأصلي . كانوا عبارة عن خليط من السلالات . وتتفاوت درجة الاختلاط حسب تاريخ الهجرة . وفي أوربا اختلط اليهود بالمسيحية اختلاطاً كبيراً . لفت نظر

---

١ — اعتمدنا في هذا الفصل على نصوص من كتابات . جوان كوماس « خرافات عن الأجناس » ، يسري عبد الرزاق « السلالات البشرية » ، محمد السيد بدوي « التطور » .

الكنيسة بشدة ، فصدرت قوانين متعددة ، وعلى فترات متوالية . تحرم على المسيحيين الأرثوذكس التزاوج من اليهود .

وهناك قوانين ثيودوسيس الثاني الصادرة في القرن السادس الميلادي ، وقوانين مجلس أورليان ٥٣٨ ميلادية . والقوانين الكنسية التي أصدرتها سلطات الكنيسة في توليدوا (طليطلة) عام ٥٨٧ وقوانين روما ٧٤٢ ميلادية .

ولا ريب أن توالي صدور هذه القوانين وتعددها . يؤكد كثرة الزواج بين المسيحية واليهود . ولقد عمد اليهود إلى الدخول في الأديان الأخرى . والتستر خلفها ، رغبة في العمل على تدميرها من الداخل وتحقيق غايات أخرى . ويؤكد تصنيف اليهود في العالم أن أكبر نسبة من اليهود في العالم هم يهود بالديانة فقط . وأن هناك يهود من سلالات يهودية مختلطة من عدة عناصر آسيوية . وأوربية . أما بقايا سلالة المهاجرين القدماء ، فهم نسبة قليلة جداً . وأبرز ما تكون جماعات اليهود الآن هي مجموعات الخزر (١) التي اعتنقت اليهودية عام ٧٤٠ ميلادية ، وهي ليست يهودية بالجنس . وإنما دخلت اليهودية على أثر اعتناق ملك الخزر بولان لها ، والأعداد الكبيرة لليهود في بولندا وجنوب روسيا تنتمي إلى سلالة الخزر هذه .

---

١ — راجع مادة خزر . في دوائر المعارف . وما كتبه يسري عبد الرزاق في كتابه السلالات البشرية .

الفصل الثالث

المادّيّة

لم تقتصر النظرية المادية على أن تكون فرضاً من فروض العلم قابلا للخطأ مع توالي البحث وانكشاف حقائق أخرى أمام العلماء في المعامل على النحو الذي حدث من بعد . ولكن النظرية لم تلبث أن نقلت إلى مجال الدراسات الفلسفية والاجتماعية ، على أنها حقيقة ثابتة . وأقيمت على ظنيتها أبنية وقواعد ونظم استهدفت معارضة القيم الأساسية للأمم والمجتمعات، هذه القيم النابعة من جوهر الأديان ، وحقائق الوحي ، والتي تتفق مع الفطرة والعقل . ومن ثم طرح على البشرية منهج معارض كل المعارضة لطبائع الأشياء ، وظواهر الكون ، ولكل الحقائق والمعطيات التي كسبتها الانسانية في بحثها الطويل عن الله ، وعن حقائق الكون ، ونظم الحياة .

كانت الأديان المنزلة قد أمدت الإنسان بحقيقة الكون والوجود ، هذه الحقائق التي لم تكن البشرية لتستطيع أن تصل إليها عن طريق العقل والبحث مهما جاهدت في سبيل ذلك . لأنها تتصل بعوالم الغيب الخفية عن طريق التجربة والحس ، والتي يعجز العقل وحده عن البحث عنها . غير أن الإنسان بطبيعته المتطلعة إلى البحث وراء المادة ، وجرياً وراء مطامعه وأهوائه واعتماداً على العقل ، أراد أن يستكشف هذا الطريق الخطر ، دون أن يحصل

على الأدوات التي تعينه على مشاق البحث، فلم يستطع أن يصل إلى الحقيقة، وقصر به البحث إلى «فرضية» تقول ان هذا الكون مادي، لا صانع له، وأنه وجد صدفة، وأنه قديم بدون بدء. وأنه ممتد بدون نهاية، وأن الموت هو نهاية كل حي — هذا هو النتاج الذي أمكن أن يصل إليه العقل البشري في رحلته للكشف عن الحقيقة، حين رفض العون من معطيات الأديان والوحي ورسالات السماء. ومن هنا جاءت النتائج معارضة تمام المعارضة للحقائق الكلية، منكرة لوجود الخالق، وقاصرة عن فهم حقيقة الحياة، وغاية الوجود، ومهمة الإنسان في هذا الكون — ولقد أمضى الإنسان من عمر البشرية ردحاً طويلاً في هذا البحث. دون أن يهتدي إلى شيء تقر به نفسه وتستريح له فطرته، وكانت أخطر مراحل البحث تلك التي وقعت قبل رسالة المسيح وبعدها فيما أطلق عليه مفاهيم الهلينية الغربية، والغنوصية الشرقية.

اعتمدت الأولى على العقل وحده — واعتمدت الأخرى على الوجدان وحده، وتلاقتا على نتائج مضطربة غاية الاضطراب بين شك، وثنائية، وتثليث على النحو الذي سجله تاريخ الفلسفة القديمة. ولا ريب أن هذا هو جوهر الخلاف بين الناس وبين الأديان التي أنزلت لتقدم للبشرية مقدمة من الحقائق ما تعجز عن الوصول إليه بقدراتها الخاصة، وكاشفة عن وظائف المعطيات التي أعطيت للإنسان من قلب، وسمع، وبصر، وموجهة عملها.

ولما كانت قضية الخلق، والكون مما تعجز هذه القوى المحدودة القدرة ذات الوظيفة الخاصة عن كشفها. فان الوحي ممثلا في الكتب المنزلة على الرسل والأنبياء، قد تكفل بإظهار هذه الحقائق وتقديمها للإنسان حتى لا يشغل بها قواه المحدودة عن وظيفتها الحقيقية، وهي الكشف عن كنوز الأرض، والبحار، والجبال، في سبيل دفع الحياة إلى طريقها من العمران، وترقيتها وتقدمها، وبناء الحضارة على المنهج الأصيل، الجامع بين العلم والايمان.

ولقد برز مذهب المادية في العصر الهليني [١]. ووجد من يدعو إليه،

---

١ — يعزى نشوء أول مذهب فلسفي مادي إلى ديمقريطس — ٣٧٠ قبل الميلاد.

ويدافع عنه . وقد كان العصر الهليني سابقاً لرسالة السيد المسيح ، وقد ظهر في بيئة لم تكن ديانتها إلا مجموعة من الأساطير والشعائر والطقوس .

يقول إميل بوترو في كتابه العلم والدين : نشأت الفلسفة اليونانية نفسها من الدين ، ولكنها ما ان استقلت عنه — حتى راحت تحاربه ، وتسخر منه . وتذهب إلى أن البشر هم الذين خلقوا الآلهة ، وكان الدين عندهم يؤمن بالضرورة العمياء ، فجاءت الفلسفة فآمنت بالعقل البشري ، وحل العقل محل الآلهة . وقد ذهب اليونان في الإعلاء من شأن العقل حداً بالغ الخطر والأثر ، حتى قالوا بسلطان العقل ، وتقديس العقل . وفي مجال هذا الاتجاه ظهرت مذاهب الإباحة ، ومفاهيم الحس ، وانكار البعث بعد الموت والدينونة . واندفعوا وراء الترف والشهوات والرذيلة . وقالوا إن العالم كله من عمل الصدفة ، وان اللذة هي الغاية من الحياة . وقال عميدهم سقراط : إن العقل هو سبيل المعرفة . وليس الحس ، ومن أخطائهم قولهم بأن المادة أزلية ، وأن الكون غير متناه .

ولقد جاء الإسلام فكشف عن وجه الحق في هذه القضية ، وحدد القرآن مسائل ما بعد الطبيعة تحديداً خاصاً ، وأغنى المسلم عن البحث فيها . ودعاه إلى التفكر في خلق الله من الكون ، واقامه دون البحث في ذات الله ، التي ليس من اليسير الوصول إلى حقيقتها ، وهو ما أسماه العلماء « البحث في الخصائص دون البحث عن الماهية » . وقد أمد الإسلام المسلمين بصورة كاملة عن عالم الغيب كله ، وعن الله سبحانه وتعالى ، واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، ويوم القيامة والحساب والجزاء . وحدد هذه المعالم تحديداً كاملا . وقرر في نفس الوقت قصور العقل الإنساني عن التوصل إلى شيء في هذا المجال ، ونهى أشد النهي عن تجاوز هذه المعالم .

ولقد استطاع المسلمون ، وقد أتاح لهم الإسلام بهذه العقيدة فرصة العمل في المجال العملي ، أن ينشئوا المنهج العلمي التجريبي ، وأن يجعلوه نبراساً للمنطلق

الذي سنه الله لهم من العمل على الانشاء والعمران والتقدم ، وليس هناك اليوم ريب في هذه الحقيقة . حقيقة ما قدمه المسلمون إلى العلم والحضارة فقد شهد لهم كثير من غيرهم ، في مقدمتهم العلامة بريفولت في كتابه « بناء الإنسانية » فضلا عما أورده جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » وما أوردته الدكتورة سجريه هونكه في كتابها « شمس الله تشرق على الغرب » .

٢

وفي العصر الحديث . انتقلت حركة العلم والحضارة إلى الغرب نتيجة للاصول التي أقامها المسلمون غير أن الاتجاه لم يلبث أن انحرف عن غايته ، فلم تلبث أن استغلت مرة أخرى النزعة العقلية واستفاقت مرة أخرى النظرية المادية ، ولكنها كانت هذه المرة أشد بأساً ، وأبعد أثراً في الفكر البشري كله . ذلك أن انتقال معطيات العلم والمنهج التجريبي إلى الغرب (وهو المنهج الذي صاغته مفاهيم الحضارة الاسلامية مدفوعة بدعوة القرآن نفسه إلى النظر في السموات والأرض فهو ثمرة الدين .)

هذا الانتقال واجه بيئة مختلفة في الغرب ، لم تكن لتتقبله في يسر ، أو تمضي لتنميته في هوادة . ومن هنا نشأ ذلك النزاع التاريخي المعروف بين العلم والدين ، واستمر طويلا . وكانت غلبة العلم مؤذنة باعلان الخصومة للدين والقطيعة له ، ومواجهته بفلسفات وأيدلوجيات لتحل محله . وتزيحه عن مكانه في النفوس والعقول . لقد قصرت مفاهيم الدين في الغرب عن معطيات العلم فأحدث هذا التقصير تلك الشقة التي دعت أمثال ديكارت إلى القول ان ميدانالعلم غير ميدان الدين . وانه لا مطابقة بين العلم والدين ، ولا سلطان لأحد منهم على الآخر .

غير أن العلم لم يقف عند هذا الحد . فقد أخذ يتقدم تقدماً كبيراً . وحقق من النتائج ما جعله يتنكر تنكراً تاماً لكل ما سوى العقل والمحسوس والمشاهد . وبذلك أنكر العلم عالم الغيب والروح إنكاراً تاماً ، وحاربه حرباً

عنيفة . ومن ثم استعلت نظرية المادية استعلاء شديداً وكان هذا الاستعلاء نتيجة أمرين :

أولا : نتيجة توقف رجال العلم عند ظواهر الأشياء .

ثانياً : تحول نظرية دارون من مجال النظريات الطبيعية إلى مجال الفلسفة الاجتماعية . فقد كان العلم في أذهان واضعيه الأوائل ، يراد به تفسير الوجود . وكان العلماء في أول عهدهم بالعلم يهتمون بمعرفة : لماذا . ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام . بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها ، ومن هنا لم يعد العلم يفسر الاشياء ويعللها ، وإنما هو يربط وينسق ويلاحظ ويصف ويقرر .

ثم لم يلبث العلم أن اكتشف خطأ نظرته المادية التي جاءت نتيجة تصوره عن اكتناه المجهول ومعرفة ما وراء الطبيعة . وسقط أكبر حجر في بناء المادية عندما اكتشفت نظرية النسبية التي قالت ان المادة تتحول إلى طاقة ، والطاقة تتحول إلى مادة .

يقول العلامة : نجايمس تجينر في كتابه العالم من حولنا : كان حجر الزاوية في بناء علم الطبيعيات في القرن التاسع عشر . هو بقاء المادة . وخلودها من جهة ، وبقاء الطاقة من جهة أخرى . وقد بطل هذا الرأي بطلاناً تاماً ، وأقيم مقامه ناموس آخر . هو بقاء ذاتية واحدة ، هي المادة والطاقة ، بطل أن يكون كل من المادة والطاقة على حدة خالدة البقاء ، أو متغيرة . بل هما متغيران معاً من حال إلى حال ، لأنهما شيء واحد ، المادة تصير شكلا من أشكال الطاقة . وبذلك تكون النظرية المادية من وجهة نظر العلم . قد سقطت ، فقد تبين أن هناك قوة أخرى مجهولة وراء المادة ، لها أثرها الواضح . وبذلك أصبح عالم الغيب داخلا في نطاق العلم . غير أن ما وصل إليه العلم في مجال التجريب كان شيئاً مختلفاً عما سعت إليه الفلسفة المادية ، وقطعت إليه مراحل كثيرة .

ذلك ان هربرت سبنسر ،وعدداً من الفلاسفة اتخذوا من نظرية دارون وسيلة إلى إعلاء شأن المادية ،وقطع الصلة مع كل ما يسمى : الروح ،الغيب ،ما وراء

المادة ، الوحي ، البصيرة. وكانت كبرى نتائج المادية ، إنكار الخالق والبعث، والنظر إلى الانسان من حيث إنه كائن تنطبق عليه تجارب الحيوان .

وكان هذا الفصل بين المادة والروح في الإنسان والحياة . هو نقطة الضعف ، ومنطلق الخطر ، وقمة الأزمة التي عرفتها الحضارة المعاصرة . وقد غلب منهج المادية على كل أبحاث النفس والأخلاق والاجتماع . وفي هذا المعنى يقول العلامة جود : إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال .

٣

صور العلامة الدكتور كارل في كتابه « تحديد الانسان » هذه الأزمة الخطيرة حين قال : فرقت الحضارة منذ اليوم الأول بين المادة والروح . واعتمدت على المادة حين فرق جاليلو بين خواص الأجسام الأولية . كالأبعاد والوزن ، وهما مما يسهل قياسه، والخواص الثانوية كاللون والرائحة. وهما مما لا يقاس . لقد فرق جاليلو بين الكم والنوع ، وعني بالأول وحده ، ثم حصر أتباع جاليلو همهم في الكم ، وأهملوا النوع . وكان من شأن حماستهم في سبيل الوزن والقياس . أن حولت الانسان إلى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء . هذا التفكير يجب إصلاحه ليتمكن العالم من إنقاذ الحضارة ، لأن في الإنسان شيئا أكبر من الطبيعة والكيمياء ونواميسها . وكانت أخطاء ديكارت : الأشياء المادية ، وبعد كتاباته ، فصلت الأشياء الروحية ، فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا التفريق مما لا يمكن حصْرُهُ . وبدا بناء الجسم وطريقة قيامه بوظائفه المختلفة في نظرهم أشد ثبوتاً من الفكرة والنشوة والحزن والجمال . وهذا الخطأ هو الذي حول الحضارة إلى الطريق التي أفضت إلى انتصار العلم ، وانحطاط الانسان .

ذلك ان تقدم العلم في كل ما له صلة بالغذاء والرياضة ، قد تم على حساب النمو العقلي وهذا هو مصدر الأزمة .

٤

إن أخطر تحول في النظرية المادية هو ذلك المفهوم الذي وجهتها إليه الفلسفة، ونقلتها به من مفهوم العلم إلى مفهوم الاجتماع . وهو الاتجاه الذي قصد به ضرب القيم الروحية والنفسية والدينية ومحاولة بناء نظام اجتماعي كامل على أساس المادة .

وقد حاولت النظرية المادية . السيطرة على كل مفاهيم الفكر والحياة والمجتمع والثقافة في محاولة للقضاء على كل مقررات الأديان . وخلع الإنسان من كل مقررات التوحيد والأخلاق .

ومن الواضح أن الأيدلوجية التلمودية كانت من وراء النظرية ، تغذيها وتدفعها . وتتخذ من واقع الدين في الغرب وسيلتها إلى معارضته . ولكن المنطلق نفسه كان قسرياً . ولم يكن طبيعياً ، وكان متعارضاً مع الفطرة والعقل وكل المقررات التي يفكر بها الانسان . وكان أشبه بإخراج الانسان من جلده ووجدانه — فقد حسب دعاة المادية أنه من اليسر إخراج الإنسان — أي إنسان — من نطاق التدين والايمان بالله . وبالرغم مما أكده العلم التجريبي من محدودية العقل ، ومن عجز العلم عن معرفة جوهر الأشياء ، فإن دعاة المادية كانوا يجددون دعوتهم ، ويحاولون إدخال وسائل أخرى ، لإخفاء زيفهم ، وإبراز دعواهم في صور علمية براقة .

٥

تمثل النظرية المادية طابع الفكر الغربي المعاصر . وهو « الانشطارية » . فهي تعتقد بوجود عنصر واحد ، هو قوام هذا العالم ، وهو المادة . ولا وجود لعنصر غيرها (١) . بينما يقف الفكر الاسلامي موقف التكامل ، ويقترب من

---

١ — من بحث للدكتور أحمد حسن الرحيم عن الفلسفة المادية (الأقلام)

جوهر الحياة ، وحقيقة الإنسان حين يجمع بين الروح والمادة . ولا ريب أن الاعتماد على المادة وحدها في بناء منهج فكر ، ومنهج حياة ، ومنهج معرفة . من شأنه أن يواجه أخطاراً ومزالق ومحاذير كثيرة لا سبيل إلى التغلب عليها إلا بالتعليلات المضطربة ، والتأويلات الملتوية التي لا يقبلها العقل ، ولا تستريح لها الفطرة . ومن ذلك أن الماديين يذهبون إلى اعتبار الروح مادية ، والعقل مادي . والنفس مادية وهكذا .

وتقف النظرية المادية موقفاً عصبياً من تعليل الخلق ، ونظام الكون على نحو لا يقنع ولا يرضي ولا يشفي غلة . وتنكر الفلسفة المادية غائية الكون . أي أنه خلق لغاية مقصودة ، وتنكر بدايته ونهايته ، كما تنكر النشأة الأخيرة والجزاء . ومن هذا المنطلق ظهرت فلسفات النفس والأخلاق والاجتماع ، التي غايرت مفاهيم الغائية البشرية ومسؤولية الإنسان في هذا الكون ، وما يتقبل بالبعث والجزاء في الآخرة . ومن المقطوع به أن أخطر مقررات المادية . هو تفسيرها النشاط الإنساني كله على أنه نابع من الجسد ، وأنه لا مجال للجوانب الخلقية والروحية ، ومن هذا ينظر إلى مقررات المجتمع والدين والأخلاق على أنها مسائل نسبية متغيرة . وأخطر ما في هذا المفهوم : هو معاملة الانسان معاملة المادة الجامدة ، أو تطبيق تجارب الحيوان عليه . ومصدر هذا هو افتراض أن الإنسان مادة . وأن النفس مادة . وفي هذا الاتجاه تحاول الفلسفة المادية ، أن تسخر من كل القيم ، والمثل العليا . إذ الحقيقة الوحيدة عندها هي الحقيقة المادية ، والنوازع الأساسية عندها هي نوازع الجسد .

ومن هنا فإن النظرية المادية إنما تستهدف أساساً — وقد ضربها العلم ضربات قاتلة ، وكشف عن زيفها — أن تحطم القيم التي قدمتها الأديان للأمم والبشرية . وخاصة في مجال العقائد والأخلاق فهي داعية الىالتحرر الكامل من كل قيد ، وإسقاط كل تكليف ، وضرب الحدود التي وضعتها الأديان للبشرية . حتى تستطيع أن تؤمن مسيرتها . وخاصة الإباحة في أمور الجنس والغرائز ، والتحرر

من المسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي كمنطلق إلى اللذات والشهوات العاجلة بدعوى أن الموت هو نهاية الأحياء . وهذه هي الخلقية التي أقامتها الأيدلوجية التلمودية لتدمير البشرية ، وتحطيم معنويات الإنسان ، وعلى أساسها نشأت كل مذاهب الإلحاد والإباحة .

العقل : مكانته ومهمته

إن للعقل في الاسلام مفهوماً قد يختلف عن مفهومه في الفلسفات المختلفة ، وأبرز مميزات هذا المفهوم أن العقل ليس مقدساً ، وليس له طابع الاستعلاء ، أو التفرد ، أو السيطرة على الفكر الانساني كله . وإنما هو عامل هام من عوامل المعرفة . ولكن هناك معه ، وتسبقه وتلحقه عوامل أخرى ، منها الوحي ، ويعمل معه عامل القلب .

ولا ريب أن العقل والإيمان معاً هما صمام الأمن في المعرفة الانسانية . وقد وصفهما الباحثون بأنهما عينان يبصر بهما الانسان سبيل الهدى . فإذا طمست عدسة الإيمان ، كان معها الحيرة . وإذا طمست العدستان كان بذلك العمى (١) . فالمذاهب التي اعتمدت على العقل وحده كانت حائرة ، ولم تزل . والمذاهب التي أنكرت العقل والإيمان ، جاءت غاية في الظلام (كالوجودية ، والفرويدية ، والهيبية) . وهما سبيلان لا ينفصلان ، يهدي أحدهما إلى الحياة وأمورها ، ويهدي الأخرى إلى ما بعد الحياة وما وراءها . فإذا وقفت المعرفة عند الحياة وحدها كانت ناقصة مبتورة . لأنها لم تستكمل حلقة الاستمرار ، ولم تتم بها التجربة فصولا . وكأنما أخذت التجربة ، وغيبت النتيجة والعبرة . وهذا هو النقص الذي يؤدي إلى الحيرة والقلق والتمزق ، والعلم وإن كان من شأن العقل . إلا أن الايمان هو الذي دفع إليه ، وهو أيضا الذي يقوده في الطريق حتى لا يكون شراً على البشرية ووبالاً .

---

١ — مجلة العربي — نوفمبر سنة ١٩٦٨ .

ولقد حرص الاسلام على أن يجعل العقل في مكانه الطبيعي . وفي حدود وظيفته ، وعمل على تحريره من كل سلطان إلا سلطان الله ، فدعا إلى تحريره من الوثنية والمفاهيم الزائفة ، كما حرره من الخضوع للقوى الخفية والشعوذة والسحر .

وقد أكد القرآن في مجموعه أن طبيعة تكوين العقل مرتبطة بجهة الانسان في الأرض في سبيل التقدم ، والقدرة على إدراك قوانين المادة وتسخيرها . وليس من مهمته الكشف عن أسرار التكوين الإنساني ، ومن هنا كان عجزه عن ذلك بعد هذه المحاولات الطويلة . ذلك أن سر الكون والحياة ، وسر الموت هو من الغيب الذي استأثر الله سبحانه به والذي قدم للبشرية فيه بياناً شافياً كافياً عن طريق الوحي . ولما كان سر الروح الإنساني بعيداً عن مجال الإدراك عن طريق العقل . فقد شفى القرآن النفس البشرية في مطمحها وتطلعها إلى الفهم . فقدم لها منهجاً كاملاً . أما العقل فلم يكن من وظيفته الأساسية ، أن يخوض في هذا العباب ومن هنا كان عجز البشرية حتى الآن عن أن تضع لها منهج حياة أو أيدلوجية نظام وشريعة وقوانين صالحة للعمل ، أو محققة لمطامح الإنسان . ومن ذلك أيضاً عجزها عن وضع التفسير الكامل للكون .

يقول الاستاذ يوسف العش (١) : إن العقل من خلق الله فهو يخضع له . فلا يشترك معه في الألوهية . وقد أودعه في الإنسان . لا ليعبده من دون الله ، بل ليعرف الكون ويكتشف ما يلزمه منه . ويهتدي به في الظلمات التي ليس للدين أن يكشفها له . فللعقل أن يجول فيها ويتأمل ويدرك ، ويستخرج ما يهدي إليه .

أما الأمور التي بينها الله في قرآنه وبسطها . فعليه أن يسلم بها . ولا يشتط فيدعي أنها غير صحيحة ، فهو من خلق الله . وهو واسطة لا غاية ، وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها . ولا تستطيع أن تتحدى ما يقوله الله . والعقل ليس إلهاً لا يخطىء . وإنما هو نور مصباح يكشف في الظلمات . ولكنه ينكشف

---

١ — في بحث مستفيض عن الحضارة الإسلامية .

أمام نور الله . وهذا التحديد إيقاف للصراع . فالعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق والكون . وأن يضع مبادىء المعرفة . بل الله يفعل ذلك – والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام نور العقل أضأل من نور الله ، فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً في ميدان الفلسفة . يسير نور العقل وراءه – والعقل الإسلامي يتفق في نتائجه وطريقه مع الأخلاق فهو الذي يدل على الخير ويهدي اليه .

أما المكر والخديعة والدهاء المؤدية إلى السوء . فليست من صنع العقل ، وإنما هي من صنع النفس الأمارة بالسوء . ولو رجع الإنسان إلى عقله رجوعاً سليماً لأباها . وليس العقل البشري نداً للوحي ، ولكنه مهتد بالوحي . وهو جهاز يتلقى الوحي ويفسره ، وليس له قدرة على معارضة الوحي ، أو تقديم تفسير آخر . والعقل الاسلامي نور محرر من الشعوذة والسحر ، والقوى الخفية ، والخضوع لغير الله .

ويقول الاستاذ حسن البنا : ان قصارى ما يصل إليه – أي العقل – هو معرفة بعض المزايا والخصائص والصفات . أما الحقائق المجردة والماهيات البسيطة فلم تقع في دائرة إدراكه بعد . والذي يقوله الراسخون في العلم . انها لن تقع في إدراكه ، وانه كلما حاول بحكم طبيعته الوصول إليها والحصول عليها أفلتت منه وتركت بين يديه بعض خصائصها وصفاتها .

والعقل الإنساني لم يدرك بعد شيئاً من حقائق العناصر المبسطة . وكلما أوغل في الجري وراء حقيقتها ، انقلبت أمامه إلى مركبات تضاعف جهله بها ، وبعد أن يكون أمام عنصر واحد، يجدّ في البحث عن حقيقته يصبح أمام عنصرين أو أكثر عليه أن يبحث عن حقائقها من جديد . وقل مثل ذلك في ماهية القوى الكونية التي تبدو في الحياة واضحة كل الوضوح بآثارها، مجهولة كل الجهالة بحقيقتها كالكهرباء والمغناطيسية والأثير والجاذبية إلى غير ذلك من الأسماء والألفاظ والفروض والمصطلحات التي اخترعها الفكر الإنساني. والعقلاء جميعاً متفقون على أن قصور العقل عن إدراك كنه حقيقة من الحقائق أو جهله بها ليس معناه عدمها ، أو خفاؤها. فهي واضحة كل الوضوح بآثارها وخصائصها ،

خفية كل الخفاء بأسرارها، ودقائق ماهيتها. ان الفطرة الإنسانية السليمة تهتف بالإنسان دائماً وأبداً أن يتعرف إلى الله . وكل مظاهر هذا الكون وموجوداته بما فيها نفس الإنسان لا توجد أمام الفكر الإنساني أي مجال لإنكار «وجود الله وعظمة الله. والدلالة الواضحة على الله». وان القلب الإنساني إذا صفا وأشرق تذوق حقيقة لذة الإيمان بالله .

وقد سئل أحد العارفين عن الأدلة التي أقنعته بالإيمان بالله ، فابتسم وقال : أغنى الصباح عن المصباح حتى احتاج النهار إلى دليل .

فقصور العقل الإنساني عن إدراك حقيقة ذات الخالق وصفاته وقصور الحواس الإنسانية الكليلة عن الوصول إلى شيء من ذلك ، ليس معناه الجحود والإنكار . وكما سلم العقل الإنساني ، والحس الإنساني بما لم يدركه من هذه القوى المحيطة به. فإن لزاماً عليه أن يسلم برب هذه القوى، ويسلم وجهه إليه « وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِين » (١) .

٢

ومن جملة ما ذكره العلماء والباحثون : أن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء حتى يَحْصُرَهُ في اثنين: الزمان — والمكان — فيقول: متى وأين ، فما لم ينحصر بينهما لم يكن للعقل عليه سلطان، فالعقل لا يستطيع أن يحكم على الله ولا على صفاته . ولا على قضائه وقدره . وكل عمله فيها فهم «نصوص الوحي» الذي جاء من خارج العقل . والعقل محدود لا يستطيع أن يتصور غير المحدود ، ولا يحكم على غير المتناهي . والعقل لا يتصور الخلود ، والله عز وجل غير محدود . فالعقل لا يستطيع أن يحكم عليه .

والعقل يختل ميزانه إن حاول الحكم على غير المحدود ، ويقع في التناقض المستحيل . والعقل لا يستطيع أن يحكم ، ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية ،

---

١ — الشهاب يناير ١٩٤٨

أما ما وراء المادة أي عالم الغيب (الميتافيزيقيا) فلا حكم للعقل عليه (١) .

ولقد صدق علماؤنا القدامى . حين فهموا العقل حق الفهم . فقالوا : إن في ابن آدم عقلاً وشهوة ، وان العقل هو مناط التكاليف الشرعية . والعقل جوهر مضيء خلقه الله في الدماغ ، وجعل نوره في القلب ، يعرف الحق من الباطل . والخير من الشر ، والحسن من القبيح (٢) .

٣

قال جاكوتي : إن العقل غير المعان لا بد أن يقود الإنسان إلى الإلحاد ، وذلك لأنه بطبيعته الخاصة . لا يستطيع أن يعالج سوى الأشياء ذات الحدود ، وأجزاء الأشياء . وهو يضع هذه الأجزاء معاً ، لتكشف ما بينها من روابط ، ولكنه يعجز عن الحصول على مادة الحقيقة الخام . إن الله الذي يمكن اثباته بالمنطق ، لا يمكن أن يكون الله . لأن الحصول عليه بالمعرفة عن طريق العقل يتضمن معنى سيطرة العقل ، والخالق الأعظم لا يمكن أن يسيطر عليه ، أو يحتويه عقل . إن الحقيقة فيما وراء الطبيعة ليس سبيلها الفكرة المنطقية . بل سبيلها الإيمان .

ويقول الأستاذ عبد الهادي أبو ريدة : العقل قاصر عن إدراك الماهيات . وفي هذا المجال تكون أداة المعرفة ، هي الحس والروح . والقلب في القرآن أداة الفهم والنظر والوظيفة الأساسية للقلب هي المعرفة .

٤

ومن هنا فان تقديس العقل واعتباره السبيل الوحيد في المعرفة والأسلوب الوحيد في البحث ليس منهجاً إسلامياً أصيلا — وقد ثبت في منهج البحث الحديث أن العقل البشري لا يستطيع أن يرى الحقائق الخارجة رؤية صحيحة

---

١ — راجع المقصود الأسنى للغزالي .

٢ — كشاف مصطلحات الفنون .

تامة . فهو محدود وله مجال معين لا يستطيع أن يتعداه مثله كمثل البصر ، يقدر أن يرى . ولكنه لا يرى كل شيء . فالبصر يرى ، ولكنه لا يتجاوز حدود قدرته البصرية . ولا يستطيع العقل أن يأخذ مكان السيادة في المعرفة . إلا في المناهج المادية وحدها التي تنكر الوحي . ومن العسير أن يتحقق ما يريده الماديون من إخضاع الدين للعقل . فالدين وحي سماوي . والعقل أداة لرؤية محدودة .

وقد جرى هذا في أوربا من أجل معارضة العقيدة والمعرفة اللتين قدمتهما الكنيسة . ولا ريب أن ما نراه من هذا الاضطراب الفكري العاصف الذي يجتاح البشرية . وهذا الصراع بين المذاهب دون القدرة على وضعها في إطار ضابط ، أو مرجع له سلطان ، إنما يعود إلى هذه النظرية التي طرحتها المخططات التلمودية في القول بحكم العقل وحده ، وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها .

الإسلام والنظريّة المادّية

١

إن موقف الإسلام من النظرية المادية واضح صريح . فالاسلام منهج متكامل ، يقوم على جناحي المادة والروح . ومنهجه في المعرفة ، يقوم على أساس ترابط العقل والقلب ، والإسلام يقوم على أساس إيمان راسخ بالخالق الذي خلق الإنسان والكون من العدم . والذي تدل على وجوده صنعته . والذي خلق عالم الغيب ، وعالم الشهادة . وأعطى الإنسان الوحي والعقل : الوحي الذي أبان عن عالم الغيب . وكفى الإنسان موؤنة النظر فيه . والعقل الذي فتح للإنسان آفاق النظر في معطيات الحياة .

ولقد وصفت المادة بأنها عمياء . فكيف يتاح لها أن تتكون في هذا الكون البديع ، وتتشكل في هذا الوجود الضخم على تنوع كائناته ، وتباين موجوداته بغير صانع ؟

إن مفهوم الإسلام للمادة أنها ليست قديمة ولا باقية . خلقها الله وهي تبقى إلى أجل مسمى عنده . ولا يقر الإسلام نظرية الصدفة ، ولا نظرية الضرورة ، ولا نظرية الوجود بغير غاية . والعلم الذي حاول اكتناه سر الحياة ، قد عجز عن أن يحقق شيئاً . واكتفى بمهمة متواضعة هي : البحث عن الظواهر – ظواهر الأشياء – ونظريات العلم هي فرضيات معرضة للتحوير

والتغيير . وما من نظرية قال بها العلم إلا وقد أصابها تعديل . فليس في قدرة العلم أن يقول الحقيقة . لأنه بوسائله المحدودة يعجز عنها .

وقد صدق العلامة اجست سبانيه في كتابه فلسفة الدين حين قال : إن ما عرفه العلماء من العلم هو جزء محدود . وهو ليس إلا عدماً بالنسبة لما يجهلونه .

ويقول كاميل فلامريون . لقد عجز العلماء عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه ، ولذلك فهم مقرون بضرورة وجود الخالق . وبتأثيره الدائم المستمر ليمكنهم تفسير تعاقب الكائنات ، وإدراك سر أصول الأشياء .

والواقع أن الإلحاد لا ينسب إلى العلم أو العقل ، ولكنه ينسب إلى النفوس المريضة . وقد ارتبط ظهور الإلحاد ، وشاع نطاقه مع الاضطراب النفسي والأخلاقي . ولقد استشرت نظرية المادية في القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر. ثم جاء العلم فحطم غرورها وزيفها . وكشف عن أن هناك جوانب « غيبية » تدل على أن هناك عالماً آخر . واعترف علماء المجاهر والمعامل صراحة بوجود الله الخالق في عشرات من الأبحاث ، بل مئاتها . غير أن الفلسفة المادية هي التي تحاول اليوم أن تحمل لواء المادية وليس العلم ؛ والفلسفة المادية مناقضة للدين ، معترضة عليه .

والإلحاد كما عرفه العلامة محمد فريد وجدي « هو عصيان بداهة العقل ». وبداهة العقل تشعرنا بوجود قوة عليا . هي مصدر كل كمال ، وكل قوة في الأرض والسماء . وقد جاءت نزعة الالحاد من الجحود . والجحود هو إنكار الشيء مع العلم به (١) . ولا ريب أن الشك هو نقص في المعرفة أساساً . وهو تردد في تقبل الحقائق ، والإلحاد وليد الغرور بنوع من العلم ، يظن صاحبه أنه قد أحاط بكل شيء علماً « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ » .

ولقد كان أصحاب الدعوات الهدامة في كل عصر وبيئة وزمان يتخذون

---

١ - كشاف مصطلح الفنون .

من الإلحاد والتشكيك والارتياب سلاحاً في مواجهة الضعف والغفلة والقصور والفراغ النفسي الذي يحيط بالأمم حين تنصرف عن قيمها وأصول فكرها ، عندئذ تستطيع هذه المفاهيم الضارة أن تنفذ إلى النفوس ، وتجد لها مجالا تعشش فيه .

يقول جيمس خيتر ، بعد دراسة علمية استمرت خمسين عاماً : إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود الله . ويقول : ان أوربا قد نبذت اليوم إلهها وآمنت بإله جديد هو العلم . ولكن العلم كائن متقلب . فهو ينفي اليوم ما أثبته بالأمس ، ويثبت غداً ما نفاه اليوم . لذلك تجد عباده في قلق دائم لا يستقرون .

٢

والاسلام يرى أن العلم سلاح من أسلحة المعرفة . ولكنه ليس السلاح الوحيد . ومن هنا يجيء خطأ القائلين بأن العلم هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة . وأن ما عداه ليس شيئاً .

كذلك يقرر الاسلام أن العلم لا بد له من إطار : هو الخلُقُ . وأن العلم إذا لم تحده أخلاقيات ومثل يغدو وبالا على البشرية . ومن هنا فإن العلم المادي لا يمكن أن يكون منهجاً للإنسان يحل محل الدين . ولكنه جزء . والدين كل . والجزء لا يحتوي الكل .

وهنا لا بد من ضرورة التفريق بين العلم وفلسفة العلم . بين الحقائق العلمية المقدرة بالأنابيق في المعامل . وبين النظريات المنسوجة في أسلوب علمي باسم الفلسفة . فالأولى حقائق عامة للبشرية كلها ــ أما الأخرى فهي نظريات خاصة من نتاج عقول . وفي ظل تحديات عصورها وبيئاتها . وأمر آخر ، أهم من هذا كله هو أن المادة نفسها التي كان يرتكز عليها القانون الطبيعي . والتي استعلت في غرور . فصنعت المذهب المادي قد حطمها اليوم العلم نفسه . لم تعد العينة الصلبة من المادة هي أساس الطبيعة . لقد كشف لهم العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي . وعلمهم أن أساس الطبيعة هو الحركة . وليست

المادة . الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر تتحرك فتضفي الشكل المادي للأشياء . وهذه الذرات هي الأخرى تتشكل وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي وهو إيماء عجيب للانسان المعاصر بزيف هذه الثنائية التي قسمت خلق الله إلى قسمين . وأقامت بينهما جداراً من التباعد والصمت (١) .

وهذا المعنى فسره العلامة موريسون : رئيس أكاديمية العلوم حين قال : إن تحطيم ذرة التون التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب والكترونات طائرة ، قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا في الكون والحقيقة ، تبديلا جوهرياً . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي . وان المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم ، تثبت بشكل أكيد وجود « مدبر جبار » . وراء ظواهر الطبيعة .

« إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها ، تكون الحياة بدونها مستحيلة . إن وجود الإنسان على ظهر الأرض ،والمظاهر الفاخرة لذكائه . إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون . ويقول العلامة واين اولت: إن الإيمان بالله يعد لازماً لاكتمال وجود الانسان،وتمام فلسفة في الحياة — أما النظريات التي ترمي إلى تفسير الكون تفسيراً آلياً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون . ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض المصادفة . فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله ، بقصد إكمال الصورة ، ولكن فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق ، من فكرة الصدفة ولا شك . بل إن هذا النظام البديع الذي يسود الكون ، يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم ، وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء » ا.هـ

ولا ريب أن هذه الحقائق العلمية تظاهر مفهوم الإسلام ، وتطابقه ، وتقضي بأن البشرية تسير في طريق معرفة الله عن طريق العلم.

---

١ — من بحث للدكتور عماد الدين خليل .

٣

هناك حقائق أساسية في فهم العلم والإنسان :

أولا : إن العلم قد اتخذ طريقه الصحيح حينما بحث في ميدان المادة ، ولكنه قد ضل الطريق حينما بحث في ميدان الاجتماع والنفس . ولذلك فإن ما يتصل بالمادة هو وحده الذي يطلق عليه اسم العلم ،أما ما يتصل بميدان الاجتماع والنفس فهو فلسفة. ومصدر الخطأ: هو ان المادة تستطيع أن تخضع للمقاييس والموازين المادية العلمية . أما النفس الإنسانية ، فإنها تخضع لمقاييس أخرى . فالإنسان ليس مادة وليس حيواناً .

ثانياً : ليس كل ما ينسب إلى العلم ينتمي إليه — ولا كل ما ينتمي إلى العلم مفروغ من ثباته، فكما أن في العلم الحقائق التي لا شك فيها ، فإن فيه أيضاً القضايا المفتقرة إلى الإثبات . إن هناك فرضاً باطلاً مسلماً به ضمناً، وهو أن العلم الحديث يبنى على البرهان الحسي . فما يقال باسمه لا بد أن يكون قد ثبت وقام عليه لدى العلم البرهان . فهم يتقبلون كل ما ينسب إلى العلم . لأنهم يسلمون بقيام البرهان عليه . كذلك فإن العلم شيء ، وتطبيقه من غير خلل أو خطأ شيء آخر .

ثالثاً : إن العلم قد عجز عن فهم حقيقة قائمة موازية له هي الفطرة — فالفطرة في الإنسان حقيقة ثابتة ، لا تستطيع أي قوة أن تغير مجراها ، وهي مستقلة عن الزمان . وقد قرر الله سبحانه وتعالى أن لا تبديل لسنن الله في الخلق ، ولا تحويل لـ «فطرة الله» التي فطر الناس عليها « لا تبديل لخلق الله ». ولقد عجزت الحضارة عن أن تفهم الفطرة ، وغفلت عنها ، ومن هناك كان اضطرابها ونقصها . فإذا تطاول العلم إلى بحث ما قررته الفطرة كان ذلك هو مصدر خطئه وفشله ؛ ذلك أنه لا سبيل إلى إخضاع الانسان للتجربة والاختبار عن طريق العلم (١) .

---

١ — الحقائق الثلاث . عن الدكتور محمد أحمد الغمراوي .

الفصل الرّابع

العِلْمانيّة

ظهرت الدعوة إلى العلمانية في الغرب نتيجة للاتجاه الذي حملت لواءه حركة التنوير الأوربية في الفصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الحكومة ، أو إقامة أنظمة سياسية جديدة غير خاضعة لسلطة الكنيسة .

فالعلمانيةفي جوهرها : إنما تمثل القضاء على نظام قائم في الغرب ابان دعوتها . حيث كانت الكنيسة تباشر السلطة السياسية ، وتفرض نفوذها على الحكومات والدول .

والمعروف أن الدعوة نمت في أوربا قبيل الثورة الفرنسية في مجال التحرر من سلطان الدين والكنيسة . وإقامة منهج جديد . أساسه الدولة الحديثة . من شأنه أن ينقل الولاء من الكنيسة إلى الدولة . وقد ارجعوا الفكرة في المسيحية الغربية إلى نظرة أساسية مستمدة من أقوال السيد المسيح « دعْ ما لقيصر لقيصر . وما لله لله . ليست مملكتي في هذا العالم » والتمسوا مفهوماً يقوم على أساس أن المسيحية إنما جاءت بوصايا في مجال الأخلاق . وأن المسيحية حين عبرت إلى أوربا ، وجدت نظاماً سياسياً قائماً هو الامبراطورية الرومانية بقوانينها ودولتها المشكّلة فعلا ، والتي تطبع مجتمعها بطابع له صورته المكتملة .

أما الاسلام فإنه يختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً؛ ذلك أنه إنما يمثل عناصر ثلاثة

متكاملة هي : (العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق) . وأنه قد شكل مجتمعه منذ اللبنة الأولى على ذلك النمط المتكامل . وأن رسوله كان نبياً وفي نفس الوقت هو رئيس الدولة وقائدها وقاضيها .

ومن هنا . فإن مجال المقارنة مختلف ، فضلا عن أن مجال التطبيق للنظام الغربي القائم على العلمانية والفصل بين الدين والدولة جد مختلف ومتباين . ونحن إذا ألقينا نظرة إلى تاريخ أوربا ، وجدنا أنه بالرغم من أن المسيحية جاءت بمبدأ جديد لم يكن معروفاً في الأزمنة القديمة ، وهو فصل الدين عن الدولة . فإن هذا المبدأ لم يطبق في الحقيقة . ذلك أنه بعد أن اتسع نطاق المسيحية في الغرب — لم تلبث أن أصبح لها نفوذها على الدول والحكومات — يقول الدكتور عبد الحميد متولي : لم يكن أمر فصل السلطة هيناً ميسوراً . فقد ظلت الامبراطوريتان الرومانيتان « الشرقية والغربية » زمناً طويلا تقاومان انهيار سلطان الدولة الديني وذلك خشية انتقاص نفوذهما وسلطانهما، بل إن كثيراً من البابوات . عملوا على الجمع بين السلطتين الدينية والسياسية (١) .

وكانت الأباطرة في الدولة الرومانية يتولون العرش الامبراطوري بعد إجراء طقوس دينية يقوم بها الرهبان ، ويجري فيها البابا تتويج الامبراطور .

ويقول : ومن هنا كان اتجاه الملوك والأباطرة إلى التخلص من سلطان رجال الدين ، وذلك بالمناداة بنظرية (التفويض الإلهي) إلى المناداة بأنهم انما يستمدون ملكهم وسلطانهم من الله مباشرة ، وليس من البابوات .

ثم جاءت الثورة الفرنسية ، وعملت على نقل هذا التفويض من الحق الإلهي للملوك ، إلى الحق الإلهي للشعوب (٢) .

والمعروف أن هذه الأنظمة لم يعرفها الاسلام ، ولم يتأثر بها . ذلك أن

---

١ — هذا ما أطلق عليه (الدولة الثيوقراطية) التي عرفها الغرب . ولم يعرفها الإسلام .

٢ — نقل مع التصرف من كتاب أزمة الفكر الاسلامي للدكتور عبد الحميد متولي .

الإسلام قام منذ اليوم الأول على مبدأ الجمع بين الدين والدولة . دون التفريق بينهما .

ولا ريب ان أثر التكامل في الإسلام والانشطارية في الغرب . كانت له نتائجه البعيدة في المجتمع والتاريخ في كل منهما . والمعروف أن الإسلام ليس فيه نظام خاص يتولاه رجال الدين . بل إنه لا يقر هذا المصطلح . وليس في الاسلام وساطة بين الله والخلق . ولذلك فإن استغلال الدين في تاريخ الإسلام ، لم يكن معروفاً على هذه الصورة التي عرفتها أوربا . إذ ينكر الإسلام كل ما يطلق عليه الحق الإلهي ، أو التفويض الإلهي .

٢

يكشف تاريخ أوربا في العصر الحديث عن حقيقة تاريخية ، ترد إليها أمور كثيرة من وقائع هذا التاريخ : تلك هي محاولة اليهود الملحة لإسقاط الحواجز التي فرضتها الكنيسة . والدول المسيحية الحاكمة في أوربا . وإلغاء القيود التي كانت تتعلق بالزواج والملبس والعبادات . والتي حالت وقتا طويلا بين اليهود وبين حق المواطنة في المجتمعات الأوربية .

ومن أجل هذا عمدت المنظمات الماسونية إلى التحضير لعملية كبرى تستهدف إسقاط الحكومات المسيحية الغربية التي تسيطر عليها الكنيسة ، وإنشاء حكومات أخرى متحررة من هذه القيود . وقد كانت الثورة الفرنسية أولى الخطوات في هذا السبيل . وقد تلتها ثورات متعددة في مختلف الأقطار الأوروبية ، استطاعت أن تحقق الفصل بين الدين والدولة ، باعتباره أول الركائز التي تحول بين نفوذ الكنيسة وبين الحكم . ومن ثم جاء تحويل التعليم الغربي كله إلى تعليم علماني ، وعزله عن نفوذ الكنائس التي كانت تتولى أمور التربية والتعليم . وقد تحقق نتيجة لهذا إسقاط كل القيود التي فرضتها الكنيسة على اليهود ، والتي حالت دون التماسهم حق المواطنة — وقد كان هذا هو مفهوم عصر التنوير ، أو حملة التنوير التي هي على حد قول الفيلسوف كانْت « الافراج عن الإنسان

من الوصاية الدينية » ومن هنا ركز عصر التنوير على فصل الدين عن الدولة ، وإقامة حكومات في كل أنحاء أوربا بعد الثورة الفرنسية ، وهكذا تداخل اليهود في المجتمع الأوربي بعد أن انقطعوا عنه . ولقد كان أول قرار لأول حكومة علمانية في أوربا، وهي الجمعية الوطنية الفرنسية في ١٧-٩-١٧٧١، وقد اعتبر اليهود المقيمين في فرنسا مواطنين لهم كل حقوق المواطن وعليهم جميع واجباته (١) .

فالعلمانية هي السيف المصلت الذي حطم به اليهود القيد الذي يفصلهم في كل مجتمع . ويحول بينهم وبين السيطرة التلسودية . ويبدو هذا المعنى واضحاً من وراء صفحات كثيرة من التاريخ الاسلامي العربي المعاصر ، وخاصة فيما يتعلق بأنظمة الدولة العثمانية ، والدول العربية الحديثة .

إن الفصل بين الدين والدولة في الفكر الغربي المسيحي مفهوم لا غرابة فيه ، ومنه أمكن إقامة « العلمانية » التي كانت أكبر ركيزة في تأكيد النفوذ التلمودي في المجتمع الغربي .

يقول الدكتور الفاروقي : علينا أن نتذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجة لنمو العلمانية في التنظيم السياسي و الاجتماعي ،أي إن اقصاء الدين عن السياسة والاقتصاد والاجتماع أدى إلى اعتبار المنفعة العامة والإنتاج والخبرة والأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات . ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفاءتهم الشخصية .

ويقول : إن العلمانية نظرية تنبعث من الخبرة المسيحية ، لا من الخبرة اليهودية . إن المسيح الأوربي قد قسم حياته إلى دوائر ، وجعل بينها سدودا تمنع أي اتصال . وتجري الحياة في كل هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة . لا علاقة البتة للدائرة الواحدة ، بما يجري في الدوائر الأخرى .

فالعائلة والأخلاق الشخصية ، والدين ، والاقتصاد ، والسياسة ،

---

١ – راجع (الملل المعاصرة في الدين اليهودي) للدكتور الفاروقي .

والاجتماع . كل منها يؤلف ملكوتاً مستقلاً . فالويل كل الويل ، إذا سمح الغربي لمبادىء الدين أن تتعدى حدودها للتأثير في الاقتصاد .

والواقع ان العلمانية ليست سوى الاعتراف بأنه ليس هناك مبدأ عام يشمل حياة الناس بأكملها ، كما هو الحال في النظرة الدينية . فأصبح لكل من دوائر الحياة مبدأه الخاص . ا ﻫ

ولا ريب أن هذا الفهم الاوربي يختلف اختلافاً واضحاً عن الفهم الإسلامي الجامع المتكامل الذي يضع الحياة كلها في إطار موحد . ولا يقر الفصل بين القيم أو المفاهيم بل يراها متلاقية متكاملة يؤثر كل منها في الآخر .

٣

ويرجع بعض الباحثين نجاح فكرة العلمانية في أوربا إلى قصور النظرة الدينية القائمة عن مسايرة حضارة العصر . فالمفاهيم الدينية التي واجهت الفكر الغربي المعاصر القائم على العلم والعقل ، عجزت عن أن تصمد له ، مما دفع بعض المفكرين والفلاسفة إلى وصف الدين بأنه أفيون الشعوب ، أو أنه لا يصلح إلا لتنظيم الشعوب البدائية . والمعروف أن رجال الدين في الغرب عارضوا المناهج العلمية ، وقاوموا ثمارها ونتائجها .

غير أن هذه النظرة التي حققت للعلمانية السيطرة في أوربا . تختلف اختلافاً عميقاً بالنسبة للفكر الإسلامي ، والعالم الإسلامي . ذلك أن تكامل مفهوم الإسلام ، قد حال دون ذلك . فقد كان الإسلام في حقيقته أكبر دافع للعلم والتقدم ، وكانت إطاراته الواسعة المرنة قادرة على استيعاب كل عوامل العصر والحضارة .

ومن هنا ؛ فمن المستحيل أن يقع المسلمون في نفس المحاذير التي وقع فيها الفكر الغربي ، أما مرحلة الاضطراب التي جاءت نتيجة لنفوذ الاستعمار والتي فرضت مفهوم العلمانية في الفصل بين الدين والدولة — فهي مرحلة

موقتة ستزول بزوال أسبابها . وقد وضح الآن في الغرب أن محاولات فصل الدين عن الدولة : هي محاولات مصطنعة :

يقول الدكتور محمد رضوان : لم تقم الدولة العلمانية والمجتمع العلماني في الغرب إلا بشكل صوري ، والدول لم تتخل عن دينها . وان الدين لا يزال له نفوذه ، وان تعاليم الدين الدينية والأخلاقية قد غيرت من شكلها الخارجي واتخذت شكلا يقوم على الافصاح والتسامح ، وان رجال الدين في أوربا أدركوا أن عليهم أن يلبسوا الدين وتقاليده ثوباً عصرياً . وهذا يعني أن العلمانية لم تستطع أن تحصر الدين في الفرد فقط ،ولم تستطع أن تجعل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون في بلد واحد يشعرون أنهم اخوة في الوطن بصرف النظر عن أنهم إخوة في الدين . وانه لا يمكن الجزم بأن العلمانية . قد نجحت في تحقيق غاياتها؛وهي إقامة دول ومجتمعات ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردي فقط؛ذلك أن الصعيدين الاجتماعي والسياسي ليسا سوى حتمية للصعيد الفردي — والعلمانية يشق عليها أن تنجح في بلد يكون فيه الشعور الديني يقظاً ، والواضح اليوم أن الشعور الديني لم ينحطم تماماً حتى في البلاد التي تدين بالإلحاد رسمياً .

يقول الدكتور فاضل الجمالي : إن العلمانية اليوم حركة رجعية ، رجعية من حيث تاريخها — فقد زالت الظروف التاريخية التي كانت تتطلبها — ورجعية من حيث جعلها الدولة تهمل واجباً من أهم واجباتها . ونحن نؤمن بضرورة قيام دولة مدنية ، تقوم في البلاد العربية والإسلامية ، تعنى بحياة الانسان مادياً وروحياً ، عناية غير مجزأة ولا منشطرة . فوحدة حياة الانسان مادياً وروحياً معاً ، هو ما يجب أن تعنى به الدولة .

ويقول : لا نعتقد أن العلمانية حققت أهدافها في البلاد التي طبقت فيها . بل وقعت في تناقضات واضحة ، لا سيما في حقل التعليم .

ويكشف الدكتور فاضل الجمالي،وجه المقارنة بين البلاد الإسلامية والغرب في مجال العلمانية فيقول : قد يكون تطبيق العلمانية في البلاد الغربية أسهل

منه في البلاد الإسلامية . ذلك أن المسيحية لم تشتمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة . أما الدين الإسلامي ، فبالإضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق قد جاء بنظام شامل يمس حياة الانسان في شتى نواحيها من المهد إلى اللحد . وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الإنسانية .

وقد أكد غير واحد من أساطين علماء الشريعة في العالم أهمية الشريعة الاسلامية ، وما تحويه من ثروة زاخرة ، واستعداد لمجابهة الظروف والأحوال ، وما تشريع القانون المدني الحديث في مصر وسوريا والعراق على أسس إسلامية سوى دليل على ذلك. فعلمانية الدولة في البلاد الاسلامية معناها تنصل الدولة من الشريعة الإسلامية .

ولئن كانت العلمانية لا تلائم الشعوب الإسلامية (١) بصورة عامة . فإنها لا تلائم الأمة العربية ، بصورة خاصة ، لأن الأمة العربية مدينة للإسلام في تكوينها الحاضر ، وحاملة رسالة الإسلام إلى الإنسانية جمعاء ، فالفصل بين الدين والدولة ، معناه تجريد الدولة العربية من أهم مقوماتها .

فالأمة العربية اذا انفصلت عن الإسلام وعن رسالته ، تصبح كجسم منفصل عن حياته وعن روحه . والفصل هذا يجعل من الجسم قشراً فارغاً لا لُب فيه ، وما أسهل دخول المبادىء الوافدة على اختلاف أنواعها لتملأ الفراغ في القشر الفارغ (٢) .

---

١ - يشير هنا إلى التجربة التي حدثت في تركيا . وكيف عارض الشعب مبدأ العلمانية ولم يقبلها وأمكن إنشاء ما يقرب من ألف مسجد في القرى التركية تلبية لرغبة الشعب التركي .

٢ - دعوة الى الإسلام : محمد فاضل الجمالي .

٤

يفسر دعاة المادية (المذهب العلماني) بأنه النظر إلى الأديان نظرة واحدة ، وإلى الثقافات نظرة واحدة ، وإلى الأمم نظرة واحدة . ويحمل هذا التفسير في أطوائه مفهومي الأممية ، والعالمية . ويهدف إلى القضاء على روح الدين والوطنية ومفاهيم الأمم التي تقوم على أساس فكرها الخالص وثقافتها .

ومن المستحيل أن تنظر أمة هذه النظرة إلى الأديان والثقافات . خاصة إذا كانت في موقف صراع مع الاستعمار ، وفي مواجهة مع العدو ، وهو موقف يلتمس العدو كل الوسائل في سبيل انتقاص ثقافة المسلمين والعرب، والغض من قيمهم ، وإثارة الشبهات حول مقوماتهم . ولا ريب أن مثل هذا الموقف معارض لكل الركائز الأساسية التي تقوم عليها الأمم ، وخاصة بالنسبة للمسلمين والعرب الذين يشكل الإسلام بالنسبة لهم مفهوماً أكبر من مفهوم العقيدة أو اللاهوت . فالإسلام بالنسبة للمسلمين والعرب منهج حياة ، ونظام حضارة ، وأسلوب ثقافة ، وهو إلى ذلك لغة وتاريخ وتراث . ومن هنا فإن هناك استحالة في تقبل مثل هذا المفهوم الذي طرحته الارساليات والمعاهد التبشيرية والمحافل الماسونية والاستشراقية من أجل تدمير مقومات الأمم ، وإذابتها في كيان القوى الكبرى ، واحتوائها للقضاء على ذاتيتها ومقوماتها .

والمعروف أن أخطر المجالات التي اقتحمها الاتجاه العلماني في ظل النفوذ الاستعماري في المجتمعات الاسلامية. إنما تتركز حول المصارف، والقوانين الوضعية ومجالات التعليم والصحافة ومناهج الثقافة والتربية . وقد كان للإرساليات ، ومدارس التبشير وجامعاته أبعد الأثر في الدعوة إلى هذا الاتجاه . وهو هدف أساسي لتحطيم القيم الإسلامية، وابعاد النفوس والقلوب عنها، وخلق التبعية الفكرية ، والسياسية ، والتشريعية ، والإدارية ، والتعليمية للغرب . ويقول الدكتور محمد البهي [١] في تصوير هذا الهدف من أهداف

---

١ — دكتور محمد البهي

الاستعمار والتغريب : لم يكن أمامهم لكي يبقى المسلمون أتباعاً لهم ، إلا أن يمكنوا لاتجاه العلمانية من السيطرة ، فهو كفيل بإبعاد الإسلام أولا عن مجال التوجيه والحياة العامة ، وفي الوقت نفسه كفيل بجذب المسلمين إلى الحضارة الغربية والتبعية إلى القيادة السياسية للغرب . وعنده أن الاتجاه العلماني هو الأساس (وليس الاستعمار المباشر) في هز قيم المجتمعات الاسلامية وهو كما يعبر عنه Secalarism جملة من المبادىء والتطبيقات ترفض أي صورة من صور الايمان بالله والعبادة له وتقوم على وجوب تنحية الدين وابعاده عن الدخول في أي شأن من شؤون الدولة ، وعلى وجه الأخص في التربية العامة . هذا الاتجاه لم يستطع أن يمارس نشاطه في حرية وانطلاق في الحياة الغربية بفعل السلطة المقابلة . وهي سلطة الكنيسة الكاثوليكية . أو دولة الفاتيكان . ذلك أن الكنيسة اقتحمت دائرة الدولة . وبالأخص في جانبها السياسي . وذلك بإنشاء الأحزاب الديمقراطية المسيحية كي تمارس سياسة الدولة . وبذلك أيضاً لم يصبح الاتجاه العلماني في المجتمعات الغربية ذا خطر على الدين . وبعد فإن جملة القول : ان العلمانية هدف صهيوني ، يفسح المجال أمام القوى التلمودية للسيطرة ، ولفرض أهدافها ومطامعها .

ويمكن القول بأن ما يطرح الآن على الفكر البشري . من مذاهب ودعوات ليس في حقيقته علماً . وإنما هو فلسفة . فالعلم يعرف بالمختبرات داخل المعامل . أما هذه النظريات ، فهي فلسفات ؛ والفلسفات فروض .

وللفيلسوف أن يفترض ما يشاء من النظريات ، مستمداً ذلك من واقع مجتمعه ، أو من رؤياه النفسية ، أو من أهوائه وأغراضه « ولطالما كشفت هذه النظريات عن مطامح ومخططات » . وليست العبرة بالنظرية ، وإنما العبرة بالتطبيق .

ولقد طرح أفلاطون نظرية الجمهورية ، وأتيحت لها الفرصة الكاملة للتطبيق . فهل استطاعت أن تحقق شيئاً ؟ أم حققت الفشل في كلتا المرتين اللتين عرضت فيهما للتطبيق ؟

وكذلك دعوات كثيرة قديمة وحديثة ، مضى عليها أربعون أو خمسون

من الأعوام . فهل استطاعت أن تحقق المجتمع الذي تصورته أيدلوجيا كأنه حلم الأجيال (أو طوبيا) السعادة ؟

هذه هي العبرة ، من النظريات إلى الفروض الفلسفية . وهنا نرى الفارق البعيد بينها وبين معطيات الأديان . التي حققت قيام مجتمعات ناضجة في سنوات قليلة استطاعت أن تنشر في العالم كله السلام والعدل. هذا فضلا عن أن مناهج الفلسفة التي طرحت للتطبيق لم تلبث ان احتاجت بعد سنوات قليلة إلى تعديل بعد تعديل ، وإلى اضافة بعد حذف .

٥

ومن هنا يتقرر ان النظر الفلسفي الخالص لا يمكن أن يكون أساساً للفكر الإسلامي .و لا يمكن الوصول إلى الحقائق الأولية إلا عن طريق الوحي . والفلسفة ليست قرينة الوحي . ولا مناظرة له .

ولا ريب أن أغلب الفلسفات التي نادى بها مفكرو العصر : هي مادية الأساس ، ولذلك فهي لا تقوم على أساس الاعتقاد بالله الواحد الذي عرفه الدين الحق . وهي حين تحاول الكلام في الألوهية . تؤله المادة ، أو تؤله الإنسان ، أو تؤله المال . ومنها من يجعل الغريزة الجنسية محور تفسير الوجود .

وهناك عقائد ومذاهب تترجح بين الشرك والتثنية والتعدد . والدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة التوحيد من شوائب الاضطراب : هو الاسلام .

ولا ريب أن هذه المذاهب والفلسفات جميعاً تعارض الاسلام وتعاديه باعتباره صاحب رسالة التوحيد الخالص .

وقد وجهت إليه حملة مركزة عاصفة في محاولة لاقتلاع جذوره، والقضاء على وجوده . ومن أخطائها قولها : ان الدين ليس إلا مرحلة من مراحل حياة البشرية ، أو ان الإسلام حلقة من حلقات التاريخ . ولا ريب أن التدين فطرة ، وأن الإسلام واقع صلب ثابت مؤثر في البشرية كل أثر ، منذ ظهوره ، وإلى

اليوم ، وإلى الآماد البعيدة ، وانه هو العقبة اليوم في وجه الوثنية ، والإلحاد ، والمادية .

٦

إن مصدر الأخطاء في دراسة قضايا الإنسان كلها ، أنها تقوم على أساس تصور ناقص هو ان الإنسان جسد ومادة . ومن ثم فإن كل الحلول التي توضع لمشاكله لا تحقق شيئاً . ولا تستطيع أن تحقق مطامحه النفسية . إنها تتجاهل السنن الطبيعية في خلق الإنسان من روح ومادة ولا ريب إن العناية بجسد الإنسان وحده في الحضارة الحديثة ، قد ضرب الإنسان في صميم روحه ونفسه. ولا ريب إن المعرفة الربانية التي جاءت بها رسالات السماء هي أعمق فهماً للإنسان ، وأوسع أفقاً ، وأكثر شمولاً ، وهي التي كشفت أمام الإنسان حقيقية الإنسان . وهدته إلى الأسلوب الصحيح لحل قضاياه .

وما تزال البشرية متمردة على المنهج الرباني ، ذاهبة وراء أهوائها . فلا تصل إلى الحقيقة . فهي ترى الإنسان . إما روحاً كله ، وإما مادة كله . وفي كليهما فساد . وما تزال البشرية تنتقل خارج الله بين المنهجين دون أن تصل إلى شيء إلا إذا عادت إلى مفهوم الاصالة المتكامل الجامع بين المادة والروح . وهو وحده الذي يعصمها ويهديها إلى الحق .

الفصل الخامس

العالمية

يعزو الأميرال وليام غاي كار في كتابه الخطير : « أحجار على رقعة الشطرنج » فكرة الدعوة العالمية إلى مخططات التلمود والصهيونية العالمية . وقد تشكلت هذه الدعوة في صور متعددة . في محاولة لإخفاء هدفها الحقيقي . فأطلق عليها حيناً وحدة البشرية ، أو وحدة الحضارة ، أو وحدة الثقافة العالمية ، أو الحكومة العالمية ، وكلها تعني أمراً واحداً وغاية واحدة .

وعبارة (وحدة الثقافة العالمية) عبارة خلابة المظهر ، براقة الصورة ، ولكنها تخفي في أعماقها التعصب والاحتقار للثقافات الإنسانية . ومعناها في الواقع هو سيادة الثقافة الغربية ، وحضارتها ، وتسيدها على ثقافات الأمم وحضاراتها ، ولا سيما الثقافة العربية والفكر الإسلامي .

وقد استمدت هذه الدعوة وجودها من منطق مغلوط ، ومن منطلق استعماري في الأساس هو ما أطلق عليه اسم « رسالة الرجل الأبيض إلى العالم الملون ». والهدف الكامن من وراء هذه الدعوة هو سوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبودية للسيادة الغربية الحاضرة ، وتذويب الفكر الإسلامي في أتون العالمية ، أو احتواء مقدراته ودمجها في مفاهيم وقيم ، تختلف في جوهرها عن قيم الاسلامي ومصادره الأصيلة .

ويتساءل هنريك رالف في كتابه (الإنسانية والوطنية) عما إذا كان يجدر بالأمم الضعيفة المهضومة الحقوق . أن تأخذ بالنزعة الإنسانية ، وتضحي

النزعة الوطنية . ويرى هنريك رالف : أن النزعة الإنسانية يجب ألا يعتنقها إلا الأمم القوية . أما الأمم الضعيفة ، فإن لم تستمسك بمقوماتها الخاصة ، سحقتها الأمم القوية . ويعتقد هنريك رالف : أن أنصار السياسة العالمية هم أصحاب رؤوس الأموال والطامحون الذين يروجون لها دفاعاً عن مصالحهم الخاصة . ورغبة في بسط سلطانهم ونفوذهم على الأمم المهضومة الحقوق .

ولقد علا صوت الدعوة إلى العالمية في مصر والعالم الإسلامي في الثلاثينات . وحمل لواء الدعوة إليها . أمثال سلامة موسى وغيره ، ولم تكن قد تكشفت بعد تلك الغايات البعيدة التي تحمل لواءها المخططات التلمودية في السيطرة على العالم .

ويرى كثير من الباحثين أن محاولة الغرب في توحيد البشرية ، إنما يعني صبغها بالصبغة الأوربية ، وطبعها بطابعها . والقضاء على مقوماتها وقيمها الخاصة ، وشخصيتها الذاتية ، ومثلها الأعلى التي تختلف اختلافاً بيناً عن مقومات وفكر الغرب . وليس صحيحاً ما يردده البعض من أنهم يلتمسون ما دعت إليه الأديان من وحدة بشرية . فإن الفارق كبير بين غايات الأديان ، وغايات الصهيونية العالمية . وإذا كان حملة لواء هذه الدعوة هم الذين يقولون بالعنصرية والتميز الذي يتميز به الإنسان الأبيض ، أو من يدعون إلى شعب مختار . فإنه من العسير ، أن تستجيب البشرية لمثل هذه الدعوات . وإنما تكون الاستجابة لدعوة أخرى ، يحمل لواءها ، الدين الحق ، فتجمع الناس بغير ظلم ولا عدوان .

وان المُراجع للدعوات الهدامة جميعاً من البهائية والروحية الحديثة وغيرهما يجد هذه الدعوة إلى العالمية، أو الاممية « Cosmopolitism » وهي من نتائج المخططات التلمودية والدعوات الضارة التي سيطرت عليها اليهودية العالمية . وهي محاولة لاحتواء العالم تحت فكر معين ، ومذهب معين . ولا ريب

أن هناك خطراً كبيراً في الدعوة إلى العالمية ، على الأمم التي لم تستكمل وجودها الوطني ووحدتها القومية ، والتي تعاني احتلالا ، أو غزواً ، أو سيطرة خارجية ، أو ما تزال دعائم فكرها لما يكتمل نضوجها لمواجهة الفكر البشري . والوقوف معه موقف الندّ للندّ .

الباب الثالث

دعوات هدامة للنفس والأخلاق

الفصل الاول : الفرويدية : الجنس – الأخلاق .

الفصل الثاني : الوجودية .

الفصل الثالث : الهيبية .

الفصل الأول

الفرويدية

« نظرية الجنس »

١

إن نظرية فرويد في التحليل النفسي ، هي مرحلة من مراحل المحاولات . التي يقوم بها الفلاسفة في مجال استكشاف النفس الانسانية. وهي محاولات دائبة طويلة على التاريخ . وفيها الخطأ والصواب . ونظرية فرويد : كغيرها من النظريات التي تتصل بالعلوم الإنسانية عبارة عن افتراضات ، توضع موضع الاختبار . ولما كانت العلوم الإنسانية بطبيعتها تختلف عن العلوم الرياضية ، والطبيعية . فإن خضوعها لمقررات التجربة العلمية المادية ، هو إنكار لإنسانية الانسان ، وإهدار للجانب الروحي والفكري والنفسي فيه ، هذا الجانب الذي لا تصلح للتطبيق عليه النتائج التي عرفها العلم عن المادة أو الحيوان . غير أن أخطر ما في الفرويدية . هو نقلتها العجيبة ، والخطيرة للإنسان من النظرة التي كانت مقررة لدى الفلسفة الأوربية نفسها ، بأنه سيد الكون ، إلى القول بأنه حيوان تحكمه غرائزه أو أن الغريزة الجنسية هي المصدر الأول لدوافع

الإنسان وتصرفاته . هذا التحول الخطير ، إنما جاء من خلال تطورات مختلفة بدأت حين انحرفت النظرة إلى الكون ، متجاوزة الدين ، ومنكرة إياه ، ومتخلية عن مفهومه في الخالق ، والتزامه في الأخلاق .

ومن شأن النظرة المادية الخالصة أن تنكر أكبر مقررات الدين ، وهي المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي ، وما يتبعهما من جزاء أخروي . فإذا أسقطت هذا القيد ، أصبح من اليسير . تقبل نظرة الانطلاق في مجال الرغبات والغرائز .

وهذا هو أخطر ما في النظرية المادية التي أقام عليها فرويد فكرته في الجنس ، ودعوته إلى إطلاق الغرائز ، وتحريرها من قيود الأخلاق ، وضوابط الدين .

٢

لم تكن نظرية فرويد في أصلها ومصدرها إلا « فرضية » طرحها هذا الطبيب الذي عاش عمره كله بين المرضى من الشواذ والمصابين بالاضطرابات النفسية . وهم الرصيد الذي شكل من خلاله نظرياته ، وكون مذهبه .

وقد كانت هذه الفرضية تقول : إن دوافع الإنسان جميعاً مصدرها الجنس . غير أن الطبيبين اللذين اشتركا معه في نظرية التحليل النفسي وهما « أدلر ولونج » اختلفا معه . وعارضا وجهة نظره . ومع ذلك فقد توارت آراء ادلر ولونج وبخست ، واستعلت آراء فرويد ، وأذيعت ، ودُفعت دفعاً شديداً إلى مجالات الدراسة في الجامعات والبحوث . وأصبحت مصدراً للفن والقصة. ولا شك أن هذا التركيز على نظرية لم تثبت علمياً ، وقد قررها (واحد من ثلاثة) هو تركيز مريب . وهو يكشف في وضوح أن وراءه غرضاً من أغراض السياسة ، وهوى من أهواء المطامع العالمية .

فإذا أضفنا إلى هذا هوية فرويد اليهودي المقيم في (النمسا) في مجتمع يكره

اليهود ، ويحقد عليهم . وما ثبت من صلته بهرتزل ، وانتسابه إلى الدعوة الصهيونية عرفنا إلى أي حد أمكن أن يُدفع رأي كهذا ، حتى يسيطر سيطرة واسعة في دوائر العلم والأدب والثقافة ، وهي دوائر تسيطر عليها الصهيونية العالمية ، ومنها نشأت السريالية ثم الوجودية . غير أن الأمر لم يلبث أن كشف عن أبعاد أخرى أشد عمقاً وخطراً ، فقد تبين بالمقابلة العلمية الدقيقة ، والمقارنة المنهجية أن كل أصول فكر فرويد مصدرها التلمود ، وقد أبان ذلك بوضوح الدكتور صبري جرجس في كتابه « التراث الفرويدي وصلته باليهودية الصهيونية » .

ولا ريب أن المراجع مراجعة دقيقة لأهداف التلمودية، ومخططات الصهيونية ــ كما كشفت عنها البروتوكولات ــ يستطيع أن يرى أن تدمير الإنسان وتحطيم معنوياته ، وتصويره على أنه حيوان تقوم كل تصرفاته من خلال الجنس . هو هدف حقيقي ، قد أمكن أن يوضع موضع التنفيذ ، وأن يعتنق كأنه عقيدة صحيحة بين أمم وأجيال كثيرة .

٣

عارض العلماء المتخصصون نظرية فرويد . وهاجموها من مواقع كثيرة :

أولا : لاحظ العلماء ، ومنهم (ردين فاين) (١) أن التحليل النفسي بنية متحجرة لا تتغير . مما جعل فرويد يقلب النظر أكثر من مرة في أفكاره الرئيسية على ضوء الملاحظات . وان تعميمات فرويد ، قد طرأ على صفاتها تغير كبير . وكان فرويد يعتقد أن نظرياته صالحة للتطبيق ، غير أن التحليل النفسي ، قد أوقعه في تحجر أفقده خصوبته وسيطرته. وليس من دليل يؤكد أن علم النفس في المستقبل سوف يتم على الأسس الفرويدية .

ثانياً : إن نقطة الضعف في فرويد كعالم أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته

---

١ ــ من أحدث المؤلفات عن نظرية فرويد .

قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة . وقد ترك فرويد في كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه ، كيهودي في النمسا المتعصبة ضد اليهود، قاعدة كل تصميماته. ان فرويد ليس خلقه تماماً خلق العلماء . انه أشبه بمتنبىء منه بعالم .

ثالثاً : ذلك أنه يرمي بنظرياته وآرائه دون أن يقدم البرهان العلمي ، والسند الواقعي . انه يفترض، ثم يصدق ما يفترض ، ويبني عليه . وكأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل . وانه من غير شك مخترع للفرضيات أكثر منه مجرباً لها .

رابعاً : اعتمد فرويد على الأساطير اليونانية القديمة . وأقام منها قوانين علمية كاعتماده على عقدة أوديب وعقدة الكترا . وقد أثبت العلماء أن عقدة أوديب ، والعقد الأخرى ، ليست طبيعية المنشأ . وقد أثبت العلماء أنها ظاهرة اجتماعية ، قد توجد في مجتمع ، وتنعدم في مجتمع آخر . وقال مالينوفسكي الباحث النفسي : ان عقدة أوديب ليس لها أثر في أماكن كثيرة . وقال كلاباريد : ان فرويد وأتباعه كالبوم ، لا يرون إلا ما تشتمل عليه كهوف اللاشعور .

خامساً : سجل الباحثون أن فرويد نفسه كان يمر بأزمات نفسية ، وهو يعالج مرضاه . فقد اكتشف فرويد ، وهو يعالج الفتاة سيسيلي المصابة بعقدة أوديب ، أنه هو نفسه مصاب بعقدة أوديب ، وأنه كان يتجه إلى أمه ، ويغار من أبيه .

سادساً : أشار كثير من الباحثين إلى أن (يهودية فرويد) كان لها دخل كبير في صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته . ذلك لأنه كان ينتمي إلى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة ، التي أقل ما ينسب إليها حب المال والانغلاق والتعصب (١) .

---

١ – دكتور فاخر عاقل : بحث عن علم النفس الحديث .

سابعاً : فلسفة فرويد ميكانيكية جبرية تنظر إلى الإنسان كانه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة (١) .

ثامناً : عارض يونج آراء فرويد وقال : إنها ذات جانب واحد ، وغير ناضجة تمام النضوج ، وأن الدافع الجنسي ليست له هذه الأهمية الشاملة التي ينسبها فرويد إليه في حياة الطفل ، وأنه توكيد الذات وليس الدافع الجنسي هو القوة السائدة الإيجابية في الحياة . وأشار ادلر إلى خطأ إرهابية الكبت ومعارضته له . ونبذ أهمية الغريزة الجنسية وأرجع تكوين الشخصية . ونشأة الأمراض العصبية إلى مجرد الرغبة في القوة . واتجاه الإنسان إلى التعويض عن نقص في كيانه .

تاسعاً : أشار الباحثون إلى أن فرويد . اعترف في مناسبات عديدة . أنه لم يكمل البحث ، وأن نظريته ليست مكتفية بذاتها .

٤

إن من أخطر أهداف فرويد هو : تصوير الكبت كسيف مشهر على الأعناق . فقد صوره تصويراً خطيراً ، داعياً إلى إطلاق الطفل من كل توجيه ، وإلغاء كل الضوابط التي تحفظ منطلقاته من العثور والسقوط .

وقد جرت المحاولات من وراء فرويد لإذاعة هذه الآراء ، وإدخالها في مناهج التربية الحديثة ، بالرغم من أن هذه النظرية لم تثبت علميا .

وقد عارض زملاء فرويد ما ذهب إليه من إرهاب في هذا الصدد ، وما حاول أن يصوره من مرض نفسي أو جنون نتيجة العقاب أو الكبت . وقد أثبتت التجارب الإحصائية المتعددة ، أن ضرب الطفل أو إرهاقه لا يؤدي إلى النتائج التي افترضها فرويد .

---

١ – دكتور يوسف مراد في كتابه شفاء النفس .

واعلن الدكتور اسكندر توماس : أن عدداً من البحوث قد أجري بمعرفة فريق من الأطباء النفسيين ، انتهى إلى أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة . وأن إقبال رجال التربية على لوم الآباء ، كان هو المسلك المدمر في تربية الأبناء . ويقول العلماء انهم درسوا أحوال ١٥٨ طفلا غير منحرفين ، بينهم الفقراء والأغنياء ، وتبين أن الأولاد نشأوا أصحاء مستقيمين بالرغم من قيود النظم القاسية التي عاملهم بها الآباء .

وأشار الدكتور توماس : أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل وليس بالبيئة والوسط والحالة الاجتماعية وحدها .

٥

وقد استعرض كثير من الباحثين نشأة علم النفس الحديث ، فقالوا إن علم النفس نجح حين تواضع ، وأخفق حين حاول أن يحل محل فلسفة الأخلاق .

يقول الأستاذ أحمد خاكي : حين أبديت للعالم أصول علم النفس بما تحمله من مباحث التحليل النفسي ، وبما تتضمنه من وصف نفسية الجماعة ، حينما أبدي كل ذلك . تطرق الشك في قيمة الفكرة ، وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس السلطان الذي كان لها في الماضي .

ويرجع الشك في قيمة الفكرة ، أن علم النفس الحديث ، يرى أن الإنسان مسير أمام جملة من العوامل التي لا يحكمها العقل . وعلم النفس لا يستطيع أن يخلق لنا مثلا أعلى ، لأنه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء . ذلك لأنه علم وصفي ، يسير في نطاق ضيق من التجارب ولأنه علم تجريبي . فقد عالج حالات « شاذة وغير شاذة » من غير أن يقيم معايير يستطيع المرء أن يتخذها لنفسه غاية أو سبيلا . فحينما طغى علم النفس على فلسفة الأخلاق ، فقد العالم كثيراً من الغايات التي كان قد استقر على الإيمان بها . واستشرف

قادة الفكر على حالة من الشك ، طافت بنفوسهم ، حتى أصبحوا يشكون في مبلغ عقائدهم هم أنفسهم .

٦

كشف كثير من الباحثين الصلات العميقة بين الفرويدية والأيدلوجية التلمودية . وإذا رجعنا إلى البروتوكولات وجدنا هذا النص : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان، فتسهل سيطرتنا » «إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس . لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية . وعندئذ تنهار أخلاقه » .

في ضوء هذا كان عمل فرويد فكانت نظريته : ان الأخلاق تعوق التطور ، وان الكبت ضار بكيان الإنسان ، وان التسامح نوع من الشذوذ ، وان الأخلاق تتسم بالقسوة وانه من أجل تجنيب أخطار العقد والاضطرابات يترك الشباب بدون توجيه أو ضوابط . والهدف هو تحطيم الأخلاق . والقضاء على المسؤولية الفردية .

والمعروف أن فكر فرويد لا سند علمي له ، وأنه أحقاد وضعت في قالب براق ، وأنها وجدت وقودها في تطلع النفس البشرية إلى الإباحة ، وقد وجدت من الفلسفة سندها ومبررها ، وأنها وضعت لمجتمع معين ، وأنها استمدت كل مفاهيمها من وثنيات الفكر اليوناني ، واتصلت ببيئات وأديان غير الاسلام . وأن القوى الخفية ، قد حملتها إلى الأدب ،والقصة، والمسرح ، والسينما ، والإذاعة ، وبيوت الأزياء ، وأدوات الزينة .

٧

ولا ريب أن فرويد هو ثمرة الأيدلوجية التلمودية في أدق مراحلها . وقد أشار إلى هذا المعنى عدد من الباحثين : (سيجموند فرويد) هذا الرجل

أراد أن يحطم احترام الإنسان لنفسه تحطيماً كاملا . ومن يقرأ فرويد : يدرك تماماً أنه ينفذ مخططاً يهودياً جباراً . أراد أن يصم الجنس البشري بأنه جنس متحلل . ينطوي على أسوأ النوايا ، وأخس الرغبات ، حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه ، ويريد أن يقتل أباه ، وبنى فلسفته ومذهبه على هذا ، حتى جعل الناس جميعاً يشكون في كل فضيلة ، وكل عاطفة رقيقة (١) . وإذا نحن رجعنا إلى الهدف . رأينا كيف مهدت الصهيونية لاستيعاب الرأي العام المسيحي في الغرب . ووقفت وراء الزعامات العلمية ، ووراء عالم الطبيعيات (دارون) ونقلت مذهبه إلى تشكيك المجتمع الإنساني في طبيعة الخلق ، ووراء نيتشه وهو ينادي بسياسة القوة وألاّ رحمة ، ثم السيطرة على العلوم والفكر . وبالسيطرة على الفكر العالمي عن طريق التعليم والثقافة ، يمكن القضاء على كل فكر . وزرع الشك والريبة في كل أفق للوصول بالفكر البشري إلى مرحلة الحيرة . ومن يتابع تاريخ الفلسفة ير دور اليهود في ذلك . وكيف قام رجالهم (فرويد ، ماركس ، دوركايم ، ليفي بريل ، سارتر) على بناء الفلسفات المدمرة للقيم الإنسانية .

وقد أشارت مخططات الصهيونية العالمية إلى ضرورة تخريب العالم ، قبل السيطرة عليه . وإن أهم الأهداف التي يمكن القول دون تردد بأنها حققت نجاحاً ، هو احتواء الفكر الغربي ، والسيطرة عليه ، وتهويده ، ودفعه إلى الغايات التلمودية ، وذلك بإسقاط الإيمان بالله ، وإسقاط الأخلاق ، وإسقاط الجزاء الأخروي .

٨

نقل الاستاذ عباس العقاد عن عدد كبير ممن ترجموا لفرويد (٢) . وخاصة ما كتبه الدكتور : أرنست جونس . أكبر تلاميذ فرويد الأحياء في الجزء

---

١ – محمد خليفة التونسي

٢ – نقلا عن الأستاذ عباس محمود العقاد : الأخبار (مايو ١٩٥٦) .

الثاني من ترجمة فرويد . قال : إن فرويد كان يحرق أوراقه قبل أن يتمكن أحد من الاطلاع عليها . وانه كان يحيط نفسه بأعوان من اليهود . وان الأطباء النفسانيين الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو ، وعدتهم نحو أربعة آلاف ، قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه، يتولاها رجل مسؤول عن مركزه العلمي والرسمي هو : الدكتور « برسيفال سيلي » مدير معهد النفسيات بولاية النيواز .

وخلاصة حملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه بها ، وأن آراءه لا تضيف شيئاً إلى القيم الإنسانية . لأنه يرتد بالإنسانية إلى أغوار الباطن . ويهمل جانبها المنطقي الشاعر ، وأنه لم يكن يفهم المرأة ، ولم يكن يتذوق الموسيقى، ولا يحس جلال العقيدة. وقال : إن العالم استطاع أن يضع فرويد على المشرحة بعد أقل من عشرين عاماً من وفاته .

ونقل الأستاذ العقاد عن مترجم حياته : الدكتور أرنست جونز : إن فرويد كان عرضة للإغماء على أثر بعض المفاجآت . وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له في علاقاته بغيره . وكانت لأحلامه وجوه خفية ، ترمز إلى دلائلها سريرته الباطنة ، وكانت له ضروب من القلق تنم عن باعث من بواعث الحيرة المكتومة ، وكان أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب في سبيل التشبث بالتفسير الجنسي للعقائد والعادات ، تشبثاً يربو في إصراره وشدته ، على تعصب المتعصب اللدود لمذهبه ودينه .

ومن قوله ليونج : عدني أنك لن تتخلى يوماً عن الإيمان بالتفسيرات الجنسية . إلا أن يونج لم يلبث أن تزحزح بتفكيره شيئاً فشيئاً عن ذلك الاغراق في العصبية الجنسية التي تحيط بكل علة ، وتتغلغل وراء الأسرار في أعماق كل طوية . وقد خالفه تلميذه الفرد أدلر كما خالفه يونج .

وفرويد : كان مجموعة من العقد النفسية والعادات الغريبة . ولم يستطع أن يشفي عقله الباطن من هذه العقد النفسية إلى آخر حياته . كان ينسى الأسماء، ومنها أسماء معارفه . وكان يتتبع أوراقه التي تدخل في ترجمة

حياته فيحرقها ، وكان يؤمن بأنه سيموت في نهاية الحرب العالمية الأولى . فمات في بداية الحرب العالمية الثانية . وكان يدخن عشرين سيجاراً في النهار ليهدىء من ثوراته العصبية . وكان في طفولته ينسى نفسه ليلا في فراشه . وكان يخشى من السفر بالقطار ، ويحضر إلى المحطة قبل موعد السفر بنحو ساعة . وكان دائم العزلة ، لا يسمح لأحد أن يصارحه طويلا .

٩

وفي السنوات الأخيرة جرت أبحاث عديدة عن سقوط الفرويدية ، بعد أن تعرضت في العقدين الأخيرين إلى هجمات متوالية وحملات عنيفة تستهدف تجريدها من «العلمية» . وقد أشار الباحثون إلى أن المؤتمر الذي عقد في انجلترا ١٩٧٠ للأطباء النفسانيين ، قد كان نقطة تاريخية خطيرة . فقد ألقى العالم النفسي (ايليوت سلتير) كلمة أعلن فيها أن نظرية فرويد : ليست علماً ، بل هي أسطورة (ميثولوجيا) ولدت في رحم خصب من اللاعلمية. وقال سلتير ان نظرية فرويد سوف لا يكون لها مستقبل . وأشار إلى ما صرح به (كارل بوبر) من أن التحليل النفسي فشل في إيجاد نظرية لا يمكن دحضها .

وجاءت ضربة أخرى على الفرويدية ، في حلقة دراسية ، نظمتها أكاديمية العلوم في نيويورك . وضمت ١٨ فيلسوفاً . حيث استثنوا علم التحليل النفسي لفرويد من ميدان العلوم (١) . وكانت وجهة النظر أن نظرية خلابة ، كنظرية فرويد برزت قبل نصف قرن ، كان يجب أن تكون الآن علماً له مكانته وأسسه . ولكنها لا تزال تدعو للخجل والرثاء ، لأنها لم تتعد حدود النظرية .

ويقول العلامة سلتير : ان نظرية فرويد ، فرقت علماء النفس . وان علم الأمراض النفسية يعاني من جرح عميق أحدثه جسم غريب ، هو نظرية فرويد . وهو جسم غريب لسببين الأول : أنه لا يمت للعلم بصلة ، والثاني

---

١ – أشار إلى هذا : فخري الدباغ في بحث له ، بحث عنوانه : الفرويدية ، وهل قاربت الزوال .

لأن ما يقدمه ويحققه للمريض يختلف عما يحققه العلم الطبي في أي فرع من فروعه .

ثم قال : إن إزالة هذا الجسم الغريب لكفيل باندمال جرح العلوم النفسية. ويقول فخري الدباغ بعد أن استعرض عشرات المواقف التي وقفها العلماء في مواجهة نظرية فرويد : من كل ما تقدم ، نرى أن ما يؤخذ على نظرية فرويد ، هو أنها غير علمية ولم تخضع نفسها بما فيه الكفاية للتحليل والإحصاء والمقارنة ، وأنها أحدثت الفرقة والنزاع بين علماء النفس ، وأنها أشبه بأسطورة وعقيدة ذات تقاليد صارمة ينصاع لها المؤمنون والأتباع والمعالجون على طريقتها . ومن الطبيعي ألا يتوقع بقاء نظرية أسطورية خرافية ، طيلة هذه السنين دون تصدع ، أو انحدار ، أو تدهور » .

١٠

أشار الباحثون الذين يحملون فكرة الفرويدية الجديدة إلى أن هناك تناقضاً كبيراً قد ظهر خاصة في غريزتي الجنس والموت ، وعقدة أوديب والجنس عند الأطفال . وهذه هي النقط الأربع التي خالف فيها فرويد الفطرة الانسانية ، والأديان ، وعارض الأخلاق .

يقول جوزيف ريتولدز : توصل علم الأجناس إلى نتائج وشواهد هائلة ، تدحض بعض الافتراضات المبدئية لفرويد . مثل غريزتي الجنس والموت ، ومراحل الجنسية الطفلية الفرويدية وعقدة أوديب .

وان التجارب التي أجريت لاختبار بعض هذه المفاهيم ، أكدت زيفها. وأثبت ذلك « روبرت سيرز » في كتابه : نظرة على الدراسات الموضوعية في مفاهيم التحليل النفسي . فقد انتهى إلى القول : بأنه قياساً على معايير العلوم الطبيعية ، يتضح لنا أن التحليل النفسي ليس علماً حقيقياً ، فالتحليل النفسي يرتكز على تكنيك لا يسمح بتكرار الملاحظة ولا يملك بنية واضحة تؤكد صوابه ، ثم إنه مصبوغ بصبغة غير معلومة بالايحاءات الذاتية للملاحظ .

ثم يصل إلى المحز حين يقول : إن نظرية التحليل النفسي القائمة على غريزة الجنس الثابتة ، والموجهة للسلوك . عجزت عن تقديم تفسير شاف عن هذه الحركات الواعية التي تولدت كرد فعل لظواهر اجتماعية محددة . وان التجارب التي أجريت بين طوائف العمال، والشباب والفلاحين ، والزنوج ، أثبتت عدم صحة ما ذهب إليه فرويد .

١١

ومن ناحية أخرى . فإن العالم النفسي (إيفان بافلوف) ، أعلن أن نظرية فرويد ، وهي النظرية التي ترجع جميع الاضطرابات إلى أسس جنسية بحته ، هي معول هادم لنفوس الشباب ، ومخدر مميت لنفوس أبناء الشعب .

ويرد بافلوف مصدر الانحراف إلى البيئة . كما ردها أدلر إلى تأكيد الذات وتعويض الشعور بالنقص . كما يردها يونج إلى النزوع نحو التفوق .

الأخلاق

١

كان أخطر ما طرح في مجال الأخلاق : نظرية ليفي بريل القائلة بمعارضة ثبات الطبيعة البشرية ، وافتراض أن كل عصر ، وكل جنس له أخلاقه . وهذه هي أصرح دعوة لهدم الالتزام الأخلاقي ، والتحلل منه . وهي حلقة في نطاق الحلقات المتوالية التي طرحتها الفلسفة المادية . في مختلف مجالات الاقتصاد والاجتماع والنفس ، لاستكمال حلقة السيطرة على البشرية ، وتوجيهها وجهة مغايرة للفطرة وللمفاهيم الانسانية الصامدة الثابتة، التي جاءت بها الأديان ، وجاء بها الإسلام خاتماً لها .

ولا ريب أن محاولة صدع حقيقة وحدة الطبيعة البشرية ، هي محاولة جريئة . ذلك أن أفراد الجنس البشري توحد بينهم صفات نفسية وخلقية عامة ، تتصل بوحدة التركيب البيواوجي ، والعقلي ، والاجتماعي للإنسان من حيث هو إنسان . وإن آثار البيئة أو الجنس أو العصر هي مسائل محسوبة في نطاق النظرة الكلية الجامعة ، وان الاختلاف فيها بالزيادة أو النقص ، لا يغير من القاعدة الأساسية ومن الصفات الجوهرية الثابتة . ولا ريب أن النظريات الفلسفية . التي ظهرت في نطاق الفلسفة المادية ، قد حاولت في المرحلة الأولى ، إخراج الأخلاق من نطاق الدين ، وعزلها عن تبعته ، وخلق منهج أخلاقي منفصل يقوم على فكرة الواجب. ثم جاءت المرحلة الثانية، وهي العدول

نهائياً عن مهمة علم الأخلاق في تحديد قواعد السلوك . وقصره على دراسة الأخلاق على أنها ظواهر اجتماعية ،ومعارضة الحقيقة القائلة بأن الطبيعة البشرية ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان .

٢

قامت هذه المذاهب الفلسفية في اتجاه الأخلاق على « الاباحة » ، ومعارضة الضوابط ووصفها بأنها حرمان وكبت .

وقد استمدت مفهومها هذا من الفلسفة اليونانية الوثنية ، التي عرفت بالأبيقورية والتي ترى أن اللذة الجسمية هي الغرض الأسمى من الحياة .

وبذلك أخرجت الفلسفة الحديثة الأخلاق عن مفهومها الطبيعي بوصفها الجدار القوي، الذي تقف عنده مطامع الإنسان وأهواؤه، والحائل دون تدمير الفرد لنفسه ، وإقامة الضوابط الكفيلة . بسلامته ولا ريب أن الأديان والأخلاق جزء منها ، ومرتبطة بها ، ولا سبيل إلى أن تنفصل عنها ، تعمل إلى إقامة بناء الإنسان على قواعد من الثبات والصمود في مواجهة أحداث الحياة ، وحماية كيانه من الانهيار تحت صدمات المواقف ، أو أخطاء التصرفات ، ولذلك فقد كان هدفها هو إجراء عملية ضبط يقظة دائمة ، تحمي الانسان من أخطارشهواته ورغباته ومطامعه ، والحد من قواه المدفوعة إلى الشر والرذيلة .

وقد ظلت ضوابط الأخلاق مرتبطة بالعقيدة ، حتى يكون لها التزامها الحقيقي ، وهو الالتزام المرتبط بالجزاء الأخروي . ولا ريب أن الإيمان بهذا الجزاء بعد البعث والحساب هو العامل الأكبر في إعطاء المسؤولية الأخلاقية مكانها الحقيقي . وان الانسان إذا تجاوز هذه الحقيقة عجز عن أن يجد الرادع الذي يرده ، فإذا ما جاءت الفلسفة المادية ، وحطمت أمامه كل جدار ، وأنكرت كل مسؤولية وجزاء وبعث . فإن الأمر قد أصبح بالنسبة له خطيراً. وقد أصبح أشد خطورة بتحريضه على الاندفاع نحو مطالب الغريزة وأهوائها ، وإطلاق يده نحو عمل كل ما يريد على النحو الذي تدعو إليه الوجودية .

وبذلك فقد سقط الإنسان في هوة خطيرة ، وأزمة كبرى هي أزمة القلق والضياع التي تمر بها البشرية في الغرب في هذا العصر . ونحن نعرف الهدف مقدماً ، ونعرف أن الأيدلوجية اليهودية خططت له ، وأن بروتوكولات صهيون قد أشارت إليه في صراحة تامة . وفي ضوء هذا كله ، فإن أي نظرة إلى مفهوم الأخلاق داخل نطاق الفلسفة المادية ، فإنها لن تستطيع أن تصل إلى شيء ما . ذلك لأن منطلق البحث أساساً هو : ما هو هدف الإنسان في هذه الحياة ، وما هي مسؤوليته الفردية ، والتزامه الأخلاقي .

إن النظرية المادية لا تستطيع الإجابة عن هذا السؤال ، والذين يؤمنون بالعلم وحده لا يصلون إلى شيء . وقد قال ليونارد داروِن : إن العلم لا يمكن أن يتخذ مرشداً للسلوك . وانه إذا كانت هناك إرادة حرة . فلا بد أن يكون هناك شيء خارج العلم . ولا تقف الفلسفة المادية عند عجزها عن تحديد هدف الإنسان في الحياة ، بل إنها ترفض فكرة هذا الهدف . ويقول الفلاسفة : إن ظهور الإنسان على هذه الأرض كان عارضاً ، وليس مقصوداً . وقد وصل علماء الأنتربولوجيا . وجلهم من اليهود . إلى أن المجتمع البشري ليس له هدف. أما المؤمنون بالدين الحق ، والذين ينظرون إلى الحياة وقضاياها في ضوء الحقائق الكبرى التي ألقاها الإسلام ، وكشف عنها القرآن ، فإنهم يرون أن للحياة غاية ، وغاية كبرى، وأنها مسؤولية وأمانة للإنسان ، وامتحان لمقدرته على حمل مهمة الاستخلاف في الأرض، وأداء دوره في العمران والبناء في ظل حدود الله والضوابط التي حددها من الوجهة الأخلاقية والاجتماعية .

وأن هذا الكون لا يمكن أن يكون قد خلقه الله باطلاً ، وأن له غاية «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون» . ومن منطلق الفهم الرباني الشامل غير المادي المنحصر ، تتكشف أهمية الأخلاق في بناء الأفراد والمجتمعات . ومن الواضح ، أن الحضارة المعاصرة قد نحت الدين والأخلاق جانبا . وأغفلت تماماً الجانب الروحي والنفسي من الحياة، وركزت على

الجانب المادي وحده . وأعطته مداه ومنطلقه الى ابعد الغايات . وبذلك أحدثت خللا خطيراً ، هو مصدر الأزمة التي يعانيها الإنسان المعاصر اليوم .

يقول العلامة جود في كتابه « سخافات المدنية الحديثة » : إن هذه المدنية ليس لها توازن بين القوة والأخلاق . فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم ، ومنذ عصر النهضة ظل العلم في الارتقاء ، والأخلاق في انحطاط حتى بعدت المسافات بينهما . وقد تقدمت العلوم خلال القرون الأخيرة في جميع الميادين بلا استثناء في حين أن الأخلاق لم ترتق ارتقاء متناسباً مع تقدم العلوم . بل إن تقدم العلوم قد أحدث هذه الفجوة الخطيرة حين اتخذ من بعض أساليب العلم وسيلة لهدم الأخلاق ، وتمزيق ثباتها ، والدعوة إلى ربطها بالمجتمعات وعزلها عن مصدرها الأصيل : الإنسان .

٣

إن الأخلاق في مفهوم الإسلام ليست نظرية ، ولكنها تطبيقية . وليست مثالية ، ولكنها واقعية ، ومن ثم فقد تجاوز الإسلام بها خطر الطوبيات الخيالية ، التي تعجز أمام الواقع وتبدو مستحيلة أمام طبيعة الإنسان نفسه .

ولقد بدأ الإسلام من نقطة أساسية : تلك هي الاعتراف بالرغبات والمطامح البشرية على أنها حقيقة واقعة ، ثم تحقيق هذه الرغبات مع وضع الضوابط والحدود التنظيمية التي تحول دون الصدام أو الفساد . وبذلك تجاوز الإسلام الخطرين القائمين :

خطر دفع الإنسان إلى الصعود على النحو الذي يخالف به الفطرة ، أو يحول بينه وبين التوازن . مما تدعو إليه بعض العقائد من زهادة وانفصال عن المجتمع .

أو خطر دفع الإنسان إلى الهبوط على النحو الذي يخالف الفطرة أيضاً مما تدعو إليه بعض الفلسفات من إباحية وإسراف على النفس والمجتمع .

فالإسلام حين يضع الإنسان في الموضع الطبيعي المتصل بفطرته وطبيعته ، ويمكنه من ممارسة كل رغباته . إنما يحول بينه وبين الخطر المترتب على الإطلاق الكامل ، أو الانغلاق التام . وهو في نفس الوقت يجعله قادراً على تحمل المسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي . اللذين يصدران عن حرية الانسان في الاختيار ، وإرادته الكاملة ، مما يؤهله لتحمل المسؤولية .

هذه المسؤولية هي الجزاء الذي يتم في اليوم الآخر . يوم البعث ، وهو الحقيقة التي قررها الدين الحق ، والتي تضع الاجابة الحقيقية على السؤال الحائر عن وجود الإنسان في هذه الحياة ، وعن الحكمة من الحياة الأرضية . ولا ريب أن كل محاولة لخلق منهج أخلاقي للإنسان (بعيداً عن هذا المفهوم) على النحو الذي قال به الإغريق القدامى ، أو الغربيون خلال فترة اتصال الثقافة الأوربية بالمسيحية . من ان الإنسان يستطيع أن يبني الاتجاه الأخلاقي على العقل والإدراك ، أو الواجب ، أو الوازع الداخلي ، أو الارتفاع بالنفس عن الدنايا . كل ذلك زيف لا يستطيع أن يحقق الالتزام الأخلاقي ، أو يجعله في نطاق الفطرة ، كما تفعل الحقيقة التي جاءت بها الأديان . والتي تتجلى في الإسلام على أروع صورة .

فقد أقام الإسلام الأخلاق على أساس الإيمان بالله ، وفي نطاق العقيدة ، ومن خلالها وأنكر إمكان قيام أخلاق من خارج الدين .

ذلك أن منطلق المسؤولية الأخلاقية ، إنما يرتبط أساساً بالاعتقاد بالله والإيمان بالبعث والجزاء ، والدار الآخرة ، وبأن الله يعلم ويحاسب على كل تصرف .

وقد أشار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . إلى أنه إنما جاء ليتمم مكارم الأخلاق . فالمفهوم الأخلاقي الرباني ، قد استمر في الحياة البشرية ،متصلا بالأديان إلى أن استوفى صورته الحقة في الإسلام .

وقد أقام الإسلام مفهومه الأخلاقي على التقوى (وليس على الرهبنة والسعادة) وأقر تحقيق الرغبات في حدود الضوابط التي تحفظ النفس والمجتمع .

والأخلاق في حقيقتها : تزكية للنفس وتصعيد لها ، وإعلاء بها عن الشر والإباحة والانهيار ، وفطم لها عن الشهوات . ولا ريب أن الدعوة إلى التسامي من خلال الواقع . قد جاء الإسلام فيها بأصدق قاعدة. « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ».

ومفهوم الحرية في الأخلاق الإسلامية : هو تحرير الإنسان من كل قيود العبودية ، وفي متقدمتها تحريره من شهواته وعبوديته لأهوائه ، وتحديد معنى الحرية بأنها ستنتهي عندما تصبح عدوانا على حرية الآخرين .

٤

إن نظرة الفلسفات الغربية إلى النفس على أنها شريرة بطبعها ، وأن الانسان محكوم عليه بالخطيئة هي نظرة لا يقرها الإسلام . وإليها ترجع كل التحديات التي اتصلت بالمفاهيم العقائدية والأخلاقية .

فقد انطلقت المفاهيم الغربية من فرضية — كانت ولا تزال عرضة للشك والارتياب — ولم تنطلق من أصل ثابت عندما قامت على فكرة الخطيئة . وفكرة الخطيئة فكرة فلسفية قديمة ، تجددت في الفكر الغربي المسيحي بصورة جديدة ، ولم تكن في واقع الأمر حقيقة تاريخية أو علمية . ولقد حاولت فكرة الخطيئة ، السيطرة على الفلسفة الغربية ، وعلى الأدب والقصة . كما كانت بعيدة الأثر في مفاهيم الأخلاق . وفي تفسير غاية الحياة . ووجود الإنسان على الأرض ، وهي تنظر إلى الإنسان نظرة متشائمة مظلمة ، وتقرر أنه شرير ، ومن هذا المنطلق تفسر استعداده للانتقام والعدوان ، والثأر ، والسيطرة ، وترد ذلك كله إلى الخطيئة الأولى ؛ التي كانت مصدر خروج آدم من الجنة ، وترى أن هذه الخطيئة سيف مصلت على رقاب البشرية منذ اليوم الأول إلى نهاية الحياة ولقد كشف الإسلام عن حقيقة آدم ، وعرف كيف أنه حين أخطأ تاب الله عليه . وأن خطأه كان خاصاً به وحده ، وأنه ليس مرتبطاً بأي فرد آخر من أفراد الجنس البشري .

ومن خلال نظرية (الخطيئة) المسيطرة على الفكر الغربي . تبدو تلك النظرة القائمة إلى الإنسان ، وتصور النفس الإنسانية على أنها شريرة في أصلها . والحق هو ما قرره القرآن في تأهب النفس للشر والخير ، وأن الأمر متوقف على مدى قدرة الإنسان على تزكية النفس وتحريرها من الشر . ودفعها إلى الخير . وأن مهمة الدين بعباداته وفروضه المتجددة على مدى ساعات اليوم ، هي إيقاظ النفس ، وتجديد ايقاظها ، وتذكيرها ، ودفعها إلى العمل الصالح . ومن قدرة الإنسان وإرادته ، وفي ظل إيمانه بالله ، وخوفه من مسؤوليته وعقوبته يكون قادراً على أن يتحرك داخل إطار الضوابط الاجتماعية. التي تحميه من الخطأ .

ولقد حرر الإسلام بذلك الإنسانية من نظرية ليست إلا قيداً شديداً ، على وجود الإنسان .

٥

اختلفت غاية الإسلام في الأخلاق عن غاية الفلسفات التي دعت إلى السعادة كما اختلفت غاية الإسلام في الأخلاق عن غاية العقائد التي دعت إلى الزهد .

أما الاسلام فقد ربط الأخلاق بالدين ، وجعلها سداً منيعاً في وجه الانحلال والفساد للفرد ، والانهيار للمجتمعات . وأقام العلاقة الصحيحة بين الانسان ونفسه ، وبين الانسان والمجتمع . وجعلها وسيلة إلى إصلاح الحياة الدنيا ، وإلى الجزاء في الآخرة . « وابتغ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ . ولا تنسَ نصيبَكَ منَ الدنْيا . وأحْسنْ كمَا أحْسَنَ اللهُ إليكَ . ولاَ تبغِ الفسادَ في الأرضِ . إنّ اللهَ لا يُحب المفسدين » .

ويقف الإسلام بقوة عند القاعدة الأساسية القائلة بارتباط الأخلاق بالجزاء في الآخرة . وتلك نقطة من أهم النقاط التي تحاول الفلسفات

إفسادها عن طريق مذاهب الحلول ، أو الاتحاد ، أو وحدة الوجود ، بالقول بأن الإنسان جزء من ذات الله تعالى ، وأن عمله كذلك ، وهي محاولة باطلة لإسقاط الفرائض والالتزامات والمسؤوليات ، وإسقاط قاعدة أساسية . تلك هي قاعدة البعث بعد الموت والجزاء بالحساب (ثواباً وعقاباً) . وقد أكد الاسلام على مسؤولية الإنسان عن أعماله ، تأكيده على حرية إرادته ، في الضوء الكاشف الذي دل بوضوح على الطريقين المفتوحين أمام الإنسان ليختار أحدهما ، ومع منحه كل المعونات التي ترجح أمامه طريق الله والحق .

وأبرز ما تتسم به مفاهيم الاسلام للأخلاق هو رسمه للمناهج والقواعد ، وربطه بين الإسلام والإيمان ، وبين العلم والعمل ، ومخاطبته للعقل والقلب .

وأبرز مظاهر الأخلاق في الإسلام . الوسطية والموازنة والملاءمة مع الواقع ، والبعد عن جناحي الافراط ، والتفريط ، والقصد في الغنى والفقر . وهو حين أطلق للإنسان رغباته جعل لكل رغبة من الرغبات قاعدتها وضوابطها . ففي المال : أعطى الإنسان حق جمعه ، ودعاه إلى الزكاة والصدقة ، واتقاء شح النفس . وفي الجنس : أعطى الإنسان حق ممارسته في حدود الزواج ، وبعيداً عن الزنا ، ومن خلال بناء الأسرة والمودة والرحمة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل إنه أعطاه حكمة الأمور :

فالمال له مهمة خاصة هي بناء الحياة ، والجهاد في سبيل الله ، وليس مطلوباً لذاته لاكتنازه ، أو للتعامل فيه دون حدوده وضوابطه ، وأهمها : تحريره من الربا . أما الجنس فمهمته بناء الحياة ، واستمرار النوع . وليس مطلوباً لذاته ، بل لتحقيق هذه الغاية العليا . وله ضوابطه من الزواج ، ومن حماية الكيان البشري . وتدور الأخلاق حول حماية الفرد من السقوط والانحدار ، والتدهور والتحلل . ومن هنا تجيء ضوابط الطعام والمال والجنس ، بهدف إبقاء الأجيال البشرية قادرة على العمل وليس ساقطة تحت أقدام الشهوات ، غير قادرة على المقاومة والنضال . ولما كان الإسلام ينظر إلى الإنسان ككل ، فإنه يعمل على الموازنة بين عقله وقلبه ، وبين حاجاته وغاياته ، وبين

روحه وجسده في سبيل الغاية العليا : وهي ترقية الحياة والارتفاع بالإنسان إلى الصورة الكريمة التي تليق به كمستخلف لله في الأرض . وقاعدة الإسلام الأخلاقية : هي أنه لا يمنع الانسان شيئاً من رغباته ، ولكنه يحميه منها بأن يضعها في قوالب ، ويضع لها ضوابط . وخاصة فيما يتعلق بالطعام والمال والجنس والبقاء .

٦

لا ريب أن الأخلاق الإسلامية نسيج وحدها ، ومنهج متميز ، فليس هو مفهوم اليونان الداعي إلى السعادة واللذة ، ولا مفهوم العقائد الداعي إلى الزهد . وليست الأخلاق الإسلامية هي فضائل الجاهلية العربية . وإنما هي منهج متكامل مرتبط بالعقيدة ، يعترف بالإنسان ككل ، ومؤثر في كل جوانب الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية وأدب ، وتربية . وهي منهج عملي ، وليست نظرية فلسفية ، وتقوم على مبدأين : الالتزام والجزاء الأخروي ، وتتشكل من خلال تقدير الإسلام وتقريره للغرائز والميول في ممارستها مع ضبطها ، وليس في الصد عنها ، أو احتقارها . وينطلق في اتجاه المقدرة . ومراعاة الظروف والوسع ، والعفو والسماح عند الاضطرار ، وتقبل التوبة عن الخطأ . فضلا عن اتصاف منهج الأخلاق الإسلامية بالوسطية والواقعية ، وارتباط المطلق فيه بالنسبي والمثالي بالواقعي . وهو في نفس الوقت قد دحض الشبهات القائلة بفصل الأخلاق عن الدين ، أو القول بأن الملحد يستطيع أن يكون أخلاقياً . وقد أقامت القواعد الأخلاقية الإسلامية جداراً قوياً ضد الفوضى ، والظلم ، والشر عامة ، وبقيت في نفس الوقت مرنة تسمح للأجيال المتعاقبة بالعمل داخل إطارها الواسع .

ومن أبرز الملاحظات في هذا الصدد ، تفرقة الإسلام بين الأخلاق الثابتة ، والتقاليد المتغيرة . فالأخلاق ثابتة لاتصالها بالانسان (لا تبديل لخلق الله) ، ولأنها متصلة بالقيم العليا للدين كله . أما التقاليد فهي متغيرة ، لأنها متصلة بالوسائل العارضة ، ولأنها من صنع الناس . والاخلاق الإسلامية . تختلف

اختلافاً كبيراً عن مذاهب الثقافة أو السعادة ، أو الواجب . وهي في مجموعها أخلاق تقوى .

٧

الاخلاق وفكرة وحدة الوجود

أجمع العلماء على أن القول بوحدة الوجود نفي للألوهية . وإثبات للكائنات وحدها . ووحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله ، وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط ما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم . فالقول بأن الله داخله صورة أخرى للقول بنكرانه . والقول بوحدة الوجود تفكير هندي قديم .

والمسلمون يؤمنون أن الله هو واجب الموجود ، وهو سرمد لا يحده زمان ولا مكان . وأن ممكن الوجود هو كل ما سوى الله مما خلق — ولا ريب أن القول بوحدة الوجود هو أخطر سهم مسموم موجه إلى الالتزام الأخلاقي ، كما جاء به الإسلام ؛ إذ أنه يلغي المسؤولية الأخلاقية التي هي مناط الثواب والعقاب .

الفصل الثاني

الوجوديّة

١

من الدعوات الهدامة التي راجت رواجاً كبيراً في العالم كله : « الوجودية » وقد شملت جانبين : جانب الفكر ممثلا في الآراء والنظريات التي طرحها دعاتها القدامى والمحدثون . وأهمهم كيركجرد وكامي وسارتر . وجانب التطبيق ممثلا في الجحور والجماعات والصور المختلفة التي أولتها الصحف العالمية اهتماماً كبيراً ، ووجدت من الشباب التفاتاً وإعجاباً .

وقد وجدت الوجودية صدى واسعاً في بعض البيئات . لأنها جاءت بعد أن أفْسَحَتْ لها الطريق مذاهب وأفكار من المادية ، وإنكار الله ، وإنكار البعث ، وما حملته الرياح من أفكار تقول بإعلاء الجنس وإباحة الرغائب ، وتصل إلى القول بأن الإنسان خاضع لما يقرره العلم بالنسبة للحيوانات والمادة . وقد سادت في السنوات الخمسين الأخيرة موجة من التنكر للأديان والأخلاق في العالم كله، ووجدت فيها مثل هذه الدعوات مجالا خصباً للازدهار والانتشار .

وقد كانت الوجودية رد فعل لأشياء كثيرة منها : الدعوات التي ترى

أن الإنسان ليس إلا « ترساً » في آلة كبيرة ، ليس له وجود ، أو كيان منفصل. ومنها صيحة الحرب المدمرة ، وما حصدت الحرب العالمية الأخيرة من أرواح ، وما يزال يتهدد العالم من أخطار الصواريخ والقنابل الذرية . كل هذه الأخطار حين تواجه النفس الإنسانية التي تجردت عن الإيمان بالله لا تجد طريقاً لها ، إلا الاتجاه في طريق الانحلال ، حيث يُتصَوَّرُ أن الحياة هي الغاية الوحيدة ، وهي في نفس الوقت غاية مهددة بالزوال في أي لحظة . هذه هي النار التي توقد الوجودية تحتها ، وهذه هي الصيحة التي ترفعها لتخدم الهدف الكبير الكامن مِنْ ورائها . وهو إشاعة الانحلال ، ودفع الإنسانية إلى الدمار الأخلاقي .

من هنا يجد الشباب في صيحات سارتر ، والبير كامي أصداء مشاعر تطوف بالنفوس ، ثم لا تجد لها طريقاً إلا نحو العنف والإباحة ، وتدمير القوى الإنسانية . وتدور الوجودية حول عدة مفاهيم تصدر أساساً عن العقل المكدود ، والنفس القلقة ، ولا تصدر أيضاً عن الإنسان في طبيعته الأصيلة ، ولا فطرته السليمة . وتتلخص هذه المفاهيم في هذه الصيحات :

إن الحياة بلا معنى ولا هدف . وإن العالم وجد كي يموت فيه الإنسان . وإن الفكر محكوم عليه بالوحدة . وإن الإنسان محكوم عليه بالقلق . وما دمنا سنموت ، فليس لأي شيء معنى ، وإن مغامرتنا البشرية لا جدوى لها ، اليوم كالغد ، والغد كبعد الغد ، وإنه لا طعم لشيء ، ولا لذة لشيء ، ولا أمل في شيء ، ولا يأس من شيء .

هذا العالم وُجِدَ بلا داع ، ويمضي لغير غاية . يولد كل مولود بدون سبب عقلي وبلا داع ، وتمتد حياته بواقع من الضعف ، ثم يموت بالمصادفة . العالم كله خداع في خداع . إننا موجودون بلا سبب عقلي . والعالم يمضي إلى غير غاية .

٢

يمكن القول بأن الوجودية : هي إحدى محاولات الفكر الغربي في فهم الحياة فهماً منفصلاً عن الدين والأخلاق ، في نطاق النظرية المادية . وهي تنطلق من نفس منطلقات الفكر الغربي القائم على الانشطارية ، فحيث ترى النظرية الماركسية ، تحل مشكلة الحياة في مجال الاقتصاد . ترى النظرية الفرويدية . تركز على مجال النفس ، وترى نظرية ، سارتر ، تقف عند الرفض المطلق لكل القيم الروحية والعقائدية كحل في سبيل القول بحرية الإنسان .

ولا ريب أن استعلاء نظرية فرويد في التركيز على الغريزة الجنسية وتشابكها مع نظرية ليفي بريل . في القول بأن الأخلاق ليست ثابتة ، قد فتح الباب واسعاً . أمام إسقاط جديد تنحل معه الضوابط والمقومات التي تفصل بين الخير والشر . وبذلك اندفعت النفس البشرية اندفاعاً خطيراً ، إلى مجال الخوف والذعر ، والضياع ، وقد حسبت أن اندفاعها لتحقيق مطامعها وأهوائها وشهواتها ، وكسر كل القيود والحدود ، سيحقق لها السعادة ، أو الطمأنينة أو اللذة .

وتعد الوجودية ثمرة هذا التطور الخطير نحو الانحلال . وقد وصفها الدكتور حامد عمار (١) بأنها مرض العصر ،يقول : زعم فرويد أن دوافع الناس ، والظواهر النفسية المختلفة تنبع من الطاقة الجنسية المستقرة في اللاشعور ، والإنسان في نظر هذه المدرسة (مدرسة فرويد) إنما هو حيوان بشري تسيره غرائزه ودوافعه الفطرية .

وقد صادفت آراء فرويد هوى في مجال الطبيعة الوسطى في المجتمع النمسوي في أواخر القرن ــ١٩ــ ثم اتخذت هذه الاتجاهات بعد الحرب الأولى .

---

١ ــ ك . بعض مفاهيم علم الاجتماع .

أداة لتفسير سلوك الإنسان ، ثم كانت محنة الحرب الثانية وما أتت به من وسائل الدمار والفتك تجربة بشرية قاسية أقسى بكثير من الحرب العالمية الأولى . وخاصة في أوروبا . وفي مثل هذه الظروف كان الجو السيكولوجي ملائماً لظهور أفكار الوجوديين ، وتفسيراتهم التشاؤمية . هذا الوجدان القلق عند الإنسان الذي يشعره بأن الكون سائر نحو العزلة والوحدة والعدم (هيدجر) هذا الشعور المرضي (من المرض) الذي يشبه الغثيان على حد تعبير (سارتر) . وهذا العالم الذي نعيش فيه ، عالم هش قابل للانكسار السريع والتحطيم المروع . وإذا كان لنا أن نسأل عن القوى التي صنعت الحربين العالميتين ، والتي أفادت منهما ، والتي خططت لهما لتحقيق غاية من ورائهما بالذات ، ومن نتائجهما وأثرها في البشرية بعد ذلك ، إذا كان لنا أن نسأل وجدنا الإجابة واضحة . فإن مخططات التلمودية ممثلة في الصهيونية العالمية هي التي صنعت كل ذلك . فهي مسعرة الحرب ، وفي نفس الوقت صانعة الدعوات والمذاهب .

ولا ريب أن هذا اليأس والتمزق الذي تكشف عنه الوجودية في منهجها ، وفي تصرفات أتباعها ، يدل على الانقطاع الكامل عن كل مصادر الإيمان بالله ، ومصادر الخير والرحمة والحب والإخاء البشري ، وكل هذه القيم الإنسانية العليا التي يقوم عليها نظام المجتمع والحياة .

إن اليأس من رحمة الله ، والانفصال عن الإيمان بالله ، والاندفاع وراء المادية الجافة قد ولد في النفوس هذا الخواء الروحي والفراغ . وإن المحاولة بدأت منذ وقت بعيد . وانتقلت بين الأجيال حتى وصلت إلى نقطة وصفها (كامي) بالغثيان .

وقد وصفت الوجودية بأنها مرض الإنسان في منتصف القرن العشرين . وبأنها مرض العصر ، وهي في مجملها : الملل والقلق والسأم والضياع والتوتر والشعور بالاغتراب .

ولا ريب أن هذه الصيحة كان يمكن أن تمضي ، ولا تترك هذه الآثار البعيدة

في العالم كله . لولا وجود قوى خفية تحيطها وتدفعها الى الامام حتى أن كتاباً يصدر في باريس بالفرنسية عنها تصدر طبعته بالعربية في نفس الوقت في بيروت.

ويتساءل البعض لماذا نجحت الوجودية في أوربا . وفي بعض أجزاء من العالم . والإجابة معروفة. يرجع ذلك إلى اعتناق المذهب المادي ، وما يتصل به من دعوة إلى الانحلال . والوجودية ثمرة النزعة الفردية أيضاً ، وتجري محاولات دائبة لتجديدها كلما ضعفت أو سقطت ، حتى لقد وصف أحدهم القرن العشرين بأنه قرن سارتر ، وأن سارتر هو إعصار ، وأن الوجودية هي مصدر كل القلاقل والاضطرابات التي حدثت في هذا القرن .

٣

إن دراسة يسيرة لحياة سارتر تكشف عن الخلقية التي تقف وراء هذه المفاهيم . ذلك أن مفاهيم سارتر التي أطلق عليها اسم « الوجودية » . لم تكن إلا صدى مشاعر نفسية . يقول سارتر : في كتابه الكلمات « لقد صنعت ذاتي لأني لم أكن ابناً لأحد » .

وسارتر : يعرف بأنه حين وعى نفسه لم يكن له أب ، ولا أم ، ولا أسرة . فقد مات أبوه وهو في شهره الثالث ، أما أمه ، فكانت ممسوخة الشخصية ، ولم تشعره أبداً بحنان أمومتها . ولم تكن الأسرة تتعدى جدين عجوزين يؤذيانه هو وأمه ، ويشعرانهما بالمهانة .

وكانت نظرة سارتر إلى البشرية نظرة مليئة بعطف مشوه . أساسه الاحتقار . وأراد أن يؤكد ذاته . فأنكر الكنيسة ، وحاول أن يكون له رسالة ، وهو الطفل المنبوذ في مجتمع الأطفال العاديين ، فأنشأ الوجودية .

ويرد كثير من الباحثين تمرد سارتر إلى مفاهيم المسيحية الغربية التي لم تستطع أن تسعد نفسه ، أو تعطيه الإحساس العميق بذاته . ومن الجوانب التي كانت مصدر ثورته وتحدياته أن الحياة لم تكن

بذات قيمة في نظر أهل مجتمعه ، وكانت هناك فكرة الخطيئة ، وكانت هناك محاولة تحرير الجسم الانساني من كل رغبة وشهوة . وان ذلك كله قد دفع الناس إلى انتظار مملكة في غير هذا العالم . وعزلة ورهبانية بعيدة عن المجتمع في قلب الصحراء . هذا هو التحدي الخطير الذي واجهه سارتر في حياته . فكانت من ثم فلسفته متأثرة بكل هذه العوامل . وقد صورت ، سيمون دي بوفوار : سلوك سارتر في الحياة ، فقالت : كان يكره الحقوق والواجبات ، وكل شيء رصين في الحياة . وهو لا يكاد يفهم أن له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعي وتفرض ، ولن يكون أبداً رب أسرة ، حتى و لا رجلا متزوجاً . ولم يكن سارتر يرى في الزواج شيئا عظيماً . كان فوضوياً أكثر منه ثورياً — كان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئاً محتقراً . وهكذا نجد سارتر خصماً للدين على النحو الذي عاشته أوربا . ومنه امتدت خصومته إلى كل قيم العقائد والأخلاق ، وهو في هذا شبيه ، بفرويد ، وماركس . في دعوتهم الصارخة إلى هدم مقررات الدين . والحقد الدفين على الكنيسة .

ومن هذا المنطلق ، وجدت الأيدلوجية التلمودية واحداً من أهدافها في محاربة الدين بالفلسفات ، على نحو أدركت به ثأراً ، تطلعت اليه زمناً طويلا . وقد أطلِقَ على الفلسفة الوجودية : اسم الفلسفة الانحلالية . أو فلسفة العدم وهي تجتمع مع الفلسفات المادية في إنكار ما وراء المادة ، وتختلف معها في الدعوة إلى احتقار الحياة.

ولا ريب أن قادة الدعوة الوجودية كانوا جميعاً من الشواذ ، وكانت حياتهم الخاصة مليئة بالاضطرابات (كير كجورد — جابريل — مارسيل — هيرجرد — سارتر) ولقد ظلت الصفحات التي كتبها كيركجورد . نحو مائة سنة مغمورة . حتى أخرجتها اليهودية التلمودية في أوائل هذا القرن ، واذاعتها وترجمتها .

وقد أعلن هرجرد حرباً لا هوادة فيها على الإيمان المسيحي كله ، متابعة لحملة أشد عنفاً شنها « نيتشه » وقد أشار المؤرخون وكتاب السيرة إلى

انحرافات أساسية في شخصيات فرويد ونيتشه . أما كيركجورد فقد كانت أمه خادمة عاشرها أبوه سراً ، وكان هو أحدب . مما ضاعف علته النفسية ، وكان ذلك يزيد شعوره بالنقص . فاعتزل المجتمع ، وعاداه . وكانت مؤلفاته العشرون هجوماً عنيفاً على معتقدات مجتمعه الدينية ، وهدماً للكنيسة ، وتدميرا للفكرة المسيحية ، ودعوة إلى الناس بعدم الإيمان إلا بأنفسهم . ومن هنا أصبحت الوجودية حرباً سافرة على الأديان كلها .

٤

أخطر ما في الفلسفة الوجودية دعوتها إلى نفي الألوهية . وإلى عبادة الذات ، فهي تدعو الإنسان إلى أن يستمتع بوجوده كل الاستمتاع . ويطلق لحريته العنان ، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتع والملذات .

ويبدو موقف سارتر من الألوهية مشوباً بفهم خاطىء مستمد من الفهم القائم على الوهية الإنسان . ولذلك فهو يدعو إلى تأليه كل إنسان — ولو فهم سارتر « الألوهية » بمعناها الحق : معنى الإله الأعظم . الذي لم يلد ولم يولد — والذي لم يتصل بأحد . وليس لأحد أن يتصل به على أي نوع من أنواع الاتحاد ، أو الحلول ، أو وحدة الوجود ، لكان له موقف آخر .

أما نظرية تأليه الإنسان التي دعت إليها الفلسفات اليونانية ومارستها عقائد ونحل أخرى ، فإنها قد فتحت باباً واسعاً للدعوة إلى عبادة الإنسان ، وتأليه كل إنسان .

وفي رواية الذباب يخاطب سارتر (رب الأرباب) جوبيتر ، فيصفه بما عرف في الفلسفة اليونانية من مفهوم خاطىء عن الله . فيقول : ما إن خلقتني حتى انفصلت عنك ، وتخليت عن نسبتي إليك الخ . وهذا مفهوم بعيد كل البعد عن مفهوم الإسلام لله سبحانه وتعالى الذي يختلف عن نظرية الأبوة ، والذي يقوم على مفهوم « العبودية » .

وقد وصف بعض الباحثين « إلحاد سارتر » بأنه إلحاد يتصف بميزة

غالبة على الإلحاد الحديث . وهي : أنه ليس مجرد إنكار لله ، بل هو أبعد من هذا ، إنه يضع الإنسان في مواجهة الله ، أو يعلن تجاهله لوجود الله عز وجل ، على حد قوله « الإله موجود فالإنسان عدم » .

ويستمد سارتر مفهومه هذا من نيتشه ، ومن المصادر الوثنية اليونانية القديمة . ولا ريب أن سارتر ونيتشه متأثران أبلغ التأثر باضطراب مفهوم الألوهية السائد في الفكر الغربي . قبل عصر النهضة . ولو أن الفكر الغربي تقبل فيما تقبل من الفكر الإسلامي حين نقل المنهج العلمي التجريبي : مفهوم الإسلام في الألوهية . لكان هناك اختلاف كبير في اتجاه الفلسفة الحديثة ، ذلك أن الإسلام لا يقر القول القائل : بأن الله صنع الإنسان على صورته . وهو قول لا يؤيده القرآن ، ولا شيء من السنة النبوية الصحيحة . وهو قريب من مفاهيم الغنوصية القديمة .

« وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » . وليست فكرة تسلط الإله على البشر في مسرحية الذباب ، إلا صورة من الفلسفة اليونانية وهي فكرة زائفة . والعودة إلى إحيائها رجوع بالبشرية القهقرى بعد أن صحح الإسلام مفاهيمها في علاقة الله بالإنسان ، وهي علاقة الرحمة والعفو . كما ترتبط الفلسفة الوجودية بالخطيئة التاريخية .

يقول الدكتور محمد غلاب : إن منشأ القلق ، بل الغم أحياناً ، عند أولئك المفكرين . هو أن المسيحية لا تقدم ترضية تامة إلى مطالب العقل الذي يتوق إلى فهم كل شيء ، بل إن العقيدة التسليمية كثيراً ما تتطلب تخلي الفكر عن رسالته ، لأن بعض مبادئها يصطدم مع العقل الذي لم يُعد لقبولها . قال باسكال : إن الخطيئة العنصرية هي في نظر الناس ضرب من الجنون ، ولكن الدين يقدمها على هذا النحو . وإذن فيجب أن تأخذوا عليه عدم تأييد العقل لهذه العقيدة لأنه يقدمها بدون مسوغ .

٥

تبدو الفلسفة الوجودية ، كأنما هي مواجهة للفلسفة الماركسية : انها تدعو إلى التضحية بالمجتمع في سبيل الفرد في مواجهة تحديات الماركسية القائلة بالتضحية بالفرد في سبيل المجتمع .

ومن ذلك قولهم : الفرد يعيش ضمناً في الماركسية ، ويعيش أصلا في الوجودية . وهي بالرغم من دعوتها إلى رفع قدر الإنسان ، فإنها تعامله في نطاق الفلسفة المادية . تعامله على أنه حيوان مادي ، له غرائز وأهواء ، وتغضي إغضاء كاملاً عن جوانبه الروحية والنفسية والفكرية . وهي دعوة إلى الانطلاق المتحرر من كل قيد ، أو ضوابط ، أو قيم . وتقوم أساساً على إنكار الألوهية ، وإنكار البعث والجزاء والأخلاق ، وهي تنطلق أساساً من فكرة خطيرة هي « اليأس من الحياة » ، وتواجه المسيحية والفكر الديني الغربي والكنيسة مواجهة خطيرة . وقد وصفت الماركسية الوجودية بأنها دعوة إلى نشر تعاليم الفوضوية العقلية والخلقية ، واحتقار العلم والأخلاق (١) .

وقد وصف الدكتور روجيه جارودي الوجودية على هذا النحو : الوجودية فلسفة الاستعمار . فلسفة هدم لابناء — فلسفة تدمير للشخصية الإنسانية — فلسفة إسقاط النفس الإنسانية في مجالات اللذة والشهوات ، بحيث تصبح غير قادرة على الدفاع عن نفسها أو تركيز وجودها — فلسفة مادية . تستهدف الاستمتاع السريع ، وخشية الموت .

ولقد عارض النظرية الوجودية . مفكرون غربيون كثيرون . وحصروا أخطارها في عدة نقاط أساسية :

أولا : انها تجعل الإنسان في عزلة عن الجماعة .

---

١ — مادة وجودية في القاموس السوفييتي

ثانياً : انها تستطيب إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الانسانية، وتدعو إلى الانحلال .

ثالثاً : انها تبطل الأوامر الإلهية — وتنكر القيم الخالدة .

رابعاً : انها تدعو إلى اليأس المطلق . والتشاؤم الكلي ، وتدعو إلى هدم الحياة.

خامساً : انها دعوة إلى التمرد على الواقع والقيم جميعاً ترفض كل ما يتصل بالغيبيات والنفس الانسانية وتقف عند الايمان باللحم والدم .

سادساً : انها تنكر محصول البشرية من القيم والتجارب ، وتدعو إلى أن يبدأ الإنسان من جديد .

سابعاً : تحتقر العلم والدين والأخلاق .

ثامناً : ليس فيها نقطة واحدة تفتح الطريق أمام التقدم ، أو بناء الحياة ، أو العمل من أجل مجتمع أفضل .

تاسعاً : هي فلسفة موغلة في الفردية . تنكر الحقيقة الموضوعية للواقع الإنساني .

عاشراً : الأخلاق الوجودية هي الأخلاق المريضة : القلق ، والقنوط ، والتشاؤم ، والرغبة في الموت، والغموض ، والأنانية المفرطة .

حادي عشر : الدعوة إلى جدية اليأس والتحريض على الانتحار (١) .

ثاني عشر : تقويض المجتمعات ، وهدم الأمل والخلق ، والغيرة ، ومعارضة الشجاعة والتضحية .

ثالث عشر : دعوة إلى التحلل من القواعد الأخلاقية .

وقد عارض الباحثون هذه المفاهيم ، وكشفوا عن زيفها ، وأعلن الكثيرون في صراحة أن الوجودية : ظاهرة زمنية عابرة لن يلبث الانسان أن يتخطاها وهي ليست روحاً Essence (٢) .

---

١ — يقول كامي : ليس ثمة إلا قصة واحدة تتمتع حقاً بصفة الجد . وهي قصة الانتحار .

٢ — جاك برك .

٦

لا ريب أن الدعوة الوجودية غريبة عنا ، وعن مجتمعنا ، وعن قيمنا كل الغرابة ، ذلك لأنها نتاج تحديات وظروف ومواقف مختلفة تماماً . وهي في مجموعها لا تمت إلى مفاهيمنا بسبب ،وهي ثمرة مجتمعات معينة في ظروف معينة .
ونحن نعرف أن الفكر الغربي كله يمر في هذه السنوات بأزمة عاصفة ، ويواجه تحديات خطيرة . وأن الصهيونية العالمية ، من خلال أيدلوجيتها التلمودية قد احتوته تماماً ، وصرعت فيه كل قوة ، وكل خير ، وهدمت دعائمه الأخلاقية ، وعزلته عن مفهوم الدين الحق عزلاً تاماً .

ومن عجب أن الكثيرين في بلادنا يفهمون هذه الحقيقة ، ولكنهم ينظرون إلى هذه الدعوات من خلال مظاهرها البراقة الخادعة ، بينما تجاوزتها مجتمعاتها لفسادها ولأنها وجدتها معارضة تمام المعارضة للفطرة والطبيعة الإنسانية ، وقيم الإنسان العليا . إن الوجودية ثمرة أزمة الإنسان المعاصر . صريع النظرية المادية . التي أعلت من شأن الشهوات والأهواء واللذات ، وفتحت الطريق أمام الغرائز ، بعد أن هدمت جدار الضوابط والحدود والقيم .

وأبرز معالم فكرنا ، وحضارتنا ومجتمعنا : هو ذلك الترابط بين الروح والمادة ، والتوازن بين الدنيا والآخرة في إطار التوحيد الخالص لله . والإيمان بالبعث والجزاء . والدين جزء من مجتمعنا وفكرنا ونظمنا المختلفة . والأخلاق قاسم مشترك على التربية والاجتماع والسياسة والاقتصاد .

الفصل الثالث

الهيبّية

١

الدعوة الهيبية هي آخر ثمرات التطور الذي بلغته المجتمعات المعاصرة في طريقها الذي اختطته في ظل المذاهب المادية . وفي معارضة كل ميراث الإنسانية من القيم والضوابط والأخلاق والعقائد . إن الدعوة الهيبية تنطلق من القول بأن الإنسان المعاصر يشكو القلق والتمزق ، وأنه لا يجد الإجابة على أسئلته ، ولا يستطيع أن يفهم سر وجوده . وأن هذا كله قد أسلمه إلى غربة قاسية ، ولا ريب أن هذه الصيحة التي تسود المجتمعات الغربية بالغربة والخوف من المجهول . قد باتت مصدر صدع كبير في بناء الأمم . وأمسى الناس يعيشون بالرغم من كل ما يحوطهم من عوامل المتعة واللهو في فراغ نفسي ، وفي وحشة وانفصال .

لقد فشلت كل الأيدلوجيات والأنظمة والمذاهب التي حاولت أن تقدم للإنسان منهجاً للحياة . لأنها إما قد اعتبرت أزمة الإنسان أزمة معدة وطعام في الأغلب . أو أنها أطلقت الغرائز إلى غير ما نهاية ، ودفعت الناس كالكلاب المسعورة وراء الأهواء واللذات . ثم عاد الإنسان من رحلته هذه ، وتلك ، بإحساس عجيب . لقد أصبح غريباً في مجتمع صاخب يضج بالمغريات والمتع .

والجواب هو شيء واحد : انه فقد لذة الإيمان ؛ عطاء الروح ؛ صمام الأمن في سكينة النفس ، فقد روح الحرية الحقة والثقة والتماس الرحمة من مصدرها الوحيد . وقد حاول الباحثون استقصاء مصدر الدعوة إلى الهيبية ، وهي آخر صيحات التحرر والانطلاق من كل القيم والضوابط والقيود ، فلم يجدوا إجابة لها أكثر من : الغربة .

يقول كولن ولسن في كتابه الغريب (١) : الغربة مرض تمتد جذوره إلى بعيد ، وهو مرض متصل بتصدع الذات وانشقاقها . نتيجة لعدم تواؤمها ، أو انسجامها مع المجتمع الذي تعيش فيه . والغربة المعاصرة تختلف عن الغربة التي عرفتها العصور الماضية . فقد كان الغريب برغم حيرته وشكه ، لا يفقد الإيمان ، ولا ييأس من الوصول إلى الحقيقة . أما الغربة الحالية : فهي غربة إنسان عاجز عن الإيمان بوجود أي شيء . وكان الغرباء قديماً يحاولون تحقيق الانسجام ، والمواءمة مع العالم بالرغم من خلافهم معه . أما الغرباء المحدثون فإنهم يرفضون المجتمع رفضاً كاملاً وينفصلون عنه انفصالاً تاماً .

ويرد الباحثون ، ومنهم كولن ولسن الأزمة إلى أصولها القديمة ، منذ دعا نيتشه دعوته إلى بناء المجتمعات على أساس القوة ، والأقوياء ، وقتل المرضى والضعفاء بلا رحمة .

وتجيء القصص والروايات كلها ، لتحمل هذا الطابع المظلم الذي يستمده الفكر الغربي من الخطيئة الأولى .

فهذا ديستوفسكي في روايته يرسم صورة ايفان الذي يقول ان فكرة الألم فكرة مستبدة بهذا الكون متغلغلة إلى أعماقه ، ومن العسير استئصالها .

ويرى ولسن أن هذا الطابع الذي طغى على الأدب الغربي إنما يتلخص في عبارة واحدة : إنها فكرة الإنسان الذي فقد إيمانه بالله ، ولم يجد ما يعوضه

---

١ – انتفعنا بالنصوص التي ترجمها الأستاذ . دكتور محمد زكي العشماوي في كتابه (الأدب وقيم الحياة المعاصرة) .

عن هذا النقص . إنها أزمة العقل المسيطر على الإنسان .

أضعف العقل الصرف مركز الإشعاع العاطفي في الإنسان ، وهو العقيدة الدينية .ثم جاءت بعد ذلك التطورات الخطيرة ممثلة في (فرويد.وماركس . وليفي بريل . ودوركايم . وسارتر .) وكلها تحطم الإنسان من حيث هو إنسان وتدفعه من حيث هو غريزة ولحم ودم إلى الانطلاق نحو مطالب الجنس واللذات ، ومن هنا فقد أصبح عارياً تماماً . وأصبح جزءاً من كل . قد غطي بأغشية تحول بينه وبين الحياة . لقد وضع كيانه الوجداني وإحساسه النفسي وطموحه الروحي موضع التجميد والإنكار والكبت الحقيقي . فعاش برئة واحدة . فكان لا بد أن يحس بالغربة والغثيان والتمرد والقلق . لأن قوة حقيقية موجودة في أعماقه ، قد أصبحت حبيسة . بينما أطلقت القوة الأخرى ، وكان التوازن والمواءمة الطبيعية بين قوى الإنسان الجامع بين الروح والمادة هي عامل الحياة الحقيقي .

هذه هي الأزمة الحقيقية وراء الدعوة الهيبية ، التي تجتاح أجزاء كثيرة من العالم اليوم بغرابة تصرفها ، وخروجها على قيم المجتمعات ، وعودتها إلى أخلاق الغابات وطبائع الأدغال . إن هناك نزاعاً في الأعماق بين الواقع المادي الصرف وبين هـذه القوى المحبوسة . لقد تحولت الحياة في المجتمعات الغربية من النقيض إلى النقيض . كانت العصور الوسطى . وسلطان الكنيسة يحبس الكيان المادي ، ويدعو إلى الزهادة والرهبنة ، واعتزال الحياة، وإنكار النوازع الفطرية الأصيلة في النفس ، الراغبة إلى الممارسة والتنفيس .

فلما كسر هذا القيد ، بلغ الإنسان أقصى المدى من الناحية الأخرى ، فحبس العواطف والروحانيات، وأطلق الأخرى ، ودعا إلى وثنية وإباحية عاصفة .

ومن هنا فإن أزمة الإنسان الحديث ، هي نفس الأزمة القديمة . ولكن على المحور الآخر . لقد عجزت الفلسفات والمذاهب والأيداوجيات أن تعطي الإنسان : التوازن ، والاعتدال ، والتكامل والوسطية والمواءمة . بين عنصرين

حقيقيين في الإنسان . لا سبيل إلى تجاهل أحدهما أو إعلائه على حساب الآخر .

إن حجب الجسم عن غرائزه الفطرية الطبيعية ليس أقسى من حجب الروح عن غاياتها الأصيلة . وكلاهما شر خطير مدمر . والإسلام في هذا يمثل الاصالة والفطرة . ويكشف عن أنه من عند الله حقاً ، خالق الإنسان ، والعارف بجوهره وطبيعته . فالإسلام يقرر وجود الإنسان روحه ومادته ، غرائزه وأهواءه، ثم معطياته العليا.وهو يفسح لهمجال ممارسة هذه وتلك ويضع لهما معاً ضوابط تحول بينهما وبين الإسراف والجمود . فالإسلام لا يقر الرهبانية ولا يقر الاباحية في نفس الوقت . ولكنه يدعو إلى أسلوب وسط فيه مزيج هادىء، ومن خلال ضوابط تحمي النفس الإنسانية والجسم الإنساني من أن ينهار . إذا فرض عليه أحد الخطرين : إعطائه الحرية المطلقة حتى يتحطم وينهار . أو إعطائه الرهبانية حتى يفسد ويذبل . ومن هنا نشأت الغربة، وشكلت أخطر أزمة تواجه الإنسان الحديث .

إن الحلول التي وصفها البير كامي ، وسارتر . لم تستطع أن تحل هذه الأزمة . بل زادتها حدة . فقد انطلق الوجوديان من منطلق مادي صرف ؛ ان الدعوة إلى التحرر من القيم المتوارثة ، إنما هو دعوة إلى التحرر من الدين ، ومن العقائد ، ومن الإيمان بالله . وهو لا يحل المشكلة ، بل يزيدها تعقيداً . وهو لا يهدي إلى ضوء ، ولكنه يدفع إلى مزيد من الظلام .

إن الإحساس بالقلق المبهم الغامض الذي استبد بإنسان العصر لم يكن إلا نتيجة سيطرة المادة ، وسيطرة الدعوة إلى تأليه العقل وتقديسه، وتسخير العلم في إشعال الحروب . وليس هناك سبيل للوصول إلى حل إلا بالعودة مرة أخرى إلى الحقائق الأصيلة التي عرفتها البشرية ، منذ نشأتها ، واهتدت بها . العودة إلى الفطرة ، إلى الدين الحق . ليست المادة هي كل شيء ، وليس العقل إلا جهازاً من أجهزة كثيرة ، أعطيها الإنسان لبناء حياته . وليست الحضارة في خدمة الحرب والدمار ، وإنما هي في خدمة البشرية ، ودفعها إلى التقدم بمفهومه الكامل . التقدم المعنوي والمادي معاً . ولذلك فإن الطريق

الصحيح : هو التحرر من القيم الزائفة البالية التي استحدثتها المذاهب المادية .

يقول الدكتور مصطفى بدوي (١) : إن أزمة الإنسان الحديث . هي أزمة الإنسان الحساس العاقل الذي فقد إيمانه بالله، ولم يجد بعد ما يسد حاجته العاطفية التي كان الإيمان مركز إشعاعها . وهي أزمة لعب العلم ، والتفكير العقلي فيها دوراً بالغ الأهمية أدى في نهاية الأمر إلى ضعف العقيدة الدينية . وهي أزمة كانت إحدى نتائجها الغريبة : إشهار الإفلاس العقلي والتفكير العقلي .

ويصل كولن ولسن (٢) : إلى نفس النتيجة تقريباً حين يدعو إلى استنباط موقف ديني ، ويدعو إلى تحقيق اتساق وتوازن بين قوى الإنسان الثلاث : الجسم ، والعقل ، والعاطفة . لأن الإنسان وحدة لا تتجزأ يقول :

(ليس الانسان بقادر على أن يجلو عن نفسه ما يعتريه من صدأ ، أو ما يغلف إحساسه من سماكة ، إلا إذا ظفر بشيء من السلام النفسي ، والهدوء الروحي . إن التأمل الروحي قد يؤلف بين الإنسان والوجود ، وإن هذا التأمل قادر على أن يحرر العقل من سلطان المادة . ويجعله ينمو مع ما ينمو حوله من عناصر الطبيعة . عند ذلك سوف يكون لكل شيء معنى روحي .

فالأرض ، والماء ، والنور ، والثمار ، والأزهار . لن تُصبح في هذه الحالة مجرد ظاهرات طبيعية يستفيد منها الإنسان ، حتى إذا بطل نفعها بطل التفكير فيها ، ولكنها تصبح أشياء ضرورية في تحقيق الوحدة بين الإنسان والوجود) .

ويرى ولسون أن أزمة الغريب فقدان الايمان ، يظل فيها على حال من القلق. والتململ والعذاب. حتى يظفر بشيء يشبع عنده عاطفته الدينية المفقودة . عندئذ سوف لا تبقى النظرة إلى الشر هي الغالبة في تفكير الغريب .

ويرى ولسون أن الاعتماد على التفكير العقلي المجرد ليس بقادر على حل مشكلة الغريب، فإن ثمة امكانيات أخرى في الإنسان . لا بد من استغلالها (هي

---

١ – مجلة كلية الآداب ١٩٥٨

٢ – قصته « الغريب » .

(الإرادة والعقل والعاطفة) . وأن الغريب الذي ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلي الصرف الذي هو ظاهرة عامة في حياتنا المعاصرة . بحاجة ماسة إلى (بديل) ليشبع عنده العاطفة الدينية ، ويجد عندها الملاذ الذي يبحث عنه . وهو يدعو إلى تحرير الإنسان المعاصر أولاً وقبل كل شيء — وهو بالطبع يقصد الانسان الغربي — من معتقدات وهمية كثيرة أهمها فكرة الخطيئة الأولى ، التي تسيطر على الإنسان المسيحي ، والتي تقف حائلا بينه وبين رؤية الحقيقة .

ويرى أن على الغريب أن يتخلص من الخطيئة الأولى ، لأنها في حدود فهمه لها هي ما يحجب الحقيقة عن روح الانسان .

وإذا كان كولن ولسون قد أصاب الحقيقة ، فإنه أخطأ العلاج حين دعا إلى « رؤيا صوفية » وإلى إحلال الإرادة محل الايمان ، وحين اتجه إلى الفلسفة الهندية القديمة ؛ يطلب منها العطاء الذي يمكن أن يعطي للانسان المعاصر في أزمته ترياقاً شافياً . وتلك هي محنة الفكر الغربي الذي تسيطر عليه مخططات الأيدلوجية الصهيونية التلمودية . فإنه حين يبدو أن الإنسان الحائر قد وجد مشكلته . فإنه سرعان ما يدفع به إلى متاهة أخرى . وماذا عليه لو أنه وجه الحائرين إلى الإسلام ، وفيه وحده العطاء الحقيقي . إن الفلسفة الهندية القديمة التي ستعطي الإنسان المعاصر في أزمته علاجاً ، لن تعطيه إلا دورة جديدة من دورات الحيرة والقلق والغربة حين يقظته . وحدة الوجود والحلول والاتحاد . ومفاهيم وثنية أخرى لا تقل خطراً عن مفاهيم الوثنية الإغريقية ، التي صنعت أزمته . وأسلمته إلى مكان « الغريب ». إن الفلسفة الهندية سوف تعطيه مزيداً من الغربة والحيرة ، ولن تعطيه الإرادة . التي شاء أن يدعو إليها كولن ولسون ، ولن تعطيه حقيقة الإيمان وجوهره الذي لا ينطلق إلا من خلال إيمانه بالله الواحد الأحد . الذي لا شريك له ، خالق كل شيء ، الكون والإنسان . من الحق أن نقول إن ولسون وغيره قد خطوا خطوات واضحة في دعوتهم إلى التحرر من سلطان العقل ، والمادة ، والخطيئة الأولى . ولكنهم لم يستطيعوا مع الأسف

تجاوز الخطر . أو استيعاب أسباب الأزمة . ذلك لأنهم يتطلعون من منطلق الفلسفة المادية أيضاً .

إن هذا الطابع المتجهم الحامل للتشاؤم ، الغارق في مفاهيم الألم والقسوة والانتقام والحرية والضباب المخيم ، إنما يعود إلى مفهوم الغرب الخاطىء لنهاية الأبطال التراجيدية . التي تتمثل في الصراع بين الآلهة . وبين الإنسان ، والتي تستمد وجودها من ارتباط الفلسفات بالآثار التي تركتها العقائد القديمة . والتي لم تستطع أن تفصل فصلا محكماً بين الله الواحد الأحد وبين الانسان والعالم . والخطأ الذي اتصل بتحول الإنسان إلى إله . وعبادة الأبطال وتحويلهم إلى آلهة وأنصاف آلهة مما يغرق فيه الفكر الغربي . فلا يستطيع معه أن يجد سبيلا إلى رؤيا مشرقة قائمة على الأمل في الله . مضيئة بالرحمة والسماحة والأخوة . بعيدة عن قسوة نيتشه ، وعبادة الفرد ، وتصور الكون على أنه الله . ومفهوم الخطيئة . وما يجره من آلام وقسوة لا تنتهي . إن الإنسان ليس الموجود الوحيد . ولكنه خلق الله ، وعبد الله ، وهو مستخلف في الأرض ، في امتحان لقدرته على أداء الأمانة . ومن خلال الضوابط التي أحكمت حماية له . وحماية للمجتمع . ورفعاً له عن مكانة الحيوان ، وتكريماً له بالجمع بين الروح والمادة ، والقلب ، والعقل ، والدنيا ، والآخرة . ولا ريب أن مفاهيم الفلسفات الوثنية القديمة حين اختلطت بالعقائد. قد أعطت صورة مظلمة لمفهوم الله. والكون والإنسان . فلما جاء العقل الناقد . وقف من هذه المفاهيم موقف الانكار . وأحس بعجز هذه العقائد عن العطاء الحقيقي ، وتلك أزمته الحقيقية التي دفعته إلى إنكار الله . وإلى الشك في كل رحمة وفضل . وهذا هو الذي زلزل إيمان الناس . وأفسد عقائدهم . وكان عجزهم عن معرفة الدين الحق . وتعصبهم إزاءه ، وخصومتهم له مصدراً من مصادر الاضطراب الذي ما زال يملأ القلوب ، وما تزال المتاهات تفتح أبوابها لهم ، لتدفعهم من وثنية الإغريق إلى غنوصية الشرق

القديم، فلا يخلق ذلك إلا مزيداً من التضارب والغربة والغثيان.« وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . إن أبرز ما أعطاه العقل في رحلته بلا دليل ، وفي استعلائه وتفرده ، و التمرد على نواميس الكون ، وسنن الطبيعة البشرية، ومحاولة خرق هذه السنن والنواميس بإنكار الله ، والتماس طرق وأساليب ما زالت تتساقط واحدة بعد أخرى . عاجزة عن أن تهدي النفس البشرية إلى أي حق . أو تفتح لها أي كوة من ضوء .

٢

إن صيحة اليوم في مواجهة القلق والغربة هي : أن كل ما حاولت البشرية أن تحققه في رحلتها الطويلة إلى البحث عن الحقيقة ، قد أخفق ، لم تفلح الفلسفة . ولم يفلح العلم ، ولم يفلح التاريخ. لقد ألقى العلم جميع إمكاناته ومقدراته معترفاً بالعجز أمام الأسئلة الأبدية المطروحة : لماذا نحيا حتى العلم نفسه باعتباره آخر درع قد أخذ في السقوط . إذا كانت الفلسفة عاجزة ؟ والتاريخ عاجزاً والعلم قد عجز فأين المفر ؟ وما هو الطريق ؟ هذه هي الصيحة اليوم فيما أسموه مجتمع غربة الإنسان . هنا يجيب (ماركوز) فيلسوف الصهيونية الأكبر فيقول : ان مجتمع غربة الإنسان يجب أن يزول من التاريخ ، لأننا نصنع عالماً جديداً . وهذه هي نفس الإجابة التي حملتها الروحية الحديثة . وهي نفس الإجابة التي حملتها البهائية .

إن (ماركوز) يرى أن الرأسمالية ، والماركسية ، كلاهما قد أخفقتا . وأن الطريق ممهد أمام النبوءة المجهولة الغامضة .

ويقف دعاة التبشير بالعالمية التي تستمد مفاهيمها من الأيدلوجية التلمودية صامتين لا يكشفون عن صورة المجتمع الجديد ، ويدفعون مجموعات جديدة من الشباب إلى الرفض وإلى الغربة ، دون أن يضيئوا أمامهم شمعة واحدة . وإذا كانت كل السدود قد سقطت . فماذا أمام الأسئلة الحائرة؟إنهم يعودون مرة أخرى إلى بعث الغنوصية الشرقية القديمة .

إن مهاريشي يدعو إلى التأمل القائم على النشوة، والمرح في ظلال (الماريجوانا).
تأمل الذات والبحث عن الحقيقة في ينابيع النفس. ولكن أي نفس هذه التي تستطيع أن تهدي؟ إن العطاء لن يجيء من الداخل أبداً. ولكنه يأتي من الكون الواسع. ان المعرفة لا يجدها طالبها وراء الظلمات التي تملأ النفس بأهوائها ويأسها. إن العطاء يأتي من الخارج: من كون الله الواسع الذي يلهم الحقيقة (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) (إِنَّ فِي خَلْقِ السموات وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ التي تَجْرِي فِي البَحْرِ بما يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا. وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ. وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

ليس غير الإسلام وحده ضوءاً يستطيع أن يعطي البشرية اليوم طريقها:

إن دعوة (مهاريشي) قد تحولت إلى التأمل من خلال تعاطي العقاقير. والمواد المخدرة (الماريجوانا — ل — س — د). ثم تحولوا عنها إلى مادة أقوى تأثيراً. مادة — ت — مادة س — ت — ب — التي يستمر مفعولها (٧٢ ساعة) كاملة، وتحدث حالات عنيفة من الهياج. لماذا يريدونه ضعيفاً منهكاً محطماً؟ هل هي السعادة، أو اللذة، أو المعرفة، أو البحث عن الحقيقة؟ إنها اليأس القاتل، إنها القنوط. ولكن المسلم لا يصل إلى ذلك إلا إذا فقد إيمانه، إن المسلم لا ييأس أبداً، ولا يقنط من رحمة الله. ولا يضل الطريق.

إن جماعات الوجوديين: قد تحولت بالهيبية إلى جماعات الهروب من الواقع إلى السلبية والعنف. وطريقهم هي العقاقير المخدرة. وأفكار جديدة تلقى إليهم كلها سلبية باسم الثيوصوفية من التراث الهندوسي القديم — براهما وبوذا وجينا.

والوثنيون الشرقيون يعبدون عدداً من الآلهة. ويتخذون الانسحاب من الحياة طريقهم الوحيد. إن الانتقال عبر الرحلة الطويلة من وثنية اليونان إلى

وثنية الغنوصية . لا يختلف كثيراً إلا في الصورة . ولكنه مادية أيضاً . لأن الاعتقاد بأن الكون المادي هو الله سبحانه ، إنما يذهب إلى أقصى درجات المادية . وهذا هو مذهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد .

ليس الله سبحانه في الحقيقة هو هذه الحياة . أو هذه الجبال والبحار والأنهار ، ولكنه هو صانع هذا الوجود ، وهو منفصل عنه وقاهر له . ومعنى هذا أن فشل الفلسفة المادية لم يزد الباحثين عن الحقيقة إلا مزيداً من الفشل حين اتجهوا إلى الفلسفة الغنوصية الشرقية . من الإباحة المفرطة إلى الزهد المفرط ، ومن تعذيب النفس بالشهوات إلى تعذيب النفس بالحرمان . وكلاهما يؤدي إلى الغربة والخوف والتشاؤم . إنهم يقولون : إن القلقين يمرون الآن عن طريق (بوذا — براهما — جينا .) مندفعين كالقطيع وراء آخر دعوة تبشر بأمل ، لعلهم يجدون السعادة المفقودة، لعلهم يجدون أنفسهم التائهة، وإيمانهم الضائع . ونحن نقول: ولا أمل، بل مزيد من الغربة . فليس هناك غير طريق واحد فليجربوه .

الإنسان في ميزان الإسلام

١

لا ريب أن الإنسان هو محيط الفلسفات . والهدف المقصود من الدعوات الهدامة . وهو موضع الامتحان من تجربة الحياة والموت كلها . وهذه الدعوات تحاول أن تضع له منهجاً يخرجه عن فطرته ، وعن المنهج الذي قدمه له الدين الحق . والمحاولة تتصل بأمور متعددة أهمها :

الأول : محاولة القول بأن عقل الإنسان كفيل بأن يهديه طريقه في الحياة . والعقل البشري جهاز قاصر . ولا يستطيع بمفرده أن يهدي وإنما الهدى يتصل بالوحي . وهو العلم الرباني الذي لا ريب فيه ، ولا شبهة في أنه يقدم للإنسان الطريق الصحيح. بينما الريب والشبهات تحيط كل هذه الدعوات والفلسفات ، ومن ورائها أهواء البشر ومطامعهم .

ولا ريب أن إعداد الإنسان بالعقل البشري ليس كافياً وحده في التبصير بطريق الحق . والعقل البشري ليس قادراً قدرة كاملة على معرفة كل شيء . وهو يستطيع أن ينفذ في عالم المحسوس . ولكنه يعجز عن النفاذ إلى عالم الغيب إلا بهدى الوحي .

الثاني : محاولة دفع الإنسان إلى خلع كل قيد من قيود الأخلاق ، أو الاندفاع ، في الحياة لتحقيق أهوائه .

ولا ريب أن الإنسان بفطرته يعلم طريق الخير والشر ، وهو على هدى

من الدين الحق يعرف أنه ممتحن في الدنيا ومخير .

ولقد اعترف الإسلام للانسان برغباته وغرائزه ، وأعطاه حق ممارستها في إطار من الضوابط أهمها الاعتدال . والمحافظة على الكيان الذاتي . وكشف له عن الخطر الذي يتعرض له من سلوك أسلوب التحرر المطلق .

ثالثاً : محاولة إخضاع الإنسان للنظريات المادية ، والقوالب المادية . ولا ولا ريب أن الانسان غير قابل للخضوع إلى هذه القوالب ، وأنه كإنسان مكون من روح وجسد . لا بد أن يحكمه علم جديد، مخالف للنظرية المادية ، التي تقوم على أساس النظرة المادية المجردة إلى الكون والحياة . لذلك فإن منهج دراسة الإنسان ، يجب أن يكون شاملاً ومتكاملا على أساس أنه عقل وجسد . وروح. ولا ريب أن النظرة إلى الإنسان على أنه جسد ومادة (فقط)، وتطبيق مناهج العلوم المادية ، أو التجارب التي أجريت على الحيوان عليه ، من شأنها أن تستخرج نتائج غير حقيقية ومخالفته تماماً لواقع الإنسان .

رابعاً : خطأ القول بأن الإنسان كان وثنياً ، ثم أصبح موحداً . فإن الإنسان بدأ موحداً أصلاً ، ثم سقط في خطأ الوثنية بالانحراف عن رسالات السماء ، ثم ظلت الأديان تعيده مرة ومرة إلى جادة التوحيد .

خامساً : خطأ القول بالتطور المطلق . ذلك أن التطور لا يحدث في فراغ ، ولا بد من مرتكز ثابت للبشرية ، تستطيع أن تتحرك حوله ، ولا بد من فلك قائم على أسس الثبات ، ثم تأتي الحركة من خلاله وفي دائرته .

سادساً : ليس الإنسان حيواناً كما تقول الفلسفة المادية . وليس الانسان مخطئاً بحكم ولادته كما تقول بعض العقائد. وليس الإنسان مجبور التناسخ . كما تقول البوذية . وليس الإنسان عبداً للأهواء والشهوات . بل هو قادر بتوجيه الدين إلى أن يجد طريقه إلى الخير والهدى . (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) . وغاية الإسلام هو إيجاد التوازن في الفرد . فالإسلام لا يقر الزهادة ولا الإباحة .

٢

لا ريب أن طبيعة الإنسان في حاجة إلى توجيه إلهي ، ذلك أن طبيعة الإنسان لا تتخلف (فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله) . والإنسان في صميم طبيعته نزاع إلى الفرح والفخر إذا جاءه الخير، ونزاع إلى اليأس إذا جاءه الشر . وقد وصفه القرآن بأنه خلق هلوعاً . وأن علاجه في الصلاة والاتصال بالله . وهو علاج دائم متصل . وهو علاج متجدد مع كل إنسان وكل جيل . ولن تستطيع البشرية مهما ارتقت مادياً أن تقول إنها أصبحت في غير حاجة إلى وصاية الدين ، أو توجيه الله . والطبيعة البشرية في أصل تركيبها تنسى وتغفل. فهي في حاجة دائمة إلى موقظ، وموقظها القرآن الذي يذكر ، ويقرع الآذان والقلوب .

من الواضح تماماً من أصول التشريع والأخلاق معاً . أن الإنسان في حاجة إلى ضوابط تكفل له السير في الطريق الأرشد ، وأنه لا يستطيع أن يجد هذا الطريق . إلا إذا أرشدته إليه القوة العليا عن طريق الوحي المنزل .

فالتشريع في مجموعه ضوابط من علاقات الفرد بالجماعة . والأخلاق في مجموعها ضوابط من علاقات الفرد بالفرد . وفي التشريع لا يباح التأويل أو التحليل أو الخروج عن حدود الله إلا في ضرورات قصوى ، وكذلك في الأخلاق .

ومن هنا تبدو ضرورة وجود ظاهرتي « الضبط » و« الكظم » وهما غير ما يطلق عليه في المصطلحات الحديثة : « الكبت » ولو كانت الطبيعة البشرية بقدراتها التامة . تعجز عن التماس طريق المشقة المتمثل في الامتناع عن حدود الله . لما فرض عليها ما ليس في استطاعتها . ولولا أنها قادرة على معارضة اتجاه الأهواء والرغبات لما ألزمت به .

وهنا يبدو خبث الدعوة التي تقول بأن مثل هذا الامتناع له ضرره بالنفس أو العقل . إن الضرر ماثل حقيقة في منع المباحات وتحريم زينة الله ، أو معارضة طبيعة البشر . أو مناهضة الدوافع البشرية . وهذا ما لا يقره الإسلام أصلاً ، بل هو ما يعترف الإسلام بوجوده ، ويدفع إلى ممارسته وتحقيقه في نطاق ضوابطه وأطره . وهذا هو ما حرمته بعض الأديان ، وما رأى بعض الأطباء أنه مؤد إلى المرض .

أما إقرار الإسلام له كحقيقة ، ثم النظر في إمكان تحقيقه ، أو الانتظار بالصبر عليه ، وبالاعلاء . فذلك أمر آخر مختلف كل الاختلاف.

ولا ريب أن الإنسان خلق ليعمل ، ويسعى ويتحرك ، ويغالب ويقاوم . ولا بد أن يجدد سعيه في الأرض ، وأن يكون سعيه إيجابياً في سبيل الهدف الذي استخلف من أجله . فهو في حاجة دائمة إلى التذكرة والتوجيه ، وفي حاجة دائمة إلى الاعتصام بالله ، وإسلام الوجه له . وهذا هو التوكل : والتوكل هو التماس هدى الله في العمل والحركة ، لا في القعود والتوكل . ومن هنا فان الإنسان بطبيعته وتركيبه (وهو أمر مستمر في كل زمان وعصر) في حاجة دائمة إلى الذكر والفكر ، وتجديد النفس بمعرفة الهدف وتحديده ، والتماس القوة التي تكفل له النجاح في الحياة . وهي قوة لا يجدها الإنسان إلا في الإيمان بالله ، والخشية منه ، والأمل فيه .

ومن هنا فان القول بأن الانسانية ، قد أصبحت راشدة ، وليست في حاجة إلى وصاية الدين هو من المخططات التلمودية المندفعة إلى غاياتها الخطيرة . فلنحذرها ولنكن في يقظة لكل ما يحيط بنا .

٣ ــ الموت

إن هذه الصيحة التي تستعلي خوفاً من الموت . إنما تمثل أقصى ما وصلت إليه النظرية المادية من أثر في نفوس الناس . فقد انخلعت هذه النفوس هلعاً من الموت . فهي تريد أن تعيش ، ومن عجب أن بعض العلماء يذهب إلى العمل من أجل إطالة الحياة ، والقضاء على الشيخوخة ، كمحاولة ضد سنن الحياة وطبائعها وتركيبها الذي هو من صميم وجودها .

ولا ريب أن العلم لا يستطيع أن يهدي في هذا المجال ، فالموت حقيقة قائمة ، وهو في بعض مفاهيم العلم : غريزة ، والحياة لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية . والإنسان محكوم بالولادة والموت . وفي ضوء الإسلام . ان الموت ليس نهاية الحياة ، ولكنه مرحلة من مراحلها وانتقال إلى وضع آخر . فالإنسان قد جاء إلى الحياة ليؤدي رسالة استخلافه في الأرض. فهو يعيش التجربة حتى يتمها ، ثم تنتهي مهمته ، فينقل إلى المرحلة الثانية : مرحلة الموت ، وهي مرحلة تنتهي بالبعث العام الشامل . كمقدمة للحساب والجزاء عن هذا العمل . ثم هي مقدمة للخلود الدائم في الجنة أو النار .

هذا الفهم قدمته لنا الأديان ، وقدمه لنا الوحي . وقد أعطينا إياه لنعرف مهمتنا في الحياة ، ولنعرف أن الحياة ليست صدفة ، والإقامة فيها ليست اعتباطاً . وإنما هي تخطيط مسبق مدبر من لدن حكيم عليم . وان علينا أن نأخذ بمهمتنا فيها على النحو الذي يكفل لنا النجاة من العقاب . ولن تكون الحياة بلا معنى وهدف ، ولن يكون العالم قد وجد بلا داع . أو أنه يمضي بغير غاية . فذلك قول الماديين ، ولا دليل لهم عليه . وهو القول الذي أحال صيحاتهم صراخاً في سبيل البقاء في الحياة والخوف من الموت . والماديين لا يتمنون الموت أبداً بما قدمت أيديهم . ويود أحدهم لو يعمر ألف سنة ــ كما أشار القرآن الكريم ــ لأنهم يخشون ما بعده .

ولا ريب أن الموت في مفهوم الإسلام قوة دافعة غير سخيفة . فالمسلم لا يخشى الموت . بل يعد له وينتظره ويتمناه على أعلى مستوى : مستوى الشهادة في سبيل الله . والموت في مفهوم الفلسفات المادية نهاية . ولكنه في الإسلام بدء مرحلة جديدة . والذين يقولون إن الموت نهاية . إنما يدفعون أبصارهم إلى الإسراع في الشهوات واقتناص اللذات التي حرم الله . والخروج عن الضوابط التي رسمها الدين من أجل حماية الفرد وحماية المجتمع .

وعندما يصل الانسان الى الشك في أمر البعث بعد الموت ، تتحطم حياته وتفسد ، لأن ذلك سيدفعه إلى الخضوع لأهوائه إلى آخر مدى ، وتبدو له القيم والفضائل . وكأنها أمور لا قيمة لها . ومن هنا كانت دعوة الفلسفة المادية بكل فروعها وفنونها . (الدهرية والوجودية والفرويدية) وغيرها إلى هدم هذا الجدار الضخم الذي يحمي الشخصية الإنسانية . وهو جدار البعث ، حتى يذهب الإنسان كل مذهب . وحتى ينفرط عقد التماسك الأخلاقي والنفسي وينهار الجسد . وهي دعوة خطيرة لأنها تدفع البشرية إلى الدمار ، في حين يدفعها الإيمان بالبعث إلى القوة والتماسك في سبيل بناء الحياة نفسها وإقامتها وحمايتها من العوادي .

ومن حكمة الله العليا . إخفاء ميعاد الموت ونهايته حتى يظل الإنسان قادراً دوماً على التأهب والعمل ، والترقب . فاذا آمن الإنسان بالله حقاً ، وعرف أن الدنيا طريق إلى الآخرة . لم يفزعه الموت . ولا ريب أن الحياة الدنيا مرتبطة ارتباطاً جذرياً بالحياة الأخرى ، وهي ليست إلا وجهاً من وجوهها . ومرحلة من مراحل تجربة كاملة للإنسان .

الباب الرابع

دعوات هدامة للفكر والثقافة

الفصل الأول : الدعوة إلى إحياء ما قبل الاسلام .

الفصل الثاني : الإسرائيليات .

الفصل الثالث : التغريب . الاستشراق والتبشير .

الفصل الرابع : إحياء الهلينية .

الفصل الخامس : الدعوة إلى العامية :

الفصل الأول

الدّعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام

١

تجددت في السنوات الأخيرة الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام من مذاهب ونحل . وجرى البحث حول تكتيل الجهود لإبراز معالم هذا التاريخ ، ومحاولة خلق تراث فكري ، أو أدبي لهذه المحاولات .

وقد جرى العمل لذلك في كل أجزاء العالم الإسلامي وأقطاره ، وركز في كل قطر على تاريخ سابق للإسلام في محاولة لرده إلى الحياة وانبعاثه ، وربطه بالحاضر عن طريق الفكر والثقافة . والمعروف أن العالم الإسلامي قبل ظهور الإسلام ، قد عاش حضارات مختلفة ، أبرزها الفرعونية ، والفينيقية ، والفارسية ، واليونانية ، والهندية . وكلها حضارات استمدت مصادرها الأولى من الأديان المنزلة ، ثم انحرفت عنها . وقد التمست مفاهيم قوامها السيطرة والاستعلاء ، والعدوان ، وعرفت في محيطها الداخلي بنظام المفاصلة الكاملة بين طبقتين . هما : السادة ، والعبيد .

وقد أبرزت فلسفات هذه الحضارات نظام العبودية وجعلته نبراساً لها . فضلا عن العدوان والغدر للأمم المجاورة . وما تزال صورة الصراع بين الفرس والروم قبل الإسلام من أبرز الأمثلة على هذا النهج الذي عرفته هذه

الحضارات ، وما اتصل بها من أنظمة وفلسفات . ولقد كانت حملات البحث عن الآثار والكشف عنها في البلاد العربية والإسلامبة أداة خطيرة في تشكيل قضية جديدة تطرح من خلال هذه الآثار عن الحضارات القديمة الوثنية التي حطمها الظلم . وقضى عليها الانحراف عن منهج العدل والحق . والتي اشتغلت بالعدوان والظلم والإباحة ، حتى جاءت نهايتها عبرة لدارسي قيام الأمم وسقوطها . كما ارتبطت الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام بالدعوة إلى القوميات الضعيفة والأقليات . وقد برزت في البلاد العربية دعوات الفرعونية والفينيقية والأشورية والبربرية وغيرها . وأحاطها دعاتها ، والعاملون من ورائها ، والقوى الاستعمارية الدافعة لها بكثير من عوامل التحريك والإثارة . غير أن هذه الدعوات لم تجد لها من القوة الذاتية ما يمكنها من الاستمرار . فان التراث المحفوظ منها لم يكن قادراً على أن يشكل قاعدة يمكن التحرك منها .

ذلك أن الإسلام حين جاء منذ أربعة عشر عاماً ، قد أنهى الوجود الفكري والاجتماعي ، للمجتمعات والأمم ، وشكل لها وجوداً جديداً ما يزال حيّاً متجدداً .

ولما كان هذا المنهج الإسلامي : هو منهج ربانيّ قائم على الفطرة ، ملتق بالنفس الإنسانية ، والعقل البشري . فقد شكل في المسلمين مزاجاً له طابعه الخاص الذي انغمس في جذور بعيدة فلم يعد في الإمكان اجتنابه .

لقد تجاوز المسلمون والعرب تاريخهم القديم كله بالاسلام مرتين . مرة من حيث أخرجهم الإسلام من مفاهيم الوثنية ، وعقائد الثنوية ، والتعدد ، وعبادة الأوثان ، وتقديس الفرد ، وتحويل البطل إلى إله . ومرة أخرى حين استقطب الفكر البشري كله . وامتص منه خير ما فيه من عصارة . وتجاوز ما ليس متصلا بالأصول الأصيلة له من التوحيد والعدل ، والإيمان بالغيب ، والمسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي .

ولا ريب أن ما استقطبه الإسلام من ثقافات الأمم وبلوره واستساغه . إنما كان بمثابة ميراث الأديان . ورسالات السماء . وهو الجانب المضيء في تراث البشرية والفكر البشري . أما ما تبقى من الزيف والخلط مما ينحرف عن هذا الجوهر الخالص . فقد رفضه الفكر الإسلامي واستبعده .

٢

الوثنيّة

استهدفت هذه المذاهب الداعية إلى إحياء ما قبل الإسلام إحياء الوثنية والجاهلية . وهي ترمي في مجموعها إلى تهيئة النفس والعقل الإسلاميين، لتقبل تعدد الآلهة والأصنام والنظر في بساطة إلى امور قطع الإسلام فيها بالرفض . ونهى المسلمين عن الاعجاب بها ، أو التوقف عن معارضتها .

ويتصل بهذه الوثنية عادات وتقاليد ونظم ومثل وكلمات كلها مما لم يعد سائغاً أو متقبلا في النفس العربية الإسلامية ، كالعادات الجنائزية . وصلات الأحياء بالأموات . ثم العادات الاجتماعية في الموالد ، والأفراح ، والمآتم . ونحن نعلم أنه في عصر ما من عصور ما بعد الإسلام . استشرت هذه الوثنيات ، وعادت إلى التشكل في صور مهرجانات ، وأعياد ، ومواسم . وخاصة فيما يتعلق بالنيل والحصاد . والولادة ، والوفاة وما تزال هذه العادات سائدة . وهي تختلف اختلافاً واضحاً عن مفاهيم الإسلام وقيمه في هذه الحالات ، فضلا عما تهيء هذه المذاهب من إحياء « طقوس » لا يعرفها الإسلام ولا يقرها . وهو الذي حرر منها البشرية .

ولقد حرر الإسلام المسلمين من كل ما يتصل بالأحجار ، أو الحيوانات ، أو الأنهار ، ودعا إلى التوحيد المعارض للوثنية والشرك والتعدد جميعاً ، واتخاذ بعض الناس بعضهم أرباباً . كما حرر البشرية من عبادة الطبيعة (الشمس

والقمر) وأعلن أنها مسخرة بأمر الله لخدمة الإنسان .

٣

تطلق كلمة الوثنية على مختلف العقائد التي لا تفرد الله سبحانه بالتوحيد وتنسب الوثنية إلى الوثن إلى عبادة الأحجار والأصنام . وقد وصف اليونان القدماء (الإغريق) بالوثنية . كما وصف بها أهل الجزيرة العربية على اختلاف في المدى والفهم . وكانت الوثنية اليونانية عريقة ، لها أيدلوجية كاملة ، ولها فلاسفة : أمثال أفلاطون وأرسطو ، وشعراء أمثال اسخيلوس وسوفوكليس. والعقائد الوثنية متعددة منها تأليه الطبيعة ، أو جزء منها كالشمس والقمر ،أو بعض أنواع الحيوان ، أو تأليه البشر فردا أو أسرة أو جماعة . وذلك كعبادة الملوك والأسر الحاكمة عند بعض الأمم القديمة ، كالمصريين القدماء ، أو الحديثة كاليابان ، والهنود . وكعبادة الأنبياء ، والأبطال ، والقديسين ، والأولياء . ولذلك فقد حرص الإسلام على الاقتصاد في أي نوع من أنواع المبالغة في تكريم الأبطال والصالحين . حتى لا يتحول مع الزمن إلى مثل هذا النوع من العبادة .

وكان الإغريق يقولون بتعدد الآلهة . فكان كل إله يمثل قوة طبيعية خاصة يديرها ، ويتولى أمرها . ومن ذلك زيوس إله الجمال . وأبولو إله الشمس . ونيتون إله البحر وهكذا .

ولم يفرق اليونان بين طبيعة الآلهة ، وطبيعة البشر ، إذ يجوز عليها ما يجوز على البشر من بغض ، وحقد ، وقسوة ، وشره ، وطمع ، وجبن ، وحب للانتقام . وكانت آلهتهم لا ترى بأساً من اغتصاب زوجات الآلهة الأخرى . وتتصف بالأخلاق الشريرة .

ومن العقائد الوثنية : الاعتقاد بألوهية بعض الكائنات الخفية ، وعبادتها . كالملائكة ، والجن ، والشياطين ، والأرواح . أو تأليه جزء من الإنسان كالعقل . وهناك العقائد السلبية ، والإلحادية القائمة على إنكار الله ومحوه ، وإنكار الحياة الآخرة .

٤

الجاهلية

تختلف الوثنية في الجزيرة العربية عن الوثنية الفارسية والإغريقية . ذلك أن الوثنية في الجزيرة العربية : إنما كانت عرضاً تاريخياً ، جاء بعد دعوة التوحيد التي حمل لواءها إبراهيم واسماعيل . فقد اعتنق معظم العرب دين ابراهيم ، ولكنهم مع تقدم الزمن ، ومع تفرقهم في الأقطار . كانوا يحملون معهم بعض حجارة الكعبة يتبركون بها ، ثم حولوا هذه الأحجار إلى أصنام وأوثان . ومن هنا اختفى التوحيد ، وبرزت عبادة التماثيل والأصنام ، وقدمت لها القرابين .

هذه هي ما يطلق عليها المؤرخون . جاهلية الغيرة — ويقدرها بعضهم بنحو أربعمائة سنة . فهي أقصر وثنيات العالم ، وهي تختلف عن الوثنيات العريقة ، أو جاهليات الفطرة ، بأنها لم تقم لها هياكل ، ولا أنظمة ، ولم تكن لها أساطير على النحو المعروف عن وثنيات الهند والصين والفراعنة واليونان .

ولقد عرفت الجزيرة العربية الأديان : كاليهودية والمسيحية . ولكنها لم تعتنقها . وظلت بقايا حنيفية ابراهيم ممتدة إلى زمن البعثة المحمدية .

أما وثنية اليونان ، فقد كانت مثالا خطيراً للتعدد والشرك ، ولها فلسفة قائمة ومفاهيم خطيرة .

ولذلك فقد كانت مفاهيمهم الخطيرة : هي أبرز ما ركز عليه الإسلام ،

وكشف زيفه . وفي مقدمتها القول بقدم العالم وأن الله سبحانه لا يحيط علماً بالجزئيات ، وإنكار بعث الأجساد ، وتقديس العقل .

ومما طرحته الوثنيات الشرقية المتمثلة في مفهوم الغنوصية : وحدة الوجود ، والحلول ، والاتحاد ، والثنائية ، والحدس ، والإشراق ، ورفع التكليف .

ولا ريب أن إحياء ما قبل الاسلام من شأنه أن يحيي هذه المذاهب والأفكار التي كشف الإسلام وجه الحق فيها . وأبان عن زيفها وفسادها .

٥

لا ريب أن الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام تستهدف إذاعة الفكر التلمودي الذي شكله اليهود . خروجاً عن مفهوم رسالة موسى ، واستهدافاً إلى تحقيق غاية معروفة هي الاستعلاء بالجنس والعنصر إلى امتياز معين .

ولقد سجل الباحثون أن الماسونية قد أعادت تشكيل الفكر البشري الوثني السابق للإسلام كله ، واعادت صياغته من جديد ، واعتبرته تراثاً للبشرية تدعو إليه وتزدهي به ، وأن هذا العمل هو أسلوب من أساليب السيطرة الخفية . وفي عدد من كتبها التعليمية مثل كتاب الآداب والعقيدة (Morals and Dagms) يبدو هذا العمل الخطير في إحياء الأساطير والوثنيات وخرافات قدماء المصريين والكلدانيين والهنود والفرس.والعبرانيين واليونان، وما يتصل بها من رموز. كالخنفساء الذهبية.والحية والسمكة والثور يحمل فوق قرنيه الشمس ، والثور المجنح ، وأبي الهول ، والأهرام والمثلثات ، والمربعات، والدوائر ، والأعداد المقدسة كعدد ٣ ــ ٧ ــ ٩ ، وما يتصل بذلك من طقوس متحجرة ومراسم ، فضلا عن السحر . فإنه باب وحده . وقد حرصت التلمودية كل الحرص على هذا التراث ، وعملت في كل العصور على تجديده ، وعلى بعثه في صورة أو أخرى وعلى تلقينه في الجمعيات السرية .

---

١ ــ راجع الرعيل الأول للسيد محب الدين الخطيب . والعصر الجاهلي لابراهيم مصطفى .

وخاصة ما يتصل بالمهابهارتا . والرمايانا . والزاندفستا . والإلياذة وتجيء التلمودية والمشنا على رأس الكتب ومفهومها القائم على العنصرية على رأس المفاهيم . وتلك هي أخطر خلفية وراء إحياء ما قبل الإسلام .

٦

عمد الاستعمار في محاولته الكبرى للتغريب ، وتمزيق وحدة الفكر والأمة إلى خلق ركائز من الطائفية والقبلية . وذلك بالتركيز على عناصرمعينة ، والحيلولة دون تنميتها ، أو إدماجها في المجتمعات . وربماعمد إلى إثارتها ، وتعميق خلافاتها مع المجموعات .

وكان هذا العمل من أخطر العوامل التي استعان بها النفوذ الأجنبي لتحطيم وحدة الرابطة الجامعة تمهيداً لبسط نفوذه على العالم الإسلامي . ولقد كان للطوائف الأرمنية واليهودية كالدونمة في تركيا أبعد الأثر في تأريث المخططات الأجنبية في السيطرة . ولم تكن الطائفية ، أو القبلية يوماً قضية وجود في محيط الإسلام ، بل كانت مختلف الطوائف تجد حريتها وانطلاقتها في المجتمع . وقد وضعت الشريعة الإسلامية لها أنظمة حمايتها ورعايتها ، وتكريم أهل الكتاب ، وحماية المعابد . وقد وصل أبناء الطوائف المختلفة إلى أرقى المناصب في عصور الازدهار ، وكان لهم دورهم في الحضارة الإسلامية والثقافة العربية . ولم يقع بينهم وبين الجماعة أي خلاف أو صراع ، إلا تحت نفوذ الاستعمار ، الذي أعلن أنه إنما جاء ليحمي هذه الطوائف .

وقد استطاعت الحركات الوطنية أن تفوت أهداف النفوذ الاستعماري بالترابط بين العناصر المختلفة في الأمة ، وأن تقضي على الدسائس الأجنبية ، والأهواء والخلافات القديمة التي حاول المستعمر تأريثها .

٧

الإقليمية

وكانت الدعوة إلى الإقليمية واحدة من هذه الدعوات التي تستهدف التمزيق والتفرقة ، لتأكيد سياسة النفوذ الأجنبي . ويبدو هذا الهدف واضحاً من خلف قضايا الدعوات الطورانية والفرعونية والفينيقية وغيرها ، وكلمات الكيان الخاص وغيرها .

والمعروف أن العالم الاسلامي . والأمة العربية . لم تكن تعرف من قبل هذه المصطلحات المتعددة ، وأنها كانت تعتبر « وحدة الفكر » ، أساس الوحدة ، وكانت جامعة الفكر القائمة على المفاهيم المستمدة من الاسلام ، هي مصدر الترابط واللقاء . غير أن النفوذ الاستعماري ما كان يستطيع أن يقيم قواعد نفوذه ، إلا على تقسيم الجماعة الواحدة إلى عناصر ، يتبع بعضها العرق والجنس ، أو يتبع اللغة والدين . وكان دوماً قادراً على إثارة الخلافات المذهبية بين أبناء الدين الواحد ، والتعارض بين أصحاب الأديان المختلفة . وجاء مفهوم القومية الضيقة عاملا هاماً في هذا التحدي .

وجاء نقل مفهوم القومية الغربي الوافد إلى الأمة العربية عملاً أثار البلبلة والاضطراب، وأخرج مفهوم العلاقة بين العروبة والإسلام عن وضعه الأصيل .

وكانت المحاولة الأولى التي حاولها النفوذ الاستعماري أن تكون القومية

بمثابة إقليمية ضيقة ، وأن تنحصر في مفهوم الوطنية والاستعلاء بالأرض والتاريخ الإقليمي . فلما فشلت هذه المحاولة ، وبرز مفهوم « العروبة » جامعاً قوياً في مواجهة النفوذ الأجنبي ، عمدت محاولات التغريب إلى تفريغ هذا المفهوم من قيمته الحقيقية ومن اسمه الأصيل . فظهرت الدعوة إلى قومية منفصلة عن التراث والثقافة ، وبرزت الدعوة إلى قومية علمانية على النحو الذي عرفه الغرب دون تقدير كبير للفوارق البعيدة في الزمن والبيئة والجذور ، وفي تجاهل خطير لحقيقة أكيدة هي أن الأمة العربية لا تستطيع أن تنفصل في حركتها الاجتماعية والفكرية عن قيمها الأساسية ، وأنها لا تستطيع أن تنعزل عن امتدادها النفسي والروحي والثقافي مع العالم الإسلامي .

٨

الفِرْعَوْنِيّة

كان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في العقد الثاني من هذا القرن ، وما وجد فيها من آثار عجيبة (وما تزال تتجدد عروض الآثار الفرعونية ، ويتجدد معها الكلام عن الفراعنة). وقد اتخذ هذا العمل منطلقاً إلى إحياء ما قبل الاسلام من حيث بناء القبور والعصور على الأنماط الفرعونية ، والدعوة إلى لغة وأدب وتراث فرعوني . غير أن حملة هذه الدعوة لم يلبثوا أن أعلنوا فشلهم ، وعجزوا عن تحقيق وجود مثل هذا التراث ليكون نقطة بدء ، ووجدوا أن الصلة قد انقطعت بين المصريين وبين الفرعونية انقطاعاً كاد يكون تاماً ، انقطعت بالإسلام الذي غير النفسية والعقلية والمزاج ، في الانسان تغييراً كاملاً بعد أن أخرجه من الوثنية ، ودفعه إلى منهج رباني . قوامه الفطرة ، وكان قبول المصريين له بالذات من معجزات الإسلام الكبرى بعد انقضاء ألف عام تقريباً بين وثنية الفراعنة واليونان والرومان . وآية هذا الفشل الذريع ما يعترف به أكبر الدعاة إلى الفرعونية : الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمة كتابه (في منزل الوحي) (١) حيث يقول : وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة موئلا لوحي هذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة . فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح

---

١ — ص — ٢٤ — من كتاب في منزل الوحي .

لنهضة جديدة . ورؤّأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو .

ويقول الأستاذ أحمد حسن الزيات : هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلثاً من التاريخ العربي . نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال . ارهقوا إن استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضي ، ثم انظروا ماذا يبقى في يد الزمان في مصر . وهل يبقى إلا أشلاء من بقايا السوط ، وأنضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل (كتاب الأموات) ، وجباه ضارعة تسجد للصخور ، وفنون خرافية شغلها الموت. حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة .

لا تستطيع مصر الإسلامية إلا أن تكون فضلا من كتاب المجد العربي . لأنها لا تجد مدداً لحيويتها ، ولا سنداً لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها ، إلا في رسالة العرب .

انشروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين ، واستقطروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقي في يديه من أكفان الماضي الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار ، وعظمة النيل . ولكن اذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح (عمرو) . وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان (مضر) وأن القيثار الذي توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار (امرىء القيس) . وأن آثار العرب المعنوية التي لا تزال تملأ الصدور وتملأ السطور وتغذي العالم ، هي أدعى إلى الفخر وأبقى على الدهر ، وأجدى على الناس ، من صفائح الذهب وجنادل الحجارة .

وغاية ما يقال في معركة استمرت طويلا أنها وصلت إلى النتائج الآتية :

أولا : ان الفرعونية لا تتمشى مع روح العصر ، وأنها لم تكن لها ثقافة ، وأنها توقفت منذ ظهور الإسلام وجمدت ، وفصل بيننا وبينها تاريخ إيجابي الفعالية قوامه اللغة العربية والإسلام .

ثانياً : ثبت أن هدف المحاولة هو عزل الثقافة العربية عن الفكر الإسلامي ، وعزل الشخصية المصرية عن الرباط العربي ، غير أن المحاولة الضخمة في الفصل بين المصريين وبين العروبة والإسلام كان أمراً بالغ اليأس ، وأن محاولة الارتباط بتراث فرعوني كان مستحيلا .

ثالثاً : تبين من الدراسات التاريخية أن الفراعنة موجة جاءت من الجزيرة العربية ، وأن بين اللغة الهيروغليفية واللغة العربية آصرة ضخمة تؤكد أنهما من أصل واحد .

رابعاً : كان هدف إعادة الفرعونية إدخال مفاهيم الوثنية الفرعونية المرتبطة بالوثنية اليونانية وغيرها ، من تجديد عبادة البشر والأبطال وصراع آلهتهم حول الغايات الحسية والمطامع الدنيا .

خامساً : ثبت أن الفرعونية لم تكن نظاماً اجتماعياً ، ولا قوة دافعة إلى الحرية والمساواة . بل كانت نظاماً عبودياً ، وقيوداً من التخلف الفكري والاجتماعي .

٩

الفينيقية

وكذلك كانت الفينيقية دعوة من الدعوات الهدامة التي أثارها النفوذ الاستعماري لتقسيم وحدة الأمة ، ووحدة الفكر ، وتجديد التاريخ القديم بكل أخطائه وخطاياه في سبيل القضاء على الواقع الحي الإيجابي ، وإعلاء شأن الإقليمية والعنصرية التي سيطرت على الأمم قبل أن يصهرها الإسلام في بوتقته الموحدة التوحيدية .

وقد حملت الدعوة الفينيقية إلى لبنان الدعايات الاستعمارية . لعزل اللبنانيين عن العروبة وقد ارتكزت هذه الدعايات على أن اللبنانيين هم أحفاد الفينيقيين القدماء الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل أن يأتي العرب ، وادعت بأنهم تاريخياً ليسوا عرباً . وإنما هم خليط من أبناء الفينيقيين وأحفاد الأمارات الصليبية .

وقد اتصل بالدعوة إلى الفينيقية دعوات إلى سوريا الطبيعية ، والأمة السورية ، ودعوات إلى البحر الأبيض . وجرت في ظل هذه الدعوة الدعوات إلى العامية اللبنانية ، وكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وإعلاء اللهجات المحلية .

وتعني الفينيقية إعلاء الإقليمية في مواجهة العروبة . وإعلاء الثقافة الفرنسية في مواجهة الفكر العربي الاسلامي ، وإعلاء اللهجات العامية ، واللغات الأجنبية في مواجهة اللغة العربية ، وخلق كيانات ليس لها أساس من الواقع الذي تعيشه الأمة العربية منذ أربعة عشر قرناً .

وقد كشفت أبحاث الآثار والتاريخ المجردة من كل هوى استعماري ، أو شعوبي ، أو دعوة للتغريب ، أن الفينيقية موجة من موجات الجزيرة العربية . وأن شأنها في ذلك شأن الفرعونية ، ومختلف الموجات الأخرى التي انفصلت عن المصدر الأم .

الفصل الثاني

الإسرائيليّات

١

من أخطر التحديات التي واجهت الاسلام والفكر الاسلامي والثقافة العربية ظاهرة الإسرائيليات ، وهي إضافات خطيرة ، ونظريات زائفة مستمدة من نصوص قديمة ، وثنية ومجوسية ، من خارج مفهوم الإسلام وذاتيته المتميزة عن الأديان والفلسفات . تسربت مع الزمن ، وقصد خصوم الإسلام إلى إضافتها إلى الإسلام ، لعزله عن جوهره الأصيل ، وتمييع طابعه الخاص وإخراجه عن بساطته ووضوحه ويسره .

وقد أضافت في مجموعها تفاصيل كثيرة باطلة وتوسعات عديدة تتعارض أساساً مع مفهوم الإسلام القائم على التوحيد ، والمتصل اتصالاً واضحاً بالإيمان بالغيب والبعث والجزاء ، والمستمد من قواعد القرآن ونهجه ومنطقه في مواجهة مختلف القضايا والأمور . وخاصة فيما يتعلق بعالم الغيب ، وما وراء العالم المحسوس .

وأبرز ما أصاب الفكر الإسلامي من الإسرائيليات ما أصاب كتب

الملاحم والمغازي ، وقد تنبه علماء المسلمين وأئمتهم إلى هذا الخطر منذ وقت مبكر حتى أثر عن الإمام أحمد بن حنبل قوله : ثلاثة لا أصل لهم : التفسير والملاحم والمغازي (أي أنها ليست ذات أسانيد صحيحة متصلة) ، ومن ذلك وضع الأحاديث ونسبتها إلى الرسول الكريم في سبيل تأييد موقف أو جماعة أو بلد . وكلها مما كشف المحققون عن زيفه .

وكذلك ما وضعه كهان اليهود : أمثال كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وابن سلام وغيرهم من أخبار وأساطير .

ومما يكشف عن خطورة ظاهرة الوضع ما أثر من أنه كان على عهد الإمام البخاري مائة ألف حديث لم يقبل البخاري منها سوى ٢٥١٣ حديثاً .

وتتصل ظاهرة الإسرائيليات اتصالاً خطيراً بالتفسير ، فقد دست في بعض التفاسير أساطير وأقاصيص غير عربية . أو إسلامية من تراث اليونان ، والفرس ، والهند ، واليهود ، وهي مليئة بالأهواء المضللة .

٢

يطلق المسلمون كلمة الإسرائيليات على جميع العقائد غير الإسلامية . لاسيما تلك العقائد والأساطير التي دسها اليهود والنصارى في الإسلام .

وأبرز ما في هذه الإسرائيليات مادة الكهانة والتنبوءات . وخاصة ما يتعلق بفكرة المهدي المنتظر ، التي كان لها أثر سيء في عصور الضعف . والتخلف . وتلك التفسيرات للآيات القرآنية . والتوسع في أوصاف الملائكة . والجنة والنار والحشر . وتصويرها تصويراً يخرج بها عن أصلها القرآني .

وقد أشار المؤرخون والباحثون إلى أن هذه التكهنات وصلت إلى المسلمين على أيدي القسيسين والرهبان والقبط واليهود وغيرهم ممن حملوا لواء معارضة الإسلام ، وإدخال الزيف إلى أصوله .

وقد أضيف إلى الاسرائيليات مع ترجمة الفلسفة اليونانية والهندية والفارسية.

إضافات أخرى ، كونت حصيلة ضخمة استعملها الشعوبيون وأعداء العرب والإسلام في القديم سلاحاً لتحويل الأبصار عن جوهر الإسلام ، وإخراجه من مضامينه وقيمه ، وإتاحة الفرصة لمفاهيم الوثنية والثنائية والتعدد لغزوه . والتأثير فيه .

وقد واجه المفكرون المسلمون هذه الدخائل الإسرائيلية الباطنية والمجوسية وغيرها ، وفندوها . وكشفوا عنها . وفي مقدمة من تولى ذلك : الجاحظ (البيان والتبيين) والقاضي ابن العربي (العواصم من القواصم)وابن الجوزي (تبليس ابليس) ، كما واجه هذه القضايا : ابن حزم والغزالي وابن خلدون ، وعرضوا لآراء الباطنية والمجوسية والمزدكية والمانوية وغيرهم .

وفي عصر الضعف ومرحلة التخلف وفترة التجميع ، ظهرت كتب كثيرة لم يكتبها علماء محققون وجمعت أحاديث منحولة وأكاذيب ومفتريات مدسوسة على الدين . وفي مقدمة هذه المؤلفات بدائع الزهور ، والعرائس في القصص والأخبار .

٣

حفلت بعض كتب التفسير : أمثال الثعلبي والكسائي والخازن بأمثال هذه الروايات . كما جاء الطبري في تفسيره بأشتات منها . وكانت أمثال هذه الروايات متداولة . ينقلها القصاص بين العامة . وكان الخطأ في رفعها إلى مقام التدوين ، مما ساعد على إشاعة الخرافات والأضاليل في النفوس .

ولم يتوقف أثر التداخل المتصل بالإسرائيليات في الفكر الاسلامي . فكان له في العصر الحديث أثر أي أثر . بل لقد كان من العوامل الهامة في مجال إثارة الشبهات والمفاهيم المغلوطة في مجال الثقافة العربية . وفي مقدمة ذلك خطأ تفسير الخطيئة والخلاص والفداء . وكلها كلمات تسربت إلى الأبحاث العربية . دون أن تحظى بتحقيق واضح لمضامينها وآثارها وموقف الإسلام منها . ولقد كان لعمل المستشرقين الخطر . في ضم مثل هذه الإسرائيليات . إلى مادة دائرة

المعارف وتركيز الاهتمام على اليهود أثره البعيد في أن بدت الإسرائيليات ، وكأنها عناصر من الفكر الإسلامي . فإذا جاءت دائرة المعارف . وضمت إلى موادها مادة : رجعة ووصية ، واتحاد ، وحلول وغير ذلك : تسرب إلى ظن المسلمين أن هذه المواد من صميم مفاهيم الإسلام .

٤

وقد كان لمداخلات الغنوصية والهلينية في الفكر الإسلامي أثرها في دخول كثير من الإسرائيليات. ومن أمثلة الأحاديث المدخولة في هذا الشأن ، تلك التي حاولت أن تعطي العقل مكاناً معيناً أو تصور الرسول بصورة لم ترد في القرآن . أو تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ما لم ينزل به سلطاناً . ومن هذه الأحاديث الزائفة قولهم : أول ما خلق الله العقل ، وقولهم : كنت نبياً وآدم بين الطين والماء . وقولهم : كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف .

وقد هاجم الإمام ابن تيمية . هذه الأحاديث الموضوعة هجوماً عنيفاً . وأثبت زيفها ووضعها وصلتها بمفاهيم الفلسفة اليونانية وتعارضها مع جوهر الإسلام . كما عارض العلماء المسلمون ما يتصل بتجاوزات بعض العابدين كالتهام الثعابين ، والمشي على السيوف ، والرقص على نقرات الدفوف .

وقد وضع المحققون لهذه التجاوزات ضوابط ، فقال أحدهم : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود . وأداء الشريعة .

وقال الامام الغزالي في هذا الصدد : لو رأيت إنساناً يطير في الهواء . ويمشي على الماء . وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان .

٥

وقد ذهب أغلب الباحثين إلى أن أكثر الأحاديث الموضوعة من الإسرائيليات إنما وضعت عن تدبير وتخطيط وخصومة وكيد . وأنها من عوامل الحرب

الفكرية والعقائدية الضارية التي شنها اليهود وغلاة النحل المبتدعة على الاسلام والمسلمين بكافة الوسائل من التخفي والتسلل والتمويه بقصد تمزيق وحدة المسلمين وتلهيتهم عن دينهم القويم وتشتيتهم عن صراطهم المستقيم . (١) ويصف بعض الباحثين هذه الظاهرة بأنها ليست إلا حرباً حقيقية لكتاب الله ، أرادوا بها صرف كل من يقرأ تفسيراً من التفاسير عما يريده الله في كتابه من هداية البشر إلى حكايات وأعاجيب وأساطير تستهوي البسطاء . ثم تتراكم هذه الأساطير وتعترض حركة الافهام السليمة .

١ – قرار مجمع البحوث الاسلامية في ١٠ – ٣ – ١٩٧٢ ، والشيخ عبد الجليل عيسى .

الأساطير

١

ويتصل الحديث عن الإسرائيليات بالحديث عن الأساطير . وقد جاء الإسلام معارضاً لها كاشفاً عن زيفها ، محرراً العقل والنفس الإسلامية من الخرافة .

وقد ارتبطت الأساطير بالوثنية اليونانية والفارسية والهندية ارتباطاً وثيقاً. وغلا بها الاغريق غلواً شديداً . فقد كان لديهم قصص كثيرة . يفسرون بها الحياة والطبيعة والخير والشر . وكانوا يؤمنون بأن هذه الأمور بأيدي آلهة وإلهات . ويربط الغربيون بين الأسطورة والدين، بينما يعلن الاسلام التحرر الكامل من كل أسطورة أو خرافة أو صورة غامضة .

والعرب قبل الإسلام ، لم يكونوا يعرفون من الخرافة إلا قدراً قليلاً ساذجاً ، وقد أسقطه الإسلام ومحاه ، وأحل محله قصصاً حقيقية من عبر التاريخ وأحداث الأمم . أما غير العرب من الفراعنة والفرس ، والهنود ، فقد كانت لهم أساطيرهم المشركة الأصل . الوثنية الطابع .

وقد كشف كثير من الباحثين عن الأصل المشترك ، والالتقاء الجذري لأساطير اليونان والمسيحية والفراعنة (١) . وما نقل إلى العربية من أساطير في كليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة . إنما هو تراث من أساطير ما قبل الإسلام الهندية ، والفارسية ، والفرعونية ، واليونانية . ويحتوي العهد القديم عديداً

---

١ – اقرأ مجلة الأبحاث المحلية ٦ ص ٦٦ .

من هذه القصص والنبوءات . وقد استغل الأدباء ، ورجال الفقه والفن من الغربيين هذا التراث .

أما القصص الشعبي فهو بقايا الأساطير التي سادت في العصور الوسطى عن الحروب والغزوات . ولقد وضع القرآن كل هذا التراث القديم في ميزان النقد ، ورد على كل ما فيه من زيف ، وكشف عن الحقيقة ، وأسقط الأساطير والأضاليل . وجلا الحقيقة في مختلف ما يتصل بالعصور القديمة من أحداث ومواقف ، ويتصل بجوهر الدين ورسالة الأنبياء ونضالهم في مواجهة معارضة الأمم والمتغنين من المكذبين .

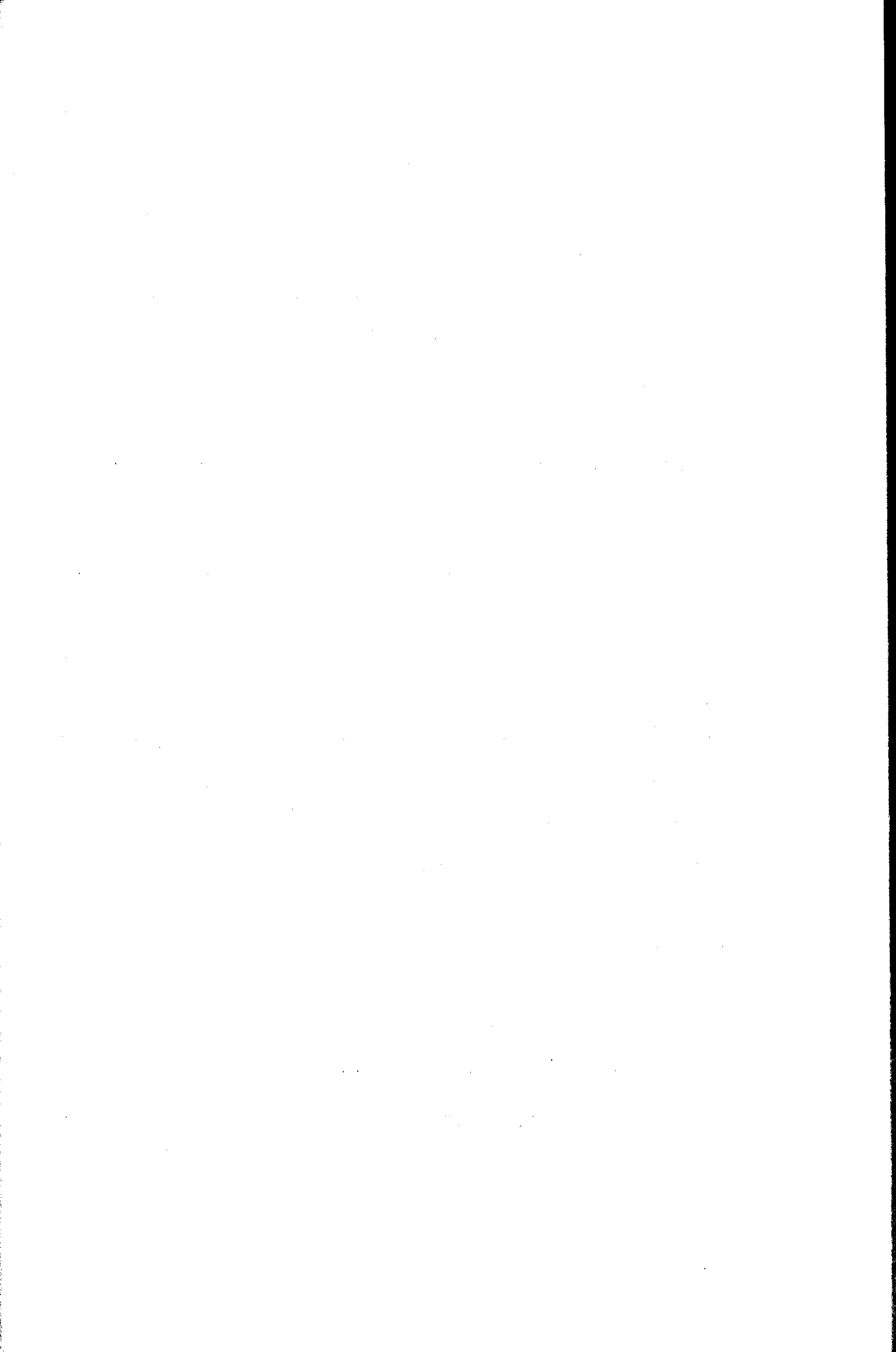
(٢)

وقد قذف الغربيون الفكر الإسلامي ، والأدب والثقافة العربية بقدر ضخم من هذه الأساطير في محاولة لتجديدها وإذاعتها . وعني كثير من الكتاب والأدباء بترجمتها ومحاولة إغراق الأدب العربي بها ، وجرى البحث حول الأساطير في الأدب العربي نفسه . وكان من أهم هموم المستشرقين والمبشرين . البحث عن الأساطير . وقال رينان : إن العرب ككل الأمم السامية . ليس لها أساطير في شعرها . ولا في عقائدها . ونسي أن اليهودية التلمودية هي مفرخ الأساطير البشري الأكبر . وأن كل ما عرف من أساطير بابلية وأشورية وغيرها . إنما تتصل بالوثنية والاباحية . التي أذاعتها التلمودية . عمد البعض إلى بعث الأساطير العربية في عصر ما قبل الإسلام ، وكان المفكرون المسلمون قد حرروا السيرة النبوية من كل ما يتصل بها من أساطير وزيوف . وأقاموا منهجاً من التحقيق العلمي في الحديث وصف بأنه أعظم المناهج التي عرفها البحث العلمي ، غير أن بعض الكتاب جاء في العصور الأخيرة ، فأعاد الأساطير إلى السيرة مرة أخرى . وخلطها بها ، وانتحل أساطير جديدة . وقد بدا ذلك واضحاً في كتاب (على هامش السيرة) .

وقد عارض الباحثون هذا الاتجاه . ووصفوه بأنه اتجاه خطير ، بعد أن

حرص المسلمون طوال العصور على تنقية سيرة الرسول من الروايات الخيالية والوهمية التي حاولت الإسرائيليات إلصاقها بها . ويتصل بهذا إذاعة أساطير في مجال السحر Magic . وفنون السحر هي من فنون اليهود القديمة التي برعوا فيها، والتي ما زالوا يحرصون عليها.والسحر هو عمل من أعمال الأساطير وجمع الخرافات ، ما يتصل بذلك من القول بقداسة الشجرة والجبل . ويتصل هذا بالكهانة والعرافة ، ذلك أن الكهانة في مفهومها هي محاولة استطلاع الغيب عن المستقبل ، بينما العرافة تعني استرجاع الماضي ، وهما محاولتان للتنبوء .

وقد رفض الإسلام كل هذا التراث بما فيه من خرافات وأوهام من المسلمين ، وأسقطه نهائياً من دائرة فكرهم ، وأقام مفهومهم على اليقين والبرهان والدليل والاستقراء والتجربة . وبمفهوم المسلمين جاوزت البشرية عصر السحر والأساطير والنجوم ، وخرافات الطلاسم ، والرقى والقرابين التي كانت تقدم للأشجار والأصنام لتحمي مقدميها من شرها وخطرها . ولقد ارتبط السحر بالوثنية والإلحاد ارتباطاً واضحاً . والنفوس الوثنية والملحدة تفقد الأمل والرجاء في الخير ، كما تفقد طابع التفاؤل والبشرى . والمسلم المؤمن لا ييأس من روح الله ، ولا يخاف شيئاً . ومن هنا ارتبطت الوثنية بالخوف من العوالم الباطنة ، وأخطار الشياطين والجن والظلام . ولقد حرر الإسلام البشرية من أن تصلي أو تتوب إلى من كانت تطلق عليهم آلهة الخير من أجل الذرية والحصاد . أو آلهة الشر من أجل حمايتهم من الشرور والأضرار . ومنحت العالم منهجاً قائماً على التوحيد ، والإيمان بالله، ورجائه وحده ، والخوف منه وحده . وأنه المرجع الأول والأخير في كل خير وضر ، وهو الذي يرفع الضر . ويمنح الخير . « انْ يَمسسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاّ هُوَ وَإنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ » .



الفصل الثالث

دعوة التغريب وقواها (التبشير والاستشراق)

قبل أن يصدر المستشرقون الخمسة كتابهم (وجهة الاسلام) في أوائل الثلاثينات من هذا القرن لم تكن كلمة « التغريب » معروفة أو متداولة ، حتى ليمكن القول بأنه أول من طرح هذا المصطلح هو كبيرهم : هاملتون جب . ويعني به القدر الذي أثرت به الثقافة الغربية في الإسلام . وتركز عوامل التغريب على التربية والتعليم والصحافة ومقومات الحياة وكانت في أكثرها ترمي إلى التفرقة بين الحياة الزمنية ، والحياة الروحية الدينية .

ومعنى هذا أن الهدف هو إقامة هذه الانشطارية بين قيم الإسلام المتكاملة الجامعة بوصفه ديناً ومنهج حياة للوصول إلى أن يصبح الإسلام ديناً لاهوتياً فقط ، ويسقط الجانب الآخر منه ، وهو جانب النظام الاجتماعي ومنهج الحياة .

ويقرر جب : أن الاسلام كدين لم يفقد إلا قليلا من قوته . أما كنظام للحياة الاجتماعية فإنه قد نزل عن عرشه ، وقامت إلى جانبه ، أو من فوقه

قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الأحيان مع تقاليده . وتنظيماته الاجتماعية .

ويعني بها غلبة المصرف القائم على نظام الربا ، وسيطرة القانون الوضعي .

ويتحدث ارنولد توينبي في كتابه (العالم والغرب) عما أسماه الدور الذي لعبه ضباط تركيا في حركة التغريب ، وكيف تسربت عدوى الأفكار الغربية إلى عقول الضباط . ويقول : ان مسألة التغريب المتزايدة في تركيا لا تحل إلا بأحد وسيلتين : إما إن يدفع الأتراك يوماً ثمن خطأهم بانهيارهم تماماً . وإما أن ينجوا من التصفية الشاملة بحصرهم قواهم كلها قلباً وعقلاً في (التغريب) .

ويعقد « جان بول رو » في كتابه الإسلام في الغرب فصلا كاملا تحت عنوان « تغريب الإسلام » ويعرض للتغير في حياة المرأة ، وللتربية وخروجها عن منهج الإسلام ، وللتبشير في إفريقيا . وتجربة النظام اللبرالي السياسي .

ولا ريب أن معالجة المستشرقين هذه الظاهرة ، بمثل هذه الجرأة والتوسع ، ليعد دليلاً أكيداً وملموساً على ما يعتقد به المصلحون المسلمون من رجال حركة اليقظة بأن هناك مخططاً دقيقاً منظماً ، ظل يعمل سنوات طويلة من خلال مناهج التبشير والإرساليات . ومعاهدها تقوم بدعمه والتخطيط له ، واعداد مادة الحرب من نظريات تحمل الشبهات والمغالطات والشكوك ... قوة كبرى هي هيئة الاستشراق . وعن طريق المدارس والمعاهد التبشيرية والصحف تثار هذه الشبهات والشكوك . وتنمو وتغرس في العقول والقلوب على النحو الذي يحقق هدف الاستعمار بصهر المسلمين والعرب في بوتقة الثقافة العالمية الغربية .

ولم تكن في حاجة إلى أن تقدم هذه النماذج . لولا أن بعض المغرضين من خصوم العرب والإسلام يعلنون انزعاجهم في كل مناسبة . عند ما يكشف الأبرار عن هذه الخفايا ويفضحونها ويضعونها أمام الشباب المثقف لمعرفة أبعاد الأخطار التي تحيط به مما يطلق عليه الغزو الثقافي والتغريب .

ولا ريب أن معارضتهم هذه تكشف عن عمالتهم وتبعيتهم وحرصهم على التماس مصادر الرزق والحياة . « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة . تعس وانتكس » .

والتغريب في أبسط مفهوم هو : حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب ،والتخلي عن الدعائم الأصيلة التي تفرض ذاتية خاصة وطابعاً مميزاً للإسلام ، وإثارة الشكوك في الثقافة والاجتماع والاقتصاد والتشريع والتربية . ونحن نعرف أن الغرب في غزوه لعالم الإسلام في العصر الحديث قد ابتكر أسلوباً جديداً يحقق عن طريقه ما عجز عنه في الجولة السابقة : جولة الحروب الصليبية التي خرج منها مهزوماً مدحوراً .

ومن هنا كانت خطته في أن يتجنب الصدام . وأن يعمل عن طريق التبشير والاستشراق لهدم مقومات القوة في فكر المسلمين والعرب ، وبالتالي في مجتمعهم . وكانت فريضة الجهاد هي أخطر هذه المقومات . ولذلك فقد وضعت مناهج التربية والتعليم على النحو الذي يكفل تجاوزها أو حجبها(١)، ويلي هذا الهدف أهمية تجزئة مفهوم الإسلام . ومحاولة رده إلى مفهوم عبادي لاهوتي ، رغبة في القضاء على جانب التشريع الإسلامي ، وإحلال القوانين الوضعية بديلا عنه .

ولا ريب أن مظاهر التغريب ممثلة في حركة التبشير . قد كانت ، ولا تزال واضحة أمام أمتنا على النحو الذي لا سبيل إلى تجاوز تقدير خطرها .

ومن خلال مخططات التبشير وعمله انكشفت حقيقة التغريب حين قال دكتور زويمر : ليس الهدف من التبشير هو إدخال المسلم في دين آخر ، ولكن الهدف هو إخراجه من الإسلام . حتى يكون خصماً له وعدواً .

فالهدف إذن هو توجيه الثقافة إلى مفهوم الالحاد والاباحية التي تفتح

---

١ – راجع بالتفصيل هذه الظاهرة في كتابنا الاسلام والثقافة العربية .

الآفاق إلى الانتقاض على الدين والخلق جميعاً . وهذه هي الغاية الكبرى للتعليم التبشيري .

ولقد كشفت أفكار المستشرقين وآراؤهم المسموعة الهدف من كتاباتهم، وما فيها من تحريف وزيف .

وقد ركزت حملة التغريب على القيم والمقومات والتاريخ واللغة ، وأثارت حملة التشويه والتمويه ، والقطع بين الأصول والفروع وإفسادها .

وكانت المحاولة هي : إحلال النظرة الجزئية بدلا من النظرة الشاملة . وطرح مفاهيم للقيم تختلف عن مفاهيمها الأصلية ، وانتزاع الطوابع المميزة للفكر الإسلامي والثقافة العربية كالتضليل عن الفوارق بين المعرفة والثقافة . والخلط بين العلم والفلسفة . والدعوة إلى مفهوم الغرب القائم على الفصل بين القيم فيما يتعلق بالأدب والسياسة ، وفصلها عن الأخلاق .

٢

وبالجملة فإن التغريب يستهدف إيجاد شعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة . وذلك بإثارة الشبهات ، وتحريف التاريخ الاسلامي ومبادىء الإسلام وثقافته . وإعطاء المعلومات الخاطئة عن أهله . وانتقاص الدور الذي لعبه في تاريخ الثقافة الإنسانية . ومحاولة إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية التي تتمثل في ماضي هذه الأمة . مع توهين القيم الإسلامية، والغض من مقدرة اللغة العربية ، وتقطيع أوصال الروابط بين العرب والمسلمين .

ومن أخطر مخططات التغريب : الحيلولة دون قيام (وحدة الفكر) التي هي مقدمة لوحدة الأمة وبلبلة العقول والنفوس بعشرات من المذاهب والدعوات. وتجميد الفوارق الثقافية والاقتصادية في الأمة الواحدة مما يحول دون قيام الوحدة .

٣

وحركة التغريب Westernism دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها . تخدمها مؤسسات مختلفة أهمها مؤسسة التبشير ، ومؤسسة الاستشراق . ويقول أصحاب هذه الدعوة ان للمسلمين والعرب قيماً ومثلا وذاتية خاصة تحول بينهم وبين الاندماج في الأمم الأخرى . وتخلق فيهم قدرة قوية على مقاومة النفوذ الأجنبي والغاصب . ولا سبيل للقضاء على هذه المقاومة إلا صهر هؤلاء في بوتقة الفكر الغربي وإخراجهم من قيمهم لينصهروا في قيم الغرب . وذلك لخلق جو من الالتقاء معه ، والتقبل له ، والانضواء تحت لوائه .

التبشير

يعتمد التبشير على المدرسة والمستشفى، من خلال حالة الطفولة والتكوين للنشء، ومن خلال حالة المرض والضعف للمريض .

وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من « التبشير » هو انشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الاسلامي . وإبعاد العناصر التي تمثل الإسلام عن مراكز التوجيه .

وقد كانت خطة التبشير — ولا تزال ـ موحدة شاملة ،وذات مراحل وحلقات . وقد أشرف عليها رجال ذوو خبرة واقتدار ، وفهم عميق لمخططات التغريب في خدمة الاستعمار . وهي تتبع عادة وزارات الخارجية والمستعمرات في الدول المستعمرة . ولها ارتباط مع جماعة المستشرقين لاستخلاص المادة المتجددة للتشكيك وإثارة الشبهات .

وقد أكد مدى التناسق بين هذه الهيئات جميعاً من التقارير التي نشرتها مؤتمرات المستشرقين والتي تكشف عن أن وزارات المستعمرات تستخدم المبشرين في العمل داخل البلاد العربية والإسلامية وتؤكد أهمية عملهم . وخطورة دورهم في أن يكونوا عنواناً لها، وأداة لتحويل الأفكار على النحو الذي تريده .

وقد أشار كثير من الساسة إلى أهمية الدور الذي يقوم به التبشير . فقال

لورد بلفور وزير الخارجية البريطانية : إن المبشرين في نظر الاستعمار هم عيونه التي تقوم باطلاع الدول الغربية بالنواحي التي تهمها معرفتها من عقائد المسلمين وآدابهم ، والثقافات التي يتأثرون بها .

ويشير المؤتمر الاستعماري المنعقد في برلين عام ١٩١٠ إلى أن ارتقاء المسلمين يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم . وأن هذا يتطلب من الحكومات تيسير عمل التبشير ، وإفساح الطريق أمامه .

ومن مناهج التبشير وأنظمته ، تلك القاعدة التي تقول ان جميع الوسائل تستغل في سبيل التبشير حتى أعمال البر . وأن التطبيب والتعليم من أهم وسائل المبشرين .

وتشير المخططات إلى أن يكون عمل التبشير مبنياً على قواعد التربية العقلية . والتأثير على عقول المسلمين وقلوبهم ، وبث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية . وذلك عن طريق نشر اللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية . مما يمهد إلى إدخال تلك الأفكار وان هذا يؤدي إلى سقوط الأوضاع والخصائص الاجتماعية الإسلامية، لتحل محلها الخصائص الغربية .

الاستشراق

ولما كان الاستشراق هو « المصنع » الأساسي لمخططات التغريب ، بينما التبشير هو أداته . فإن أصدق تعريف للاستشراق هو : استخدام العلم في خدمة السياسة .

ومادة الاستشراق هي أعظم معطيات التبشير عن طريق المدرسة والصحيفة. وفي مجال التعليم لدعم خططه ، وإثارة عوامل الخلاف ، وتأريث الشبهات .

ذلك أن الاستشراق إنما يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة ، وبأحكام مقررة ، وبأهداف واضحة . أساسها خدمة النفوذ الاستعماري ، وقوامها التعصب والاتهام للإسلام والعروبة واللغة . وأعمال رجاله هي البحث بملقط وتحت مجهر عن هفوات صغيرة ، وتكبيرها وجمعها وتضخيمها . ومهما صبغت كلماته في أسلوب براق له مظهر علمي ، فإنها تنطوي على الحقد والتعصب مع عدم الخبرة ووضوح انحياز الهدف .

وقد عمل عدد كبير من رجال الاستشراق في مجال التبشير ، وكانت كتاباتهم وقوداً قوياً في أيدي المبشرين . ومن هؤلاء : مرجليوث ، وماسنيون ، وهنري لامنس ، ولويس شيخو ، وفنسنك وجولد زيهر . وهم أشد المستشرقين تعصباً على الإسلام واللغة العربية — وتكشف أعمال المستشرقين عن غير قليل من القصور في الفهم ، والهوى في القصد . وأخطر ما يتصل بتاريخ الاستشراق : أن رجال الإرساليات التبشيرية قد خلعوا

أثوابهم في السنوات الأخيرة . (بعد أن انكشف أمرهم ، وتخفوا وراء أستار الاستشراق) . ويتحدث الكثيرون بحسن نية وبساطة عن الدور الذي حققه الاستشراق في بعث التراث العربي الإسلامي ، ومن يعرف أن مصدر اهتمام المستشرقين بالإسلام والعرب ليس مجرداً ولا خالصاً لوجه العلم والحق . إنما يدركون كيف يفيدون من وراء هذه الدراسات تعرفاً إلى نفسية هذه الأمم ليكيفوا مواقفهم ومعاملاتهم ، وليكشفوا تطلعاتها ليحكموا الضربة ، ويحيطوا بوسائل الإخضاع والسيطرة . وهم يستهدفون من ذلك كله معرفة جوانب القوة للقضاء عليها ، وجوانب الضعف لتعميقها . وذلك في سبيل هدف واضح هو أن يبقى نفوذهم ويستمر . وهم في كل ما كتبوه . قد عمدوا إلى وضع الإسلام والعرب واللغة العربية والتاريخ في قفص الاتهام ، وأوقفوا كتاب العرب والمسلمين موقف الدفاع ورد السهام .

وإذا كان الاستشراق خالصاً لوجه العلم ففيم يركز على الجوانب الضعيفة ، والروايات المدخولة ، والشبهات المشكوك فيها ، والنصوص المحتملة ، ويدع كل ما هو وثيق ومستكمل وواضح ؟ ولماذا يركز على الخلاف حين يدرس الشريعة ؟ ويركز على الباطنية حين يدرس الفلسفة ؟ ويركز على وحدة الوجود حين يدرس التصوف ويركز على العامية حين يدرس اللغة ؟

ولماذا يولي اهتمامه لبشار وأبي نواس في الأدب ؟ والحلاج والسهروردي في التصوف ، وأبي بكر الرازي والراوندي في الفلسفة ولماذا يهاجم المتنبي والغزالي وابن خلدون وابن تيمية وهم من أبرز أعلام الأدب ؟ والفكر الإسلامي ؟

ولماذا يدع ألف باب من أبواب الاصالة في الفكر الاسلامي ليركز على حواشي تتصل بالآثار الفارسية والهندية واليونانية ؟ ولماذا يبعث من جديد الشبهات التي أثارتها الشعوبية قديماً ويطرحها من جديد ؟ ولماذا يعيد إلى البقاء حيث لا سبيل للبقاء : الفرعونية والفينيقية ؟ ويركز على الخلاف بين السنة والشيعة ، ويحاول إثارة الخلاف بين الأديان ، والأمم ، والمذاهب ،ويفتح

باب الشكوك بين العرب والمسلمين ؟ ولماذا الاهتمام بأخبار الزنج والقرامطة والمجوسية . والادعاء بأنها ثورات إسلامية ؟ ولماذا تكتب الأبحاث المطولة عن نبوة مسيلمة الكذاب ، وإنكار وجود عبد الله بن سبأ ؟ ان نظرة شاملة إلى أعمال الاستشراق تكشف بوضوح عن أنه ركز على الأفكار الدخيلة والفلسفات الوافدة والمواقف المضطربة ، وحاول أن يضم ذلك كله إلى تراث الاسلام النقي الصافي .



الشعوبيّة

ومن خلال مخططات التغريب ، برزت مجموعة من التابعين الذين شكلهم النفوذ الغربي في إرسالياته ، ومعاهده . يحتقرون كل قيم العروبة والاسلام ، ويعارضون مقوماتها ، ويقفون موقف الاستهانة والغض من قدرها .

وقد تشكل من خلال هذه المضامين المنحرفة ما يسمى بالشعوبية الحديثة ، وهي مضامين تحمل معارضة صريحة للقيم الأساسية للفكر الإسلامي العربي ، ومفاهيم في اللغة والقرآن والرسول والإسلام والتاريخ والتراث ، وتقوم في أغلبها على انتقاص هذه المقدرات ، والغض من شأنها ، وإثارة الشبهات حولها . وهي في مجموعها تقوم على الأسس الآتية :

(١) الإقليمية ، وإعلاء شأن الدعوات القديمة كالفرعونية والفينيقية والجاهلية العربية والوثنية اليونانية وإحيائها في الأدب والتاريخ والمسرحية والرواية . (٢) إنكار الروابط العربية الإسلامية الجامعة . (٣)الغض من قدر اللغة العربية ، وإعلاء العاميات (٤) انتقاص التاريخ العربي الاسلامي . (٥) محاولة وضع مصطلح القومية الوافد مكان مفهوم العروبة الأصيل (٦) إنكار أثر الحضارة الإسلامية العربية في الحضارة البشرية (٧) تفريغ مفهوم العروبة من القيم الإسلامية والتاريخ والتراث . ويغلب على هذا الاتجاه

طابع « العنصرية » وغلاف « العلمانية » ، وإطار براق من النهج العلمي الخداع الذي يخفي وراءه أكبر مخاطر التعصب والحقد والتشكيك والانتقاص. وتستهدف الشعوبية الحديثة إذابة العرب والمسلمين في مفهوم زائف وخطير، هو مفهوم عالمية الثقافة، أو منهج الفكر الحر. وكلاهما من صياغة الدعوات الهدامة التلمودية الصهيونية.

الفصل الرّابع

إحياء الهلّينيّة

١

كان من أخطر المحاولات التي جرت في ظل النفوذ الاستعماري : إحياء الهلينية ، ومحاولة إغراق الفكر الإسلامي والثقافة العربية في موج متلاطم من مترجمات اليونان والإغريق . وقد بدأت هذه الدعوة بترجمة مؤلفات أرسطو ، ثم بالتوسع في ترجمة الأسطورة . واتسع نطاق هذا الاتجاه حين أدخل إلى الدراسات الجامعية : مادة اللغتين اليونانية واللاتينية القديمتين . ومن ثم نشأ تيار ضخم أعاد بعث هذا التراث وفرضه على الأدب العربي والفكر الاسلامي . ومن ثم أصبح له تأثيره في مقومات الأدب وخصائص الفكر ، وهو أثر جاء أشد عنفاً من أثر الترجمة التي تمت في العصر العباسي للفلسفة اليونانية .

وقد جرت الدعوة إلى هذا المخطط تحت عنوان ضخم وزائف في نفس الوقت هو القول بأن الثقافة اليونانية : هي مصدر الثقافة الانسانية .

وقد كشفت الأبحاث الجادة عن زيف الدعوى القائلة بأن مصادر كثيرة في البلاغة ، أو النقد ، أو المنطق . قد استمدها الأدب العربي من اليونان . فقد كان العرب قد شكلوا بيانهم وبلاغتهم ونحوهم ، قبل أن يتصلوا

بالإغريق . وكان لهم من القرآن منطلقاً أساسياً ، لبناء أدبهم وفكرهم ، وكانت اللغة العربية بماضيها الحافل . واستقلالها الواضح ، قد خطت خطوات واسعة قبل الإسلام ، وقبل نزول القرآن ، على نحو يكشف عن زيف دعوى التأثر العربي باليونان . وهي دعوى أذاعها بعض الشعوبيين من أتباع الاستشراق والتبشير بهدف القول بأن تبعية العرب في القديم لليونان لا تمنع تبعيتهم في العصر الحديث لخلفاء اليونان من الأوربيين .

٢

ومما كذبته الوقائع والأسانيد ، القول بأن عقلية مصر عقلية يونانية ، أو أن الفكر اليوناني ، قد أثر في الأمم التي عاشت على شاطىء البحر الأبيض قبل الإسلام . ومهما يكن هذا التأثير فإن الاسلام قد جب كل ما قبله ، وأزال من العقول والنفوس كل آثار الأمم والأديان والمذاهب ، وأقام منهجاً جديداً ، مستمداً من القرآن ، ومرتبطاً بالدين الحق في كل ما أنزل الله على نبيّ سابق ، وهو في نفس الوقت متصل اقوى الاتصال بالنفس البشرية . والفطرة الإنسانية .

ولقد أكد كثير من الباحثين أن ظهور الإسلام كان بمثابة فاصل فكري ،و حاجز عقلي بين عنصر وعنصر ، وأن ركام الفكر البشري الذي كان يتموج قبل الإسلام ، قد أصابه وهن كبير ،عند ما وقع تحت أضواء الفكر الرباني الموحى به ، والإنساني الطابع ، والمحرر للبشرية من العبودية والوثنية والإلحاد والإباحة ، ولا عبرة لما يتردد من أن الفلسفة الإسلامية لم تكن إلا فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية فقد اتخذ المسلمون منطلقهم العلمي ومنهجهم في المعرفة من القرآن ، وبه شكلوا منهجاً خالصاً يختلف كل الاختلاف مع الفلسفات القديمة ، ويتعارض معها من ناحيتين ؛ من ناحية نقطة البدء وهي التوحيد في مواجهة الوثنية والتعدد . ومن ناحية نقطة التطبيق ، وهي

المجتمع القائم على المساواة في مواجهة نظام العبودية الخطير الذي كان قائماً في مجتمعات الحضارات الثلاث الكبرى في العالم (الفرعونية والفارسية والرومانية) .

ولقد كان لعلماء المسلمين موقفهم من آراء أرسطو ، ومن المنطق بصفة عامة .

٣

وإذا كانت الفلسفة اليونانية ، التي ترجمت في العصر العباسي ، قد جاءت باختيار المسلمين ، فإن الفلسفة اليونانية التي ترجمت في العصر الحديث قد جاءت ، وإرادة المسلمين مسلوبة ، وقد فرضت عليهم فرضاً . فلم يكن لهم دور في اختيارها . ومن هنا : فإن ما ترجم من عناصر الأسطورة والمسرحية والمأساة ومفهومها ، ومحاولة إدخال ذلك في الفكر العربي الإسلامي . إنما جاء معارضاً للذاتية العربية ، وللمزاج العربي الإسلامي ، الذي تشكل في ضوء القرآن خلال أربعة عشر عاماً ، على نحو مختلف عن مفاهيم اليونان الوثنية القائمة على المادية والاباحية (١) .

وإذا كانت المدرسة الهلينية الحديثة ، قد استطاعت أن تحقق انتصاراً خاطفاً . فإن مدرسة الاصالة التي انبثقت من حركة اليقظة العربية الاسلامية ، قد استطاعت أن تكشف هذا الزيف ، وأن ترد الأمور إلى حقائقها ، ليس بالنسبة للمترجمات المستحدثة فحسب ، بل بالنسبة لتقويم مترجمات الفلسفة

---

١ — راجع علي سامي النشار . وأبحاث اسماعيل مظهر

اليونانية إلى الفكر العربي الإسلامي كلها . فقد تكشفت حقائق كثيرة في هذا المجال أهمها .

أولا : إن الفلسفة التي ترجمت للمسلمين في العصر العباسي لم تكن ثقافة إغريق صحيحة، بل كانت صورة من عقائد النساطرة واليعاقبة الذين ترجموها، والذين عمدوا إلى التبشير بمعتقداتهم النصرانية في عالم الاسلام . متخذين من ترجمة الفلسفة اليونانية سبيلا إلى ذلك ؛ هذا فضلاً عن أن عدداً من الكتب ترجم منسوباً إلى مؤلفين غير الذين ألفوه . ومن أخطر ذلك ما نسب إلى أفلاطون ، وهو من تأليف أرسطو مثلا . وقد اعتمد الفلاسفة الذين حملوا هذا اللواء أمثال الفارابي وغيره على هذه الزيوف ، فكان لها أسوأ الأثر في أبحاثهم .

ثانياً : تكشف بطلان الدعوى التي ادعاها بعض الشعوبيين من القول بتأثر العرب بالأدب اليوناني . وقد أفاض الباحثون في تزييف الرأي القائل بالتأثر ومن هذا ما أثبته فخري أبو السعود :

السر في ذلك راجع إلى سليقة العرب المطبوعة على البيان ، المفطورة على فصاحة اللسان . فإن العرب لم يكن لديهم سوى اللسان أداة للتعبير ، ومن ثم تأصلت فيهم سجية البلاغة ، وارتفعت فيهم مرتبة البلغاء ، وتوطدت لغتهم ، ونضج أدبهم ، وهم على بداوتهم وقلة حظهم في الحضارة . ولذلك لم يحاكوا شيئاً من الفنون التي كانت حولهم في اليونان والرومان والفرس والمصريين .

ثالثاً : أمكن التنقيب في النصوص القديمة ، والكشف عن زيف الادعاء بأن قواعد البلاغة العربية إنما اسست على ما وضع أرسطو ونقله العرب .

فقد كشف ابن الأثير في « المثل السائر » خطأ هذا الاتهام — وكتاب المثل السائر من أشهر كتب البلاغة — وذلك في قوله : « فإن قلت إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه . قلت لك في الجواب إن هذا شيء لم يكن » إلى أن قال : « وهذا باطل بي أنا . فإني لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ، ومع هذا فانظر إلى كلامي « إلى أن قال » ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا . وانساق الكلام إلى شيء ذكره لأبي علي بن سينا في

الخطابة والشعر . وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليوناني يسمى اللاغوذيا . وقام فأحضر كتاب الشفا لأبي علي . فوقفني على ما أذكره . فلما وقفت عليه استجهلته . فإنه طول فيه وعرض كأنه يخطب بعض اليونان ، وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد منه (١) صاحب الكلام العربي شيئاً » .

رابعاً : انكشفت المحاولات الهدامة التي تهدف إلى ربط الفكر العربي الإسلامي الحديث بالهلينية كهدف من أهداف التغريب لإحياء الوثنية في محيط الإسلام ، وربط هذا الاتجاه بتقبل سيطرة الفكر الأوربي الحديث على العرب والمسلمين . وان كل ذلك إنما يهدف إلى هدم قيم الأخلاق ، وإحياء الاباحية . يقول الدكتور زكي مبارك : عاش اليونان في جاهليتهم بعد ظهور الإسلام بأجيال طوال . وظلوا يتوارثون أوهام أسلافهم من عصر إلى عصر . إلى أن جاء المتطرفون من شعراء الفرنسيس والانجليز فعكفوا على هذه الوثنية يعيدونها من جديد . لأنها قامت على أساس براق هو التقديس لطموح الأهواء ، وطغيان الأحاسيس .

وإذا كان الرجل يعجب من سكوت العرب عن ترجمة ما كان عند اليونان من أسفار وأقاصيص ، فإن المسلمين الذين نهاهم دينهم عن إحياء الوثنية العربية ، قد انتهوا بفضل الدين عن إحياء الوثنية اليونانية .

خامساً : عارض الباحثون هذه المغالاة في القول بأن أرسطو هو معلم العرب الأول ، وأن اليونان هم أساتذة العالم ومثقفو الشعوب . ودحضوا محاولات إبراز مكانة الخطابة في اليونان ، وإهمالها عند العرب ، ومحاولة فرض مفكري اليونان على أنهم قادة الفكر البشري .

وقال الباحثون : ان هذه محاولة لإبعاد النفوس عن مجد اللغة العربية وسمو أدبها بحرمان الناشئين من معرفة الوسائل المؤدية إلى هذا السمو وهذا المجد .

سادساً : وقف الفكر الإسلامي والثقافة العربية موقفاً معارضاً لكل

---

١ – الرسالة : ٤ - ١٢ - ١٩٣٩ .

القيم والمفاهيم التي حملتها الهلينية إلى العرب والمسلمين . وحال إيمانهم العميق بالتوحيد دون الخضوع لكل ما تحمله الهلينية من وثنية واباحية ومعارضة للفطرة .

وقد أشار أرنست رينان إلى هذا المعنى حين قال : إن التوحيد هو أهم خصائص العرب ، وهو الذي يلخص ويفسر جميع صفاتهم ، وقد كان دين ابراهيم خالياً من التعقيد . وأشار إلى حركة الوهابيين في الجزيرة العربية وقال : إنها تجديد لفكرة التوحيد باتجاهها إلى تخليص العقيدة الاسلامية من كل العناصر الغريبة التي دخلت إليها وأبعدتها عن فطرتها الأولى .

وان هذا المفهوم من التوحيد : هو الذي حال بينهم وبين الميثولوجيا التي عرفها اليونان .

سابعاً : كشفت حركة اليقظة عن اختلاف مفهوم الفكر الاسلامي ، والفكر الهليني حول الفقه والرواية والمسرح . وأبانت كيف لم يكن العرب والمسلمون في حاجة إلى هذا الفن لنصاعة فكرهم ، ووضوح دعوتهم ، وبساطة كلمة التوحيد . وبعدها عن التعقيد الذي يحتاج إلى تفسير من خلال أساطير ومسرحيات ، وكذلك استبعاد المسلمين لفكرة عبادة البطل ، ومعارضتهم لفكرة الخطيئة الأولى مصدر المأساة . وكذلك إنكارهم لمفهوم الصراع بين الله والناس .

وقد علم القرآن المسلمين بالقصص الحق : كيف تكون المباشرة الصريحة ، والأسلوب الواضح الصريح بعيداً عن الإيماء والرمز والظلال والغموض .

هذا فضلا عما ألهم القرآن المسلمين من عفة المرأة وكرامتها . فضلاً عن طابع الرحمة والسماحة والكرم والأريحية . وهو ما يتعارض كلياً مع القصص اليونانية الحافلة بالوحشية والظلم والفساد على النحو الذي عرف في قصة الكترا ، وأوديب ملكاً . ويرجع ذلك إلى غلظة الآلهة الاغريقية وميلها إلى الشر والانتقام (١) .

---

١ – راجع رحلة الأدب العربي إلى أوربا للشوباشي .

ثامناً : قاوم الفكر الإسلامي في الهلينية نظرة الإلحاد والثنائية والوثنية والاباحية . وهي المظاهر التي ورثها الفكر الغربي والحضارة الأوربية التي يحاول دعاة التغريب فرضها من جديد على الفكر والمجتمع الإسلامي بإعادة انبعاث المسرحيات اليونانية والأدب الإغريقي .

تاسعاً : رفض الفكر الاسلامي مفهوم البطولة اليونانية القائم على الأحجار والتشكل المادي . وأقر مفهومه الأصيل القائم على تقدير العمل ، وإحياء الدور الذي قام به البطل في سبيل أمته ، كما رفض مفهوم التراجيديا اليونانية القائم على صراع الآلهة مع الإنسان ، أو عبادة الأبطال ، أو غير ذلك مما يتعارض مع أصول الفطرة الإنسانية المتحررة من العبودية لغير الله تعالى .

الفصل الخامس

الدّعوة إلى العاميّة

١

من أخطر الدعوات التي طرحت في نطاق مخططات الاستعمار والتغريب : محاولة فرض اللهجات العامية في البلاد العربية بديلا للغة العربية الفصحى . ولما كانت هذه اللهجات لا تحمل معها تراثاً ، ولا أدباً فقد جرت المحاولات لتجميع أزجال وأمثال ونكات من هنا وهناك في محاولة لخلق تراث يمكن الاعتماد عليه في خداع الأمم ،وتركز هذه الدعوى الباطلة على القول بأن العامية ليست لهجة من اللغة العربية ، ولكنها لغة مستقلة .

ولقد كان عمل دعاة العامية من المستشرقين الذين حملوا لواء الدعوة إلى ما يسمونه اللغة المحكية (سبيتا — ويلمور — ويلكوكس) جمع كلمات وأمثال — مما يدور في الأحياءالو طنية ، وبين العامة — من أجل الادعاء بأنه تراث للعامية .

بل لقد ذهب ويلكوكس إلى أبعد من هذا . حين ادعى بأن العامية لغة مستقلة عن العربية ، ولا صلة لها بها .

وعمدت الصحف العاملة في خدمة نفوذ الاستعمار والتغريب ، على

تشجيع الانتاج العامي كالأزجال والحكايات والخرافات من أجل دعم هذه الدعوى .

وقد بدأت الحملة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضي ، وامتدت وتبلورت في دعوى لم يثبت لها دليل . وهي القول بأن العامية هي مصدر قوة الاختراع . وأن تأخر المصريين في هذا المجال يرجع إلى اللغة الفصحى ، ولو أنهم اتخذوا لهم لغة إقليمية كما فعلت بريطانيا مثلاً لاستطاعوا أن يتفوقوا وأن يخترعوا .

وقد كانت هذه دعوى باطلة ، ومضللة وساذجة أيضاً، ولكن هكذا جرت المحاولات لمهاجمة اللغة العربية . ثم جاء ويلمور فدعا المصريين إلى العامية مكتوبة بالحروف اللاتينية .

وفي الغرب كان ماسنيون يدعو إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ، وتابعه كولان وغيره . ثم نبتت هذه الدعوة ثانية بين خريجي معاهد الإرساليات الذين حملوا لواء هذه الدعوة في بيروت. وفي مصر جرت محاولات كثيرة أبرزها، ما دعا إليه لطفي السيد ، وقاسم أمين ، وسلامه موسى ، وعبد العزيز فهمي . وكانت المحاولة التي خطط لها التغريب هي وضع اللغة العربية في مقابلة تاريخية مع اللغة اللاتينية التي ماتت ودخلت المتحف ونشأت منها لغات متعددة .

وكان القول دائماً بأن اللغة يجب أن تتطور لتلبي حاجات الناس في كل عصر . وأن هذا يتطلب منها أن تجاري مستويات الناس . ولذلك فقد جرت المحاولات في أوربا في العصر الحديث إلى اسقاط لغة الكتابة كل قرنين ، واعتماد لهجة الكلام لغة مستحدثة . وكان هذا هو ما يراد باللغة العربية . ولا ريب أن هدف هذا هو تحويل ذلك التراث الضخم . وفي مقدمته القرآن والسنة، والشريعة الإسلامية ، إلى شيء تاريخي لا يمكن دراسته إلا للمتخصصين، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة قواميس ومترجمات ، بعد أن يصبح معزولا تماماً عن اللغة المستحدثة . ولقد تصدى كثيرون لدحض فكرة المقابلة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية . ذلك أن اللاتينية حين ماتت كلغة للشعب ، إنما

كان ذلك نتيجة موت الأمة . أما الأمة العربية الإسلامية فإنها لم تمت بعد ، هذا فضلاً عن أن اللغة اللاتينية لم تكن اللغة الأصلية لكل أوربا . وإنما كانت هناك السالية والسكوتية والجرمانية الهندية . فضلا عن أن اللاتينية كانت لغة ارستقراطية ، لا يمارسها ولا يحسنها إلا النخبة الممتازة ، ولم تتغلغل في طبقات العوام (١) .

٢

لم تجد الدعوة إلى العامية تقبلا صريحاً . حتى من خصوم العرب والاسلام ، الذين عجزوا عن الدفاع عن العامية . وجرى التساؤل عن أي اللهجات العامية يتخذ العرب ، أهي لهجة الشام ، أو لهجة مصر أو لهجة العراق ؟ وإذا كان المقصود هو أن يتخذ كل قطر لهجته لغة ، فأي اللهجات في مصر مثلا : لهجة شمال الدلتا أو الصعيد . أو القاهرة ؟

وكشفوا عن أن كل لغة في العالم لها لهجة عامية . ولها لغة كتابة . وأن الفرق بين لغة الكتابة ولهجة الكلام في العربية ضيقة المجال . وليست أكثر مما بين اللغة الانجليزية وعاميتها . وقد أحصى الباحثون حجم الخسارة التي تفقدها الأمة العربية من اغفال الفصحى ، وخاصة ما يتعلق بتراث أربعة عشر قرناً من الفكر والأدب والعلم والشريعة . وكشفوا عن أن السر في صمود اللغة العربية في وجه غزو العامية ، إنما هو القرآن الذي ارتبطت به العربية منذ نزوله بها . وقد أحدث معجزة لا تعرفها لغات الأرض قاطبة . وهي أن العربي يستطيع أن يقرأ تراث القرون الماضية كله دون حاجة إلى قاموس ، وأن واحداً من هؤلاء القدامى . لو أنه بعث حياً اليوم لاستطاع أن يتحدث مع الناس .

وقد أشار الباحثون إلى ما تتميز به اللغة العربية من ثبات عجيب لا مثيل له ، إلى درجة أن أحد المستشرقين الألمان دعا الغربيين إلى استخدام اللغة

---

١ – راجع مجلة المشرق . م ٢٣ – وساطع الحصري (آراء في اللغة والادب)

العربية . لتدوين الآثار الفكرية التي تبنى عليها الحضارة وتستحق الخلود (١) .
ذلك أن المواطنين في أي لغة من اللغات المعاصرة ، لا يتجاوز فهمهم أكثر من إنتاج مائتي عام من التراث ، أما ما عدا ذلك فإنهم لا يستطيعون دراسته إلا بواسطة قواميس ، وان أقل مقارنة بين شكسبير مثلا في الأدب الأوربي ، وبين المتنبي في الأدب العربي تكشف عن هذا الفارق البعيد ، من حيث أن العربي يقرأ المتنبي اليوم ويفهمه . وبينهما ألف عام بينما الانجليزي لا يقرأ شكسبير إلا من خلال دراسات تنقل أفكاره إلى لغة القرنين الأخيرين .

٣

كشف الباحثون عن فساد اللهجات العامية ، وعجزها عن أن تحمل « اللغة » . ذلك أن العامية لم تبلغ من النضج والضبط والاحكام مستوى اللغة العربية الفصيحة ، فهي بدائية خام بعيدة عن الصقل لم تمرن على النهوض بأعباء الحياة العلمية والفكرية ، بينما كانت الفصحى حاملة رسالة العلم والأدب والفلسفة قروناً طويلة . مما أكسبها صقلا ومرونة وتجاوباً مع الفكر والشعور في مظهرهما الرفيع .

فالعامية أعجز من أن تقفز إلى المستوى الذي تحتله الفصحى منذ دهر طويل . زد على ذلك ، أن العامية لا مناص لها من الانحصار في بيئة ضيقة محلية ، فلن يتاح لها ما أتيح للعربية من الرقي والنضوج في شيوعها . إذ أن شيوع العقيدة الإسلامية كان سبباً في شيوع العربية التي تحمل تلك العقيدة ، فاشترك في الإنتاج بلغتها أمم مختلفة . وهذا الشيوع اللغوي أدى إلى زيادة في طواعية العربية ومرونتها للتعبير عن كل مطالب الفكر الإنساني (٢) . هذا فضلا عن أن العامية لا يمكن أن تحقق التفاهم ، الذي هو الغرض من اللغة . بل إنها تحول دون التفاهم ، مع أبناء الأقطار العربية ، أو بين أبناء القطر الواحد .

---

١ — الأستاذ حقي المحتسب : مجلة المعلم العربي م ١٩٥٤ .
٢ — نفس المصدر

وليس في اتخاذ العامية توفير للوقت والجهد كما يتوهمون . إذ يضطر الناس في المستقبل إلى دراسة أطوار العامية ، لكي يفهموا النصوص المكتوبة في عصر سابق كما سيضطرون إلى دراسة اللغات العامية المجاورة لهم ، كما سيحل مكان دراسة قواعد اللغة الفصيحة الواحدة دراسة قواعد العاميات المتعددة .

« ولا تستطيع العامية أن تباهي بمثل تاريخ الفصحى وفضلها على الحضارة » ولا شك أن العامية ستؤدي إلى اضعاف أواصر الوحدة القومية بين أجزاء الوطن العربي ، كما ستؤدي إلى اضعاف أواصر الوحدة الفكرية بين أتباع العقيدة الإسلامية ، وهدم العقيدة والقومية هدماً يهدف إليه المبشرون والمستشرقون .(١)

٤

أما القرآن الكريم وأثره في بناء اللغة العربية ، وأثره في امتدادها على القرون والأزمان . فإنه قد وجد من الباحثين تقديراً واضحاً وفهماً عميقاً . فهو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصيلة ، وحفظها على قيد الحياة ، وسيحفظها على مر الدهور . وستموت اللغات الحية المنتشرة اليوم في العالم ، كما ماتت قبلها لغات حية كثيرة في سالف العصور ، إلا العربية فستبقى بمنجاة من هذا الموت ، وستبقى حية في كل زمان ، مخالفة لنواميس الطبيعة التي تسري على سائر لغات البشر ، ولا غرو فإنها متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية (٢) .

وقد أكد غير واحد من الباحثين : بأنه لا لغة عربية بغير القرآن ، وأنه النموذج الخالد الذي سيبقى قمة البيان ، وأن اللغة العربية لا ريب حافظت على وجودها بفضل القرآن .

---

١ – حقي المحتسب : العامية . (مجلة المعلم العربي)

٢ – نفس المصدر

٥

ولا ريب أن اللغة العربية قد صاغت بالقرآن فكراً متميزاً له،معالمه الواضحة ، وطبيعته الخاصة . ومن هنا كانت اللغة العربية ضرورية لفهم هذا الفكر ، وكانت هناك مطابقة واحدة بين أهل اللغة العربية ، وبين القرآن والفكر الاسلامي، وهذا هو السر في القول بالعجز عن ترجمة القرآن، من حيث ارتباط الفكر باللغة ارتباطاً جذرياً ، ومن حيث عجز كثير من المستشرقين عن فهم القرآن، وفهم الإسلام . لأنهم يعجزون عن فهم أسرار اللغة وبلاغتها وتركيبها .

ولما كان من العسير فصل كلمات اللغة عن ملابساتها الفكرية التي تشير إليها . فقد قام للغة جدار ضخم في بناء الفكر . لا سبيل إلى إنكاره ، أو تجاوزه . وفي هذا المعنى يقول العلامة . صادق عنبر : لقد علمنا أن لكل أمة شهيداً من لغتها . على ما فطرت عليه من دين ، ودون لها من تاريخ ، وعرف عنها من نسب ومدنية وفنون . ففقدان أمة لهذه الثروة المعنوية اعتراف منها بتفاهتها .

٦

وإذا كان لنا أن نقيّم أهمية اللغة العربية . فإن ذلك يحتاج إلى موازين كثيرة : ومن ذلك أن عدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألفاً ، وكلمات اللغة الانجليزية مائة ألف . أما العربية فعدد موادها ٤٠٠ ألف مادة . ومعجم لسان العرب يحتوي على ٨٠ ألف مادة لا كلمة .

ويقول الخليل بن أحمد في كتاب العين : ان عدد أبنية كلام العرب (١٢ مليون و٣٠٥ ألف و٤١٢ كلمة) ويقول الحسن الزبيدي : ان ما يستعمل من ألفاظها ٥٦٢٠ لفظاً . وعندما نزل بها القرآن أزاحت السريانية والكلدانية والنبطية والارامية واليونانية والقبطية قبل أن ينقضي قرن واحد .

فلما بلغت القرن الثالث الهجري تحولت الصلوات في الكنائس إليها ، ثم كتبت بها اللغات التركية ، والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والمغولية والسودانية والايجية والساحلية . كما كتبت بها لغة أهل الملايو . وقد حدث هذا كله منذ ألف عام تقريباً .

ثم دخلت اللغات الأوربية كالفرنسية والألمانية والانجليزية . وفي اللغة الانجليزية وحدها أكثر من ألف كلمة عربية . ومن الناحية العلمية : فهي تفوق أضخم اللغات ثروة وأصواتاً ومقاطع . إذ فيها ٢٨ حرفاً غير مكررة . بينما اللغة الانجليزية فيها ٢٦ حرفاً ومنها مكرر . وباللغة العربية ثراءٌ في الأسماء المضاعفة . فهناك ١٧٠ اسماً للماء و٧٠ اسما للمطر .

ومن خصائص اللغة العربية : أن جميع مشتقاتها تقبل التعريف ، وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين . وللفعل العربي صيغ متعددة تبلغ الاثني عشر صيغة . كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي . وتمتاز بضروب في النحو في مجال الاشتقاق والمجاز والاستعارة والكناية .

ومن أعاجيب العربية التي لا تجد لها ضريباً أن كلمة (الوفاء) في اللغة العربية . قد شغلت أربع صفحات من الجزء العشرين من لسان العرب من صفحة ٢٧٨ إلى صفحة ٢٨١ . وفي بعض اللغات لا توجد كلمة واحدة تدل على هذا المعنى .

٧

هناك من دعاة التغريب من يقول : « ادعوا إلى قتل الفصاحة » . ولا ريب أن الدعوى هناك موجهة ضد القرآن نفسه ، ذلك أن الأمة العربية . إذا نزلت في أساليبها إلى المستوى العامي ، فإنها ستفقد قدرتها على فهم القرآن ، وعلى الاتصال بمضامينه . ولذلك فإن العربية لا تزال قائمة على الفصاحة وان أساليبها تبقى قائمة على مستوى القرآن دون أن تنزل عنه .

وفي هذا يقول العلامة مصطفى صادق الرافعي ! العربية لغة دين قائم على

أصل خالد هو القرآن الكريم . وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته . إلا من لا يحفل به من زنديق يتجاهل ، أو جاهل يتزندق . ثم ان فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ، ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة . ودرس الأساليب الفصحى ، والاحتذاء لها ، واحكام اللغة والبصر في دقائقها وفنون بلاغتها ، والحرص على سلامة الذوق بها . وكل هذا يجعل الترخص في هذه اللغة وأساليبها ضرباً من الفساد .

والحال الخاصة في فصاحة هذه اللغة : ليست في ألفاظها ، ولكن في تركيب ألفاظها (١) . ومن هنا فإن دعوى قتل الفصاحة هي حرب يراد بها إبعاد مستوى المسلمين والعرب ، عن مستوى بلاغة القرآن . ومن ثم يعجزون عن فهمه ، وينحرفون إلى مستويات العاميات .

ومن الحق أن اللغة العربية ليست لغة العرب وحدهم كأمة . وهم لذلك ليسوا مخيرين في أن يتصرفوا بها . ولكنها لغة فكر وثقافة وحضارة ودين ، يتزود بها سبعمائة مليون من البشر . فهي لغة فكر مشترك بين العرب والمسلمين . وبين المسلمين والمسيحيين ، وبين مختلف العناصر والشعوب . والأديان والمذاهب ، وهي لغة فكر الشرق بكل ثقافاته . وهذه خاصية لم تعرفها لغة غير اللغة العربية . ومن أجل ذلك فقد استعصت على القوانين والنظم التي حاول علم مقارنة اللغات أن يضعها ، أو يفرضها على ثقافات الأمم ولغاتها .

---

١ – تحت راية القرآن : مصطفى صادق الرافعي .

الإسلامُ في مُواجَهةِ الفِكر

١

إن أكبر الأخطاء التي تواجه الإسلام من خصومه . هي محاولتهم تطبيق مفاهيم الأديان الأخرى عليه . بينما يختلف الإسلام عن هذه العقائد التي قد أصابها التحريف،والقصور عن شمول الإسلام وتكامله . إن معظم العقائد والنحل تتقارب وتتشابه . وتلتقي في كثير من مفاهيمها . لذلك فقد يجد الباحثون من الغربيين في مفاهيم الإسلام شيئاً مخالفاً يعسر عليهم فهمه،وربما بدا غريباً كل الغرابة . ذلك أن الإسلام لم يكن مجرد دين ، بل هو طريقة في الحياة ، ومنهج واضح عني بكل ناحية من حياة الفرد ، منظماً سلوكه الاجتماعي والخلقي والقانوني والديني . وهو إلى ذلك منهج أخلاقي يربط الحياة الدنيا بالآخرة ، ويربط العقل بالقلب . ويربط العلم بالعمل .

والتوحيد هو الأساس الأول للإسلام . وهو أيضاً المحرك الأول للفكر الإسلامي . وبوضوح فهمه منهجاً متكاملاً جامعاً يلغي صور الخلاف . والصراع التي تقوم بين العلم والدين، والروحية والمادية،والفردية والاجتماعية. وهو يعلي من شأن الإنسان . ويجعله مستخلفاً في الأرض تحت إرادة الله .

وليس في الإسلام خطيئة أصلية ، ولكن فيه مسؤولية فردية وجزاء أخروي . فهو لا يقر مسؤولية أحد من البشر عن شيء سوى ما فعله . وهو يؤكد قيمة الإنسان بصرف النظر عن لونه وديانته .

٢

وقد رفض الإسلام مبدأ التقليد . ومبدأ التبعية . فالتقليد يمنع الاصالة ، والتبعية لا تتيح معرفة حقيقية . والتقليد ينطبق على الوافد وعلى القديم جميعاً . كما دعا الإسلام إلى التفرقة بين المعارف الجوهرية . والمعارف غير الجوهرية . ونادى بالاهتمام بالأولى ، والتركيز عليها .

وعمل الإسلام على تحرير أتباعه من التأثير الأجنبي بكل أنواعه . ودعا المسلمين إلى اليقظة إزاء الحرب النفسية التي تهدف إلى تغيير المعالم الأصيلة لعقيدتهم وفكرهم ومزاجهم النفسي .

ولقد كان أعداء الإسلام يعلمون أن الطريق الوحيد إلى ضرب الإسلام، هو إثارة الشبهات وطرح الدعوات الهدامة في طريقه وإدخال تفسيرات غريبة عليه . ولا ريب أن الطريق إلى حفظ وجودنا وكياننا . وحماية العقائد والأصول التي تقوم على التوحيد والأخلاق من الشبه والشكوك التي قدمتها الفلسفة المادية ، هو طريق واحد . إنه الاعتصام بالقرآن القادر على العطاء في حل جميع المتناقضات .

إن الفكر الغربي اليوم لا يقدم للمسلمين عوامل بناءة . أو ايجابية . فهو حريص على أن يبقيهم داخل دائرة ضعفهم وتخلفهم . إنما يقدم لهم صراع المذاهب الفكرية . ليفتنهم عن قيمهم . ويمنع عنهم العلوم التكنولوجية التي شاركوا في صناعتها . وهم في حاجة إليها . إنهم يعطون ما لا يحتاجون إليه، ويمنعون من حاجتهم الوحيدة في حضارة الغرب . إن وحدة الثقافة العالمية عبارة خلابة ولكنها تخفي في أعماقها التعصب والاحتقار للثقافات الإنسانية . ومعناها الحقيقي هو سيادة الثقافة الغربية . وتسيدها على حضارات الأمم . ولا سيما الفكر الإسلامي والثقافة العربية . لقد ظل كفاح المسلمين مستمراً على مدى الأجيال في سبيل تحرير الفكر الإسلامي من هيمنة الفلسفات الوافدة .

والنظريات المادية والوثنية . ولم يستسلم الفكر الاسلامي طوال تاريخه للنظريات الوافدة . وقاومها طويلا .

إن أخطر معطيات الفكر الغربي هي الانشطارية – هذه الانشطارية هي الفصل بين القيم عامة والأخلاق من ناحية وبين السياسة والتربية والاجتماع من ناحية أخرى .

وأخطر ما في المناهج الغربية الوافدة ، أنها تتوزع دون أن ترتبط في تكامل مع الإنسان نفسه وحاجاته، فترى علماء يدرسون الأخلاق في عالم المثل، وعلماء يدرسون الإنسان مجرداً عن الأخلاق . ويرى علماء أن هذا الفصل واجب ومفيد في العلوم الطبيعية . ولكنه خطر ومستحيل في علوم النفس والاجتماع ذلك أنه ما دام الناس يعيشون في إطار مجتمع ، وهذا المجتمع داخل في نفس كل فرد كجزء أساسيّ منه، فلا يمكن أن تنشأ قيم خلقية واجتماعية منفصلة عن الإنسان .

٣

لا ريب أن على المفكرين المسلمين والعرب أن يفكروا بلغتهم . ومن داخل إطار فكرهم لينطلقوا في الطريق الوحيد الذي تضيئه أمامهم أضواء التوحيد والعدل . وعلى المسلمين أن يعرفوا كيف حطم الإسلام قيد الإغريقية الثقيل . وحررهم من منهجها العبودي الوثني . وأن عليهم اليوم أن يحطموا قيد المادية في العصر الحديث . وعلى المسلمين أن يفرقوا بين الأصيل والبديل . وأن يذكروا دائماً أن الدعوات الهدامة تعمل على تقديم البديل الزائف البراق في مواجهة الأصيل الذي لا يجد طريقاً في زحمة الباطل .

إن تجميد العقل واعتباره سبيلا واحداً في البحث . ليس منهجاً إسلامياً أصيلاً . وعلى المسلمين أن يذكروا أن هناك ظاهرة انحلال واضحة في الفكر الحديث كله : في الأدب والفلسفة والاجتماع . لقد حرر الاسلام المسلمين من ركام الفكر القديم . ووثنياته . واضطرابه وأخطائه . فإذا كان في الفكر

القديم أي ضياء من نور ، فإنه إنما جاء من رسالات السماء . وقد أعاد الإسلام تشكيله من جديد على صورة مضيئة ربانية ، وما سوى ذلك فلا حاجة لنا به . ولا بد أن تكون هناك تفرقة واضحة بين مفهوم التخصص وبين مفهوم فصل القيم وتجزئتها .

إن التخصص هو إعطاء علم معين أو فن معين ، أكبر قدر من الاستيعاب والاستقصاء ، ولكن التخصص في مفهوم الإسلام لا يتم إلا في داخل نطاق التوسع في الدرجة الأولى من الفكر كله . والاهتداء بقوانينه وعلاماته . أما فصل الأخلاق عن السياسة ، أو عن التربية ، أو عزل الدين عن المجتمع ، أو الأدب عن الفكر . أو العروبة عن الإسلام . أو اللغة عن القرآن . فذلك ليس تخصصاً . ولكنه فصل مضيع لمفهوم التكامل الذي هو أبرز قواعد الفكر الإسلامي . والذي هو بمثابة الجدار السميك الذي يعجز الدعوات الهدامة والفكر الوافدة .

فالمنهج الإسلامي في المعرفة يقوم على الثبات ، والتطور على قاعدة الثبات وحركة التطور من داخله شأنه شأن كل شيء في الكون . له قاعدة يتحرك عليها ولا ينفصل عنها ، وفي الاسلام أهداف ثابتة . ووسائل متغيرة « فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله » .

إن الدعوة إلى التخصص على هذا النحو ليست إلا دعوة إلى تمزيق جهة واحدة ، وتفريق أصل واحد . إن مسألة تجزئة المفاهيم في الفكر الغربي لها طابعها وعواملها ومبرراتها . ذلك أن الأصول القديمة للفكر الغربي تقوم على الفصل بين القيم وأهمها بين الدين والمجتمع .

٤

وبعد فماذا تعني كلمة « العقائد الموروثة » التي يرددها بعض الكتاب ويلحون عليها ؟ إنها كلمة يراد بها الغض من شأن الدين والقيم الإسلامية . ولا ريب أن العقائد الموروثة صنفان : أصيل وزائف . وهي في إطلاقها دون

تحديد نوعها ، إنما تريد بالتمويه . أن تخدع بعض الناس وأن تصور لهم أن العقائد الموروثة كلها زائفة . والحق أن العقائد الأصيلة غير العقائد الزائفة ، وأن هناك عقائد زائفة جديدة هي في ذاتها نتاج عقائد موروثة .

ونحن نعلم أن الإسلام حين جاء بالحق . إنما كان حجة على العقائد الموروثة الزائفة . وقد كشف عنها ودحضها في قوة عن طريق أسلوب الإقناع القائم على العقل والقلب معاً . ونحن نعرف العقائد الأصيلة من العقائد الزائفة بوسائل كثيرة ، فلا شك أن كل ما يقدمه لنا الأعداء والخصوم زائف مهما بدا بريقه. وكل ما يتعارض مع فطرتنا . ومع روحنا . ومع طابعنا . ومع قيمنا الأصيلة هو زائف مرفوض .

أما الإسلام وحقائقه من التوحيد والنبوة والقرآن والبعث والجزاء . فلن تكون أبداً عقائد موروثة على النحو الذي يقصده دعاة التغريب .

٥

هناك صيحة تقول ان البشرية بلغت رشدها . فهل البشرية بلغت رشدها حقاً . ولم تعد في حاجة إلى وصاية الدين ؟ هذه هي الصيحة التي تحملها الدعوات الهدامة في العصر الحديث من أجل التحرر من القيم والمفاهيم التي ورثتها الإنسانية من رسالات الأديان . والتي هدتها في دياجير الظلمات وأمدتها بالقوة على معارضة الظلم والطغيان والفساد . ونحن نسأل عن القيم الجديدة التي أغنت البشرية عن هداية الدين . ونبحث فلا نجد شيئاً . إن كل ما تقدمت به البشرية في القرنين الأخيرين عما كان من قبل ، لا يزيد عن هذه المعطيات المادية التي منحت الإنسان بعض الرفاهية في المسكن . والملبس ، والطعام ، والشراب ، ولكن هل قدمت الحضارة . أو قدم العلم أي إضافة حقيقية في مجال النفس والاجتماع والأخلاق ؟ ثم نحن نعرف أن كل هذا التقدم المادي . إنما جاء على حساب النفس البشرية . وضد ارتفاعها وتقدمها الأصيل الذي يقوم على الروح والمادة معاً . ومن خلال العقل والقلب جميعاً .

إن الإنسان قد أصبح بالتقدم المادي أكثر حاجة إلى هداية الدين ، وأكثر بعداً عن الاصالة والإيمان.وقد كشفت لنا الدعوات الهدامة كالوجودية والهيبية مدى الأخطار التي تهدده وتدفعه إلى الغربة والتمزق .

إن الانسان بطبيعة تركيبه (نفساً ومادة) في حاجة إلى هداية من خارجه من كتاب الوجود الذي يكشف للنفس الإنسانية الطريق إلى الحق . ومن كتاب الله الذي يهدي البشرية إلى النور والضياء .

٦

ثم ماذا تعني صيحة الصائحين إلى إعادة النظر في كل المسلمات ، وما اصطلح على أنه نهائي ومطلق ؟ الحقيقة أن هذه كلمة حق يراد بها باطل . فقد أصبحت الوثنيات الآن هي المسلمات الجديدة . أما المسلمات المقصودة من أصحاب الصيحة . فإنها لا تتعدى النظر إلى الدين على أنه نتاج عصر انتهى . ومن حق السائلين أن يقولوا لنا أي دين يقصدون ؟ وهل اطلعوا على الإسلام حين عمموا القول بكلمة الدين ؟

إن حملات ضخمة وجهت إلى أديان كثيرة . وبعض ما في هذه الحملات صحيح . لأن هذه الأديان قد تجاوزت بالتأويل مجموعة من الحقائق الربانية لكن كل ما يوجه إلى الأديان في الغرب لا يمكن بحال أن يصدق على الإسلام . الذي يختلف ويتميز في معطياته . وفي تاريخه ، وفي موقفه من الإنسان . ومن العلم ،ومن الحياة. هذا الذي كان في عطائه لقضايا العلم والانسان والحياة . أكثر إيجابية وتقدماً ، والحق أنه ليست هناك مسلمات . اصطلح الناس على أنها نهائية ومطلقة غير الإيمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . وليس غير الايمان بالدين الحق المنزل على الأنبياء ، رسالة بعد رسالة . حتى أتمها الاسلام فكان خاتمها . وليس غير الإيمان بالقرآن كتاب الله المنزل وخاتم رسالاته . وليس غير الإيمان بالملائكة والنبيين واليوم الآخر . والبعث والجزاء ، فهل هذه المسلمات

التي أقرتها الأديان نهائية ومطلقة . يمكن أن تكون موضع شك أو شبهة ، أو محاولة لإعادة النظر؟

إن القائلين بهذه الصيحة . إنما يريدون أن يعلنوا عن حقيقتهم . أما فيما سوى ذلك من حقائق فنحن ندعو إلى النظر في المسلمات الباطلة التي يحاول خصوم الإسلام فرضها والدعوة إليها وتزيينها مثل : العلمانية . والنظرية المادية ،والفردية ، والوجودية وغيرها – فتلك هي المسلمات الزائفة التي تحتاج إلى إعادة النظر .

آفاق البحث

لكي نعرف مدى الفوارق العميقة بين معطيات الإسلام . وبين معطيات النظريات الفلسفية في مجالات العقائد . وعلوم النفس ، والاجتماع ، والأخلاق، علينا أن نذكر الحقائق التالية .

١

إن الإسلام هو الذي حرر العقل والنفس والإنسانية من الوثنيات من عبادة غير الله ، وحرر الفكر والإرادة والعمل . ورفض استعلاء الوجدانيين والعقلانيين ، وقرر أن أبرز مفاهيمه هي المطابقة بين العقيدة والعمل والكلمة والسلوك .

٢

اعترف الإسلام بميول وعواطف الإنسان . فقرر أن في الإنسان ميولاً وعواطف مختلفة ، وكلها فيه غريزية طبيعية أودعها فطرته لتكمل في شخصه ونوعه .

ولقد كانت الدعوة إلى الحرمان . ووقف تيار هذه الميول بالرياضات قبل الإسلام سببا في تعطيل قوى النفس الإنسانية . وقد أنكر الإسلام طريقين لتحرير الإنسان . هما التقشف والإباحة . ووضع الإسلام طرائق لتطهير

النفس كالعبادات والصوم . وتهذيب النفس أصل من أصول الحضارة الإسلامية .

ذلك أن على الإنسان أن يتحرر من ميول النفس ورغائبها وأهوائها وخضوعها لغير الله .

٣

إن الإسلام لم يعرف روح النسك التي عرفتها بيئات الأديرة والصوامع . ولم يكن في الإسلام دعوة إلى الرهبانية . بل كانت دعوته إلى : (قل من حرم زينَةَ اللهِ التي أخْرَجَ لعبَادِهِ وَالطيبَات منَ الرّزْقِ) . ولم يستسلم المسلمون . ولم يكن إيمانهم بالقضاء والقدر داعية استسلام ، بل داعية تحفز وعمل ، وتضحية بالنفس في سبيل الحق ، الذي آمنوا به واعتنقوه . أما المناضلة ضدالغيب بمفهوم كشف أسرار المادة ، وما يكمن فيها من تفاعل . فإنهم قد ذهبوا إلى أبعد شوط ، ولكنهم كانوا مؤمنين بالله ، فعفوا عن مثل ألفاظ مناضلة الغيب أو صراع القدر أو قهر الطبيعة . وهذه كلها عبارات لا يقرها الإسلام :

والإسلام يؤمن بتذليل الطبيعة . لا تحدي الطبيعة . ويؤمن بلقاء الأجيال لاصراع الأجيال .

٤

ولا يقر الإسلام نظرية تغير الأخلاق باختلاف البيئات والعصور ، ولا يقر نظرية التطور المطلق الذي يتحرك في فراغ . ولا يقر تقديس العقل ولا عبادة الباطل .

إن مفهوم الأخلاق : هو خلافنا الأساسي مع الفلسفات المادية . وأن مفهوم التوحيد : هو تميزنا الأصيل عن الفلسفات الوثنية .

٥

في الإسلام : ليس الإنسان شريراً على وجه الإطلاق . وليست عليه مسؤولية خطيئة سابقة، وليست الخطيئة متأصلة في كيانه . هذه وجهة النظر المتشائمة لا يقرها الإسلام .

وليس الإنسان رَدّ طبيعة صالحة خيرة على إطلاق القول . والإسلام يرى أن في الإنسان طبيعة الخير والشر . وأن إيمانه بالله هو الذي يرده عن الشر . وليس الإنسان عبداً لمواريثه . أو لبيئته . بل إنه قادر بالفهم لمهمته أن يحرر نفسه من كل الأخطاء . وكل موروث يمكن تغييره . ولا تصد المواريث أو البيئة النفس الإنسانية عن التحرر والتغيير .

٦

والأخلاق في مفهوم الإسلام : قوانين أخلاقية ثابتة يميز بها الحسن والقبيح، والحلال والحرام . والخير والشر . والمسلم يرى العمل حسناً حين يأمر به الله . والمسلم يؤمن بأن إرادة الله وراء القوانين ، وهي التي تجعل الحسن حسناً . والقبيح قبيحاً .

٧

وان أبرز مفاهيم الإسلام . أنه لا انفصال بين الدين والحياة . وبين الدنيا والآخرة وبين الروح والجسم . وبين الواقع والمثال . فالإسلام يرفض تمزيق الجبهة الفكرية بين الاقتصاد والسياسة . والاجتماع والدين . ويؤكد بقاء كل العناصر في اتجاه واحد قوامه « وحدة النفس الانسانية » .

وبذلك يقضي على كثير من الأخطار التي تواجه الفكر المعاصر . والنفس الإنسانية . والتي هي مصدر أزمة الإنسان الحديث .

إن أزمة القلق التي يعانيها المثقف المسلم اليوم . إنما تعود إلى أصل واحد

ومصدر واحد ، هو أنه ترك مقوماته الأساسية وقيمه ، في نفس الوقت الذي أخذ يواجه فيه النظريات والمذاهب العالمية ولو أنه التقى بالفكر الإسلامي . وهو صادر من قيمه ومقيم على قاعدته، لما وقع مثل هذا التمزق ، أو هذه الأزمة .

ولعل أبرز مقومات الفكر الإسلامي الأساسية هي : تلك القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان . وظهور القوة المدّخرة وبروزها على نحو مذهل ابان التحدي ، وذلك حتى في أشد فترات الضعف والقدرة الدائمة على مقاومة كل ما يضاد مفاهيمنا وقيمنا على مدى التاريخ كله . والإيمان بالذود عن مقوماتنا الأصيلة .

٨

إن روح الإسلام . ومنهجه الجامع بين الأخلاق والشريعة في ظل عقيدة التوحيد لا يعارض سير الحضارة . بل هو يدفعها دفعاً إلى الغايات العليا . ولكنه يتعارض مع التجاوزات الاباحية التي فرضها الإلحاد . والتي ليست من مفهوم الحضارة بمعنى أنها دعوة إلى التقدم . ومن هنا فإن القول بان الدين عامة . أو الإسلام يعارض تقدم الحضارة . هو قول مردود ، فالحقيقة أنه يعارض تقدم هذا الجانب من الاباحية والإلحاد والنظرية المادية . وهي ليست الحضارة .

إن الحضارة بمفهوم العلم التكنولوجي . والتقدم في أساليب الحياة تجري مع الإسلام . ولكن الخلاف هو في محاولة فرض منهج اجتماعي وأخلاقي على المجتمع . لا يقوم على أساس الضوابط التي قدمها الدين الحق . وعلى أساس الأخلاق .

إن الخلاف حول نقطة أساسية : هل الأخلاق ثابتة أم متغيرة . والاسلام يقول إنها ثابتة . وترتبط بالإنسان . وأن الإنسان روح ومادة . وليس مادة خالصة .

فاذا كان هذا هو مفهوم الحضارة . فالاسلام يختلف فيه عن مفهوم الغرب . ويرى أنه ليس المنهج الذي يدفع البشرية إلى التقدم بمعناه الحقيقي . والإسلام يرى أن كل حضارة لا ترتكز على الخير والعدل حضارة زائفة .

إن حضارة الاسلام تستهدف ترقية النفس وتحريرها من قيود الأهواء والشهوات بحيث تصبح ربانية الهدف . إنسانية الطابع تعمل لله . وتتجه بالخير إلى الناس جميعاً .

وقد اعترف الإسلام بناموس الرقي ، واعتبر الإنسان مسوقا لغايات من المدنية لم ينلها إلى اليوم .

٩

قرر الإسلام أن للوجود الإنساني سنناً لا تتبدل . ولا تتحول . ولا تزال عاملة على مقتضى نظامها المقرر لها .

١٠

لا يقر الإسلام إقصاء الدين عن منطقة الحياة الاجتماعية . بل يرى أنه ضروري لها . والإسلام جماع بين العقيدة والشريعة والأخلاق . فهو ينظم العلاقة بين الله والإنسان . كما ينظم العلاقة بين الإنسان والمجتمع كله .

ومن هنا . فقد أقام الاسلام منهجاً متكاملاً للخطوط العامة التي يقوم عليها سلوك الإنسان في الحياة إزاء نفسه . وإزاء باقي الجماعة . وهو منهج مرن واسع سمح ، يقبل الاضطرار والاحتمال . ويعفو عن الخطأ وهدفه من ضوابطه وحدوده حماية الإنسان نفسه . واحتفاظه بقواه وشخصيته .

وهو منهج متكامل جامع بين الروح والمادة والعقل والقلب ، يعترف بغرائز الإنسان . وحاجاته الطبيعية . ويسمح له بممارستها في حدود المحافظة على كيانه . ودون العدوان على حقوق الآخرين. وليس مفهوم الإسلام في الترابط بين الدين والمجتمع كمفهوم العقائد التي تفصل بينهما .

١١

من طبيعة الإسلام قدرته على التوفيق في براعة بين المتناقضات جميعاً . دون أن يميل إلى جانب أو يغلب كفة على أخرى . فهو يدعم الجماعية والفردية ، ويربط الروحية والمادية ، ويستوعب النفس والعقل الإنساني .

ومن طبيعة الاسلام : الجمع بين الثبات والحركة . وهو يقيم الحركة في إطار الثبات وعلى قاعدته . وهو في نفس الوقت الذي لا يقر فيه التعصب والتزمت، لا يقر الانطلاق والحرية غير المنضبطة . وهو يفسح للرغبات والمطامح طريقها إلى التحقيق ، ولكنه يحيط الانسان بالضوابط التي تحميه من الفساد والإباحة .

وهو يرفض الرهبانية . والزهادة في نفس الوقت الذي يرفض فيه الترف والتحلل .

والإسلام يطالب المسلمين بالحركة . وتغيير وسائلهم . وأساليب معيشتهم . والأخذ من كل جديد في إطار قيمهم ومبادئهم . ودون التضحية بها .

١٢

لا بد من التفرقة بين العقيدة في أصولها السمحة . وبين عملية التطبيق في المجتمع الإسلامي — وكذلك التفرقة بين مراحل القوة . ومراحل الضعف . ان المبادئ الأساسية للإسلام ستظل قابلة للتطبيق . لأنها مثل أعلى في الاصالة . والواقعية . والسماحة . ومطابقة تماما للفطرة . وجارية مع الطبيعة البشرية طرداً وعكساً .

ولا ريب أن توقفها . وتغلب مذاهب أخرى عليها في هذا العصر . ليس إلا عرضاً من أعراض ضعف المسلمين وعجزهم عن القيام على منهجهم ، وهو عرض زائل يمر بكل الأمم . ثم تكون اليقظة عاملاً على تجاوزه . وفي المبادئ الإسلامية من المرونة والسماحة ما يصلح المجتمع البشري كله ،

ويقدم له أصدق الحلول لمشاكله وقضاياه من خلال الإيمان بالله ، والأخلاق ، وقيام المسؤولية الفردية في ظل الإيمان بالبعث والجزاء .

ولا ريب تنكشف يوماً بعد يوم أخطار الانحراف الذي أصاب البشرية ، وما تزال الصيحات تعلو حول ما أسموه « أزمة الإنسان الحديث ». فقد اعترفوا بالأزمة ، وعجزوا عن حلها ، وقدمت لهم طرق جديدة هي : متاهات جديدة . وسوف لا يجدون بعد الجهد الجهيد إلا أسلوب الاسلام ، أسلوب الفطرة المنزل من عند الله .

١٣

ولا ريب أن القول بأن (الإيمان بقضاء الله وقدره هو مدعاة للتواكل) . هي دعوى منقوضة من أساسها . فإن الإيمان بالقضاء والقدر كما جاءت به الأديان السماوية . مفروض على المؤمنين في النتائج لا في الأسباب ، فهم مطالبون بالأسباب . مفروض عليهم السعي والأخذ بها ، مطالبون بعد ذلك . بأن يتركوا النتائج لله . مدبر الكون الواحد الأعظم . ومن هنا كانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر . سر عظمة المسلمين الأولين . لأنهم أخذوا في الأسباب ، وبذلوا جهدهم في استقصائها . إنفاذاً لأمر الله ، ولم يأبهوا للنتائج الضارة المؤلمة . رضاء بقضاء الله . ففازوا بالحسنيين ، وكان أحدهم حين يخرج للجهاد في سبيل الله . لا يبالي أوقع على الموت . أم وقع الموت عليه .

وما ابتلي الناس بهذا التواكل إلا يوم آمنوا بعقيدة القضاء والقدر ايماناً معكوساً . فأخذوا بها في الأسباب . فلم يستعدوا ونسوها في النتائج فلم يرضوا (١) .

ولا ريب أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذي دفع المسلمين إلى التقدم . وجرأهم على المخاطر . لتوسيع رقعة الإسلام . والدفاع عن حوزته على مرّ الأيام .

والمعنى الحقيقي للإيمان بالقضاء والقدر هو أن يؤمن المرء بأن الله

---

١ – صاحب الشهاب

خلق عالماً يسير وفق نظام دقيق ، وعلى المرء أن يعمل وفق طبيعة هذا العالم ، فإن على من يؤمن بالقضاء والقدر أن يقوم بعمله بهمة وإيمان ، ولا عليه من النتائج التي هي من قدر الله وقضائه. ولقد كانت عقيدة خلود الروح من أقوى الدعائم التي دفعت المجاهدين المسلمين إلى الموت غير مكترثين ، واستصغار الدنيا وزخرفها .

١٤

إن أثر الإسلام واضح في كل الثورات التي قامت على القيود التي تمنع العقل من التفكير . أو تفرض جماعة خاصة تحتفظ بالأسرار ، وإليها ترد الأمور . ومن الاسلام انطلقت الدعوة إلى تحرير الفكر البشري من الوثنية ، وانطلقت الدعوة إلى حق كل إنسان ، أن يفهم كتاب الله دون وسيط . وأن يتصل بالله دون وسيط . وبالإسلام انطلقت الدعوة إلى التحرر من طغيان الظلم . وعدم الخضوع لجور المستبدين . وباسم الإسلام انطلقت الدعوة إلى النظر في الكون . والبحث عن الدليل . وإنكار التبعية ، ورفض التقليد بالباطل . والتحرر من عقائد الآباء . إذا لم تكن قائمة على الحق الواضح الذي يقره القلب .

ومن مفهوم القرآن تحررت البشرية حضارياً من مفهوم العبودية الذي سيطر على كل الحضارات القديمة (فرعونية — وفارسية — ورومانية) وجعل البشر رقيقاً لمجموعة قليلة من السادة . ومن مفهوم القرآن والإسلام انتقلت البشرية من منهج التأمل النظري إلى منهج التجريب . وإخضاع الأمور للبحث العلمي .

ومن مفهوم القرآن انطلقت الدعوة إلى مقاييس الإيمان بالله ، وإعلائها على مقاييس العصبية والعنصرية ، وخلق الجماعة التي تربطها رابطة الفكر والعقيدة بدلاً من الدم والعنصر .

ومن منطق القرآن تحرر الإنسان من أخطار البحث عن الله والكون

والموت والبعث . فقد قدم له منهجاً متكاملاً موحى به يعجز العقل عن الوصول إليه ، ولكنه لا يعجز عن إدراكه . وبذلك حلت أعظم القضايا التي كانت مصدر الخلاف قروناً طويلة .

١٥

لا يمكن تفسير التاريخ الإسلامي بالظروف المادية ، أو بتحديات الاقتصاد وحده . إن هناك عوامل مختلفة تحكم تاريخ الأمم . وبعضها غير مادي . وتاريخ الإسلام تحكمه عوامل كثيرة منها عوامل نفسية وروحية .

١٦

لقد عجز العلم عن تقديم تفسير نهائي لكل الأشياء . وفي الإسلام ليس هناك تناقض بين العلم والإيمان ، والمسلم لا يجد في منجزات العلم ما يتعارض مع الإيمان. والفكر الغربي هو الذي فرق بين النظرة الدينية، والنظرة العقلية والعلمية .

١٧

إن النضالات الوطنية قد انطلقت تحت راية الجهاد في سبيل الله قبل أن تنطلق تحت راية الجهاد في سبيل الوطن ، ولقد كان الإسلام في أغلب هذه النضالات رمزاً للمقاومة الروحية ضد الاحتلال والاستعباد الاستعماري ، وكان الضمان لاستمرار وحدة اللغة والثقافة ، وكانت تتجسد فيه كل القيم النقية التي لم تكن متوفرة في ظل الاستعمار (١) .

---

١ – عن نص لروجيه جارودي .

١٨

الحركة قانون من قوانين هذا الكون ، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد ، وليست حركة عشواء بلا ضابط ولا نظام ، ولما كان لكل كوكب فلك ومدار ومحور ، فان الحياة البشرية كذلك لا بد لها من محور ثابت ، ولا بد لها من فلك تدور فيه . وإلا انتهت إلى الفوضى .

١٩

إن الفصل بين الدين والدولة : هو نتاج وافد غريب . وهو من معطيات العقائد الأوربية في تشكلها وصراعها خلال تاريخ طويل . ولكنه ليس من معطيات الإسلام ، بل إن الإسلام في تكامله ، وترابط القيم فيه يقيم من الدين والدولة كلاً متكاملاً . فالاسلام دين ومنهج حياة وشريعة وخلق .

وقد جاءت قضية الفصل بين الدين والدولة في الغرب هدفاً عميقاً من أهداف الأيدلوجية التلمودية حيث كان الربط بين الكنيسة والحكومة حائلاً بين اليهود وبين الاندماج في المجتمعات . فلما انكسر هذا القيد سيطروا على الأنظمة كلها ، وفرضوا نفوذهم عليها .

والمسيحية بطبيعتها منهج يقوم على العبادة والوصايا الأخلاقية . وليست لها شريعة منفصلة . لأنها لم تكن إلا أحدى رسالات بني إسرائيل . مصدقة للتوراة ، جاءت مكملة للناموس . وليست نافية إياه . ولقد اعترف المفكرون الغربيون جميعاً بحقيقة الإسلام نظاماً كاملاً ، وقدروا الفوارق العميقة بينه وبين الأديان والمعتقدات الأخرى .

وعبارة هاملتون جب في هذا واضحة صريحة : « ليس الإسلام ديناً بالمعنى المجرد الخالص . بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ، ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية لأن ظروفه في أول الأمر أدت إلى ربط السياسة بالدين . وقد أكد هذه النزعة الأصيلة ما تلا ذلك من صوغ

القانون الإسلامي ، والنظام الاجتماعي. والحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات : إنه أعظم من ذلك بكثير . فهو مدنية كاملة » .

وميزة الإسلام التي خصته بأن يكون نظاماً كاملاً . هو أنه قدم مبادئ عامة وأصولاً ثابتة في مجال الشورى والعدالة والمساواة تصلح لإقامة مجتمع متماسك. وتترك للبشرية في تطورها . واختلاف عصورها وبيئاتها القدرة على تقرير أسلوب مناسب في إطار هذه الأصول . وهو ما يحول دون الجمود ، ودون التعارض مع تطور المجتمعات . غير أن هذه الأصول واجبة الإقرار ، وأن مقرراتها ثابتة لا تتعرض للتطور . أو التحول . وهي لا تخضع أبداً لتغير المجتمعات . ومن ذلك حدود الله في الزنا ، والربا ، والخمر ، والسرقة فتلك أصول أصيلة — وليست وصايا عامة — أو نصائح أخلاقية .

٣٠

الحرية في مفهوم الاسلام أن لا يبقى الإنسان عبداً لشهواته. ولا عبداً لغير الله. وأن لا يخضع لسلطان غير سلطان الخالق . ويأنف أن يكون عبداً للإنسان . والحرية في الإسلام هي حرية جامعة شاملة تقوم على التحرر من قيود الجهل والخرافة والوثنية والتقليد . والاسلام أول من دعا إلى هذه الحرية. ولقد علم الاسلام الإنسان كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

ولقد استطاع الاسلام بهذا المفهوم أن يطلق العقل البشري من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد ، وبين أيدي الكهنة . فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة .

وإذا كانت صيحة أصحاب المذهب المادي إلى تحرير الفكر من كل التقاليد والأساطير الموروثة. فإنها إنما كانت تعني ذلك « الركام » الذي عاشته أوروبا في خلال العصور الوسطى . أما الإسلام فقد كان هو صاحب الدعوة إلى مثل هذه الحرية . وان ما جاء به يرتفع فوق الأساطير والتقاليد . لأنه الحق الصادق الذي تصدع به النفوس والعقول والفطرة البشرية السليمة .

وهو الذي ليس وراءه من حق أو قول: «قُلْ ماذا بَعدَ الحقّ إلاّ الضّلال».
ولقد عرف الإسلام « الحق » عاماً شاملاً . بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين ، بينما عرف الغرب الحق على أنه شيء في أوروبا . وشيء في المستعمرات يختلف عنه . بل ويتعارض معه . ومن هنا فقد كان موقف الفكر الغربي بالنسبة للمسلمين والعرب والإسلام موقف الخصومة والعداء . وتجاوز الحق ، وتجاهل كل ما ادعى أنه من المناهج العلمية للبحث والاستواء .

ولقد كان المسلمون صادقين في تطبيق حرية الفكر على الناس جميعاً . وحافظوا على القاعدة الاساسية لا إكراه في الدين . ولم يسفكوا دم أحد عقاباً له . لأنه قال رأي يخالف برأي الإسلام . إلا إذا اتصل ذلك القائل بالخيانة السياسية .

وكما دعا الإسلام إلى تحرير الفكر دعا إلى تحرير الجسم . فالاسلام هو الدين الذي جاء ناقضاً للرق ، هادماً للنظام العبودي في امبراطوريات فارس والروم والفراعنة .

٢١

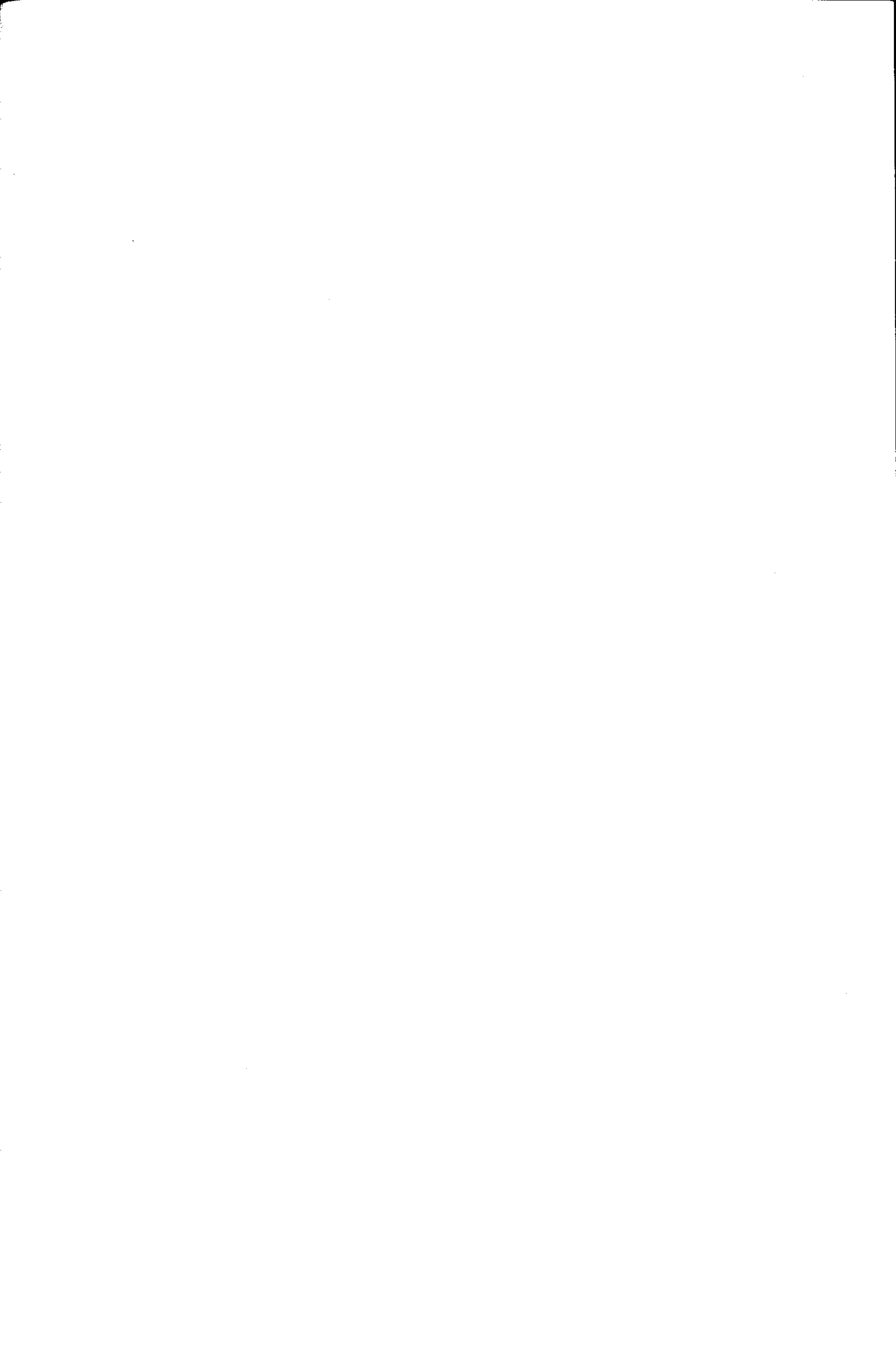
إن أبرز معطيات الإسلام هي قدرته على معايشة الحضارات والثقافات المختلفة . واستمراره في مختلف الأزمنة والبيئات . فهو قادر على إجراء حركة التصحيح من داخله ، وردّ الشبهات ومقاومتها ، والمحافظة الدائمة على طابعه الإنساني . وأصله الرباني .

وللإسلام إلى ذلك قدرته على التوسع والانفتاح على الآفاق ، واقتحام مناطق جديدة من الأرض لنشر كلمته .

إن ميزة الإسلام في شموله وتكامله أنه جمع بين الحريات والضوابط ، وبين الفردية والجماعية وبين العلم والدين . وبين العقلانية والوجدان . وبين الروح والمادة . وبين الوحي والعقل . وبين الدنيا والآخرة . وبين الغيب والشهادة . وبين الثبات والتطور . وبين الماضي والحاضر . وبين

المحافظة والتجدد ، وبين الإسلام والانسانية . وتلك ميزة الإسلام وخاصيته التي تميز بها واختلف عن كل العقائد والأديان .

وتلك هي مصدر قدرته الفائقة على مواجهة كل التحديات والأخطار . وعلة خلوده على الزمان .



المصادر والمراجع

١ — القرآن الكريم
٢ — الجامع الصحيح للامام البخاري .
٣ — تبليس إبليس لابن الجوزي .
٤ — فضائح الباطنية للإمام الغزالي .
٥ — الملل والنحل للشهرستاني .
٦ — العواصم من القواصم للقاضي ابن العربي .
٧ — تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . مصطفى عبد الرازق .
٨ — النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي . محمد أحمد الغمراوي .
٩ — دائرة معارف القرن العشرين . محمد فريد وجدي .
١٠ — رسالة التوحيد . الشيخ محمد عبده .
١١ — مناهج البحث عن مفكري الإسلام . الدكتور علي سامي النشار .
١٢ — الإسلام والإيمان . الدكتور عبد الحليم محمود .
١٣ — تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة . محمد عبد الله عنان .
١٤ — الاسرائيليات في التفسير والحديث . محمد حسين الذهبي .
١٥ — اتجاهات هدامة في الفكر العربي . دكتور محمد محمد حسين .
١٦ — الخطر اليهودي . محمد خليفة التونسي .
١٧ — الفكر الاسلامي الحديث . دكتور محمد البهي .

١٨ ـ الجمعيات السرية . علي أدهم .
١٩ ـ أهداف اسرائيل التوسعية . محمود شيت خطاب .
٢٠ ـ اليهودية العالمية . عباس محمود العقاد .
٢١ ـ الغارة على العالم الإسلامي . ترجمة السيد محب الدين الخطيب .
٢٢ ـ التبشير والاستعمار . عمر فروخ وآخر .

هذا الكتاب

لفت القرآن الكريم انظار المسلمين إلى الدعوات الضارة ، والمذاهب الهدامة ، ووضع الأسس الثابتة لمواجهة الشبهات ، وكشف عن مخططات الاحتواء والتبعية . وتحريف الأصول الثابتة . ونبه المسلمين إلى الحذر عن متابعة غير المسلمين والتماس ما عندهم :

« وَدَّ كثيرٌ من أهل الكتابِ لو يَرُدّونَكُمْ من بعدِ إيمانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً من عندِ أنفُسِهِمْ من بعدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقّ » .

« يا أيها الذين آمنوا إنْ تُطيعُوا فَريقاً من الذين أُوتُوا الكتابَ يَرُدّوكُمْ بعد إيمانكم كافرينَ » .

« ألمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نَصيباً من الكِتابِ يَشْتَرُونَ الضلالَةَ ويُريدونَ أن تَضِلّوا السبيلَ » .

كذلك كشف الله حقيقة موقف البشرية من العلم . وكيف خالف فيه قوم ، والتمسوا منهجاً غير منهج الله :

« كانَ النّاسُ أُمّةً واحِدَةً فبعثَ اللهُ النّبِيين مُبَشّرينَ وَمُنْذِرينَ . وأنزلَ مَعَهُمُ الكتابَ بالحقّ لِيَحْكُمَ بيْنَ الناسِ فِيمَا اختلَفُوا فيه . وَما اختَلَفَ فيه إلا الذينَ أُوتُوهُ مِنْ بعدِ ما جاءَتْهُمُ البَيّنَاتُ بَغْياً بينهم .فَهَدَى اللهُ الذين آمنوا لِمَا اختَلَفُوا فِيهِ من الحقّ بإذنِه واللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم » .